

- بروكسل.. الساحة الأسطورية ولغز الطفل الصغير!
- تصحيح المناهج الدراسية في الغرب
- العولمة وثقافة الصورة

مجلة ثقافية شهرية - العددان ٣٨٩-٣٩٠ ذو القعدة-ذو الحجة ١٤٢٩هـ/نوفمبر-ديسمبر ٢٠٠٨م
ALFAISAL MAGAZINE - No. 389 - 390 - Nov. - Dec. 2008

الضحك علم له أصول

بطاقتي الإسلامية بمزاياها الجديدة تفتح لي عالماً من الإمكانيات.. من بنكي

إستفد من ميزاتها مطمئن البال



الآن أصبحت البطاقة الإسلامية بحلتها الجديدة من بنك الرياض تلبي جميع احتياجاتك اليومية حيث إنها قائمة على مبدأ المرابحة المتوافقة مع الأحكام والضوابط المعتمدة من الهيئة الشرعية بالبنك سواءً كنت في رحلة عمل أو لمتابعة العطلة المستحقة مع عائلتك أو حتى أثناء تسوقك فإن بطاقات بنك الرياض الإسلامية الجديدة هي الوسيلة الآمنة والأمثل لتلبية جميع احتياجاتك. الآن أطلب البطاقة الإسلامية بحلتها الجديدة ومتع هذا الصيف بالمزايا المالية

- الحصول على البطاقة الإسلامية مجاناً للسنة الأولى
- استرجاع 10 % من قيمة التذاكر الدولية *
- استرجاع 1 % من قيمة المشتريات *
- إمكانية السحب النقدي لكامل الحد الإئتماني
- الحصول على بطاقات إضافية مجانا لأفراد العائلة
- الحصول على بطاقة الإنترنت مجاناً
- المرونة في السداد

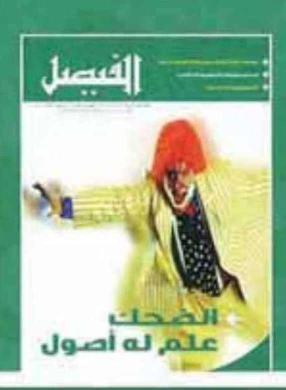


تفضل بزيارة أقرب فرع لبنك الرياض لتقديم طلبك مع إرفاق صورة من بطاقة الهوية الوطنية أو الإقامة

* يسري هذا العرض ابتداءً من 1 يونيو ولغاية 31 أغسطس 2008م - خاضع للشروط والأحكام

بنك الرياض
riyad bank

riyadbank.com | 800 124 2020 بنكي... بنك الرياض



الضحك لغة عالمية لا نحتاج أن نتعلمها. كل الناس تضحك. كل الشعوب. الضحك جزء من السلوك البشري في كل مكان بالعالم. يضحك الفرد منا في المتوسط ١٧مرة كل يوم. إننا نضحك أكثر مما نأكل أو نغني أو نحب. وكلنا يفهم لغة الضحك من دون تدريب.

إدارة التحرير
رئيس التحرير: يحيى محمود بن جنيد
نائب رئيس التحرير: عبدالله يوسف الكويليت

هيئة التحرير
حسين حسن حسين
محسن بن حمد الخرابة
حوى النبي علي صالح
سيد علي الجعفري

الإخراج الفني
الوليد إبراهيم دبنار

المراسلات للتحرير والإدارة
ص.ب (٣) الرياض ١١٤١١ - المملكة العربية السعودية
هاتف: ٤٦٥٣٠٢٧ - ٤٦٥٢٢٥٥
ناسوخ: ٤٦٤٧٨٥١

الاشتراك السنوي
١٥٠ ريالاً سعوديًا للأفراد. ٢٥٠ ريالاً سعوديًا للمؤسسات.
أو ما يعادلهما بالدولار الأمريكي خارج المملكة العربية السعودية.

الإعلانات
هاتف: ٤٦٥٢٢٥٥ - ناسوخ: ٤٦٤٧٨٥١

رقم الإيداع في مكتبة الملك فهد الوطنية ١٤٢٥/٠٤١
ردمد ٠٤١١ - ٨٥٢٠

الناشر
دار الفيصل الثقافية



ضوابط النشر

يفضل طباعة المادة المرسلة على الحاسب الآلي، وإرسال نسخة على قرص مرن إن أمكن، أو كتابتها بخط مقروء على ورق A4 جيد، مع إرفاق سيرة ذاتية، وصورة ملونة حديثة.

لا تفضل المجلة نشر المقالات الانطباعية التي تخلو من المعلومات.

يرجى إرفاق صور أصلية ملونة جيدة مع الاستطلاعات والموضوعات الملونة، ولا تقبل الصور المأخوذة من الصحف والمجلات.

في حال إرسال قصة مترجمة يرجى إرفاق الأصل المترجم.

لا تنشر المجلة الموضوعات المترجمة مباشرة من مجلات أجنبية، إلا إذا كان هناك إذن مسبق منها، وإن كان لا مانع من اتخاذها مصدرًا من مصادر الموضوع، مع توضيح مواضع الاقتباسات بشكل علمي.

المواد التي يعتذر من عدم نشرها لا تعني بالضرورة ضعف مستواها، ولكن قد تكون هناك مواد كثيرة في الموضوع نفسه سبق نشرها، أو تنتظر النشر، ولا ترد المقالات إلى أصحابها بأي حال من الأحوال.

يرجى إرفاق صورة غلاف الكتاب الذي يتم عرضه في باب «قراءات» مع بيانات وافية عن الكتاب المعروض تشمل: عنوانه، واسم مؤلفه، ودار النشر ومقرها، وسنة النشر، وعدد الصفحات.

نأمل من الإخوة الكتاب الذين يراسلون المجلة من خارج المملكة العربية السعودية كتابة أسمائهم بالحرف اللاتيني.

الموضوعات التي مضى عليها وقت طويل ولم تنشر في المجلة سيتم الرد على الكتّاب بعد إعادة تقويمها بغض النظر عن أنها قد أجيزت من قبل للنشر.

لا تمنح مكافآت على ما ينشر في بابي «رسائلكم» و«ردود وتعقيبات».

يرجى الاهتمام بالتوثيق، ومن أهم ما ينبغي مراعاته:

يفضل تخريج الآيات القرآنية من القرآن الكريم مع تشكيلها، وذلك بذكر اسم السورة ووضع نقطتين بعدها ورقم الآية.

يفضل تخريج الأحاديث الشريفة من كتب الحديث مع ذكر طبعة الكتاب.

التثبت من النقول التي تنقل من الكتب، ولاسيما المصادر والمراجع التراثية القديمة مع ذكر طبعة الكتاب.

تشكيل الشعر ما أمكن، خصوصًا القديم منه.

ضبط أسماء الأعلام والشعراء والأماكن والأشياء غير المعروفة والكلمات غير المألوفة بالشكل الصحيح، والتأكد من أن أسماء الأعلام الأجانب مطابقة لما هو متداول في لغاتهم إن أمكن.

الموضوعات التي في المجلة تعبر عن آراء كتّابها، ولاتعبر بالضرورة عن رأي المجلة.

السعر الإفرادي

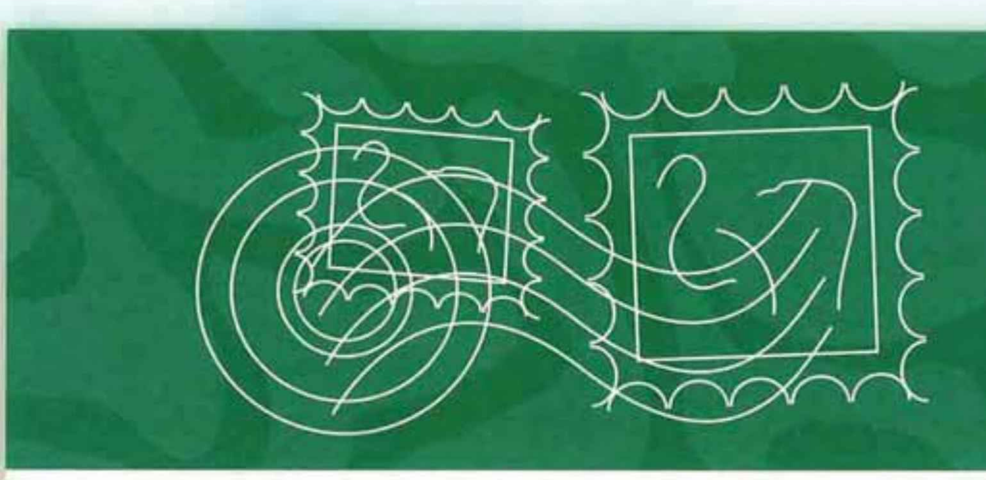
السعودية ١٠ ريالات. الكويت ٨٠٠ فلس. الإمارات ١٠ دراهم. قطر ١٠ ريالات. البحرين دينار واحد. عُمان ريال واحد. الأردن ٧٥٠ فلساً. اليمن ١٠٠ ريال. مصر ٤ جنيهات. السودان ١.٥ جنيه. المغرب ١٠ دراهم. تونس ٢٥٠، ١دينار. الجزائر ٨٠ دينارًا. العراق ٨٠٠ فلس. سورية ٤٥ ليرة. ليبيا ٨٠٠ درهم. موريتانيا ١٠٠ أوقية. الصومال ٢٠٠٠ شلن. جيبوتي ١٥٠ فرنكاً. لبنان ما يعادل ٤ ريالات سعودية. الباكستان ٢٠ روبية. المملكة المتحدة جنيه إسترليني واحد.

الموزعون

السعودية . الشركة الوطنية الموحدة للتوزيع . هاتف ٤٨٧١٤١٤(٠١) . فاكس ٤٨٧١٤٦٠(٠١). مصر . مؤسسة توزيع الأهرام . شارع الجلاء هاتف: ٣٣٩١٠٩٥ . فاكس ٣٣٩١٠٩٦ . ٢٠٢... سورية . المؤسسة العربية السورية لتوزيع المطبوعات ص.ب ٥٣٠١ هاتف ٨٤٢٨٢١٢ . فاكس ٢١٢٢٥٣٢ . ١١. ٠٠٩٦٣. تونس. الشركة التونسية للصحافة . ٣ نهج المغرب . ص.ب ٧١٩. فاكس ٧١٤٠٠٣٢٣/ هاتف ٩٣٢٢٤٩ . ٧١ . ٠٠٢١٦. قطر . دار الشرق للطباعة والنشر والتوزيع، ص.ب ٣٤٨٨ هاتف ٤٦٦١٢٨٢ . فاكس ٤٦٦١٨٦٥ . ٠٠٩٧٤. الأردن. شركة وكالة التوزيع الأردنية . ص.ب ٣٧٥ هاتف ٤٦٣٠١٩١ . فاكس ٤٦٣٥١٥٢ . ٦. ٠٠٩٦٢. البحرين. مؤسسة الهلال لتوزيع الصحف ص.ب ٢٢٤ هاتف ٢٩٤٠٠٠ . فاكس ٥٣١٢٨١ . ٠٠٩٧٣. الإمارات العربية المتحدة . مكتبة دار الحكمة ص.ب ٢٠٠٧ هاتف ٤٩٣٥٦٦٢ . فاكس ٢٦٦٩٨٢٧ . ٤ . ٠٠٩٧١. الكويت . شركة المجموعة الكويتية للنشر والتوزيع ص.ب ٢٩١٢٦ ت ٢٤١٧٨١٠/١١/١٢ . فاكس ٢٤١٧٨٠٩ . ٠٠٩٦٥. المغرب . الشركة الشريفية لتوزيع الصحف فاكس: ٢٢٤٠٤٠٣١/٣٢ . ٠٠٢١٢ ت: ٢٢٤٠٠٢٢٣، الجمهورية اليمنية . القائد للنشر والتوزيع هاتف: ٢٠١٩٠١/٢ . ٣ . ٠٠٩٦٧ فاكس: ٢٠١٩٠٩/٧







رسائلكم

بعيداً عن العين

لقد كنت أحصل على «الفيصل» شهرياً من السوبر ماركت المجاور لمنزلي من دون عناء، ولكنني منذ وقت بعيد أصبحت ألاحظ عدم وجودها في هذا المحل، ولا في المحلات المجاورة، في حين أن مجلات أقل مستوى، ولم يسمع بها أحد تتزاحم في محلات الأحياء، ويسهل لمتابعيها الحصول عليها متى أرادوا، فلماذا هذا الغياب لمجلة لها هذا التاريخ الطويل، حتى ظن كثيرون أنها توقفت عن الصدور، فـ (البعيد عن العين بعيد عن القلب) كما يقول المثل.

م. عكاشة أحمد علي

الناصرية - الرياض

التحرير

نلمس مشكلة التوزيع بوضوح، ونعمل على حلها بقدر الإمكان، وسوف نتخذ خطوات عاجلة في هذا الشأن بالتنسيق مع شركة التوزيع؛ لعلنا نصل إلى ما يرضي القراء، مع تقديرنا لاهتمامك وحرصك على مجلتك.

ملاحظة:

لقد منّ الله تعالى عليّ بأن أفوز في المسابقة الثقافية الشهرية لمجلتكم الموقرة بعد سنوات كثيرة في العدد ٣٨٠ إصدار شهر صفر سنة ١٤٢٩هـ، والشيك رقم ١٧٩٥٩؛ بتاريخ ٢٠٠٨/٦/١٥م بمبلغ قدره ١٩٠ (مائة وتسعون) دولاراً؛ أي ما يعادل مبلغ الجائزة الثالثة ٧٠٠ (سبعمئة) ريال سعودي.

سؤالي: هل من حق القارئ أن يفوز عدة مرات في المسابقة الثقافية الشهرية لمجلة الفيصل؟

آمل الرد منكم على صفحات الفيصل، مع احترامي وتقديري واعتزازي بكم جميعاً.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وكل عام وأنتم بخير.

محمد فتحي يوسف محمد

الأقصر - الكرنك القديمة - نجع الملقطة - مصر

التحرير:

نهنئكم بهذا الفوز، ونفيدك بأن الفائزين يظل لهم حق المنافسة في الأعداد التالية؛ لأن الأمر كله يخضع للقرعة من دون أي تدخل؛ لذا ليس مستبعداً أن يتكرر فوز متسابق ما أكثر من مرة، ونتمنى لك ولجميع الإخوة القراء حظاً وافراً، مع تكرار الشكر على اهتمامك بمتابعة المجلة.

ملاحظات عابرة:

المكرم رئيس تحرير مجلة الفيصل الغرّاء..

السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته، وكل عام وأنتم وفريق عملكم الميمون الخيّر بكل خير ورضا وقبول عنده تعالى، وبعد:

لن أطيل هذه المرة، وأعتقد أن رسالتي ستكون صدى من الأصداء التي ستصلكم تباعاً كمجلة مرموقة تحترم نفسها، وقد قطعت شوطاً لا **بأس به حتى الآن، إذ ناهزت عقدها الثالث، وهي ما بين مد وجزر، إلى هُنا والأمر طبيعي، أما غير الطبيعي، فهو هذا التراجع في الزّخم الذي طرأ عليها مؤخراً، إذ شهدت (في تقديري) ترهلاً لا مبرّر له، ترهلاً على رغم وجود الكمّ الهائل الضاغط على مطبوعة كمطبوعاتكم بدأت قوية ذات سمت خاص، وتجذّرت مع الواقع المصوغ من الأصالة والعراقة والمتفرّع في فضاء المعاصرة، بل الحداثة أيضاً.**



أيها الأستاذ النبيل، وإذا كان لابدّ من تنويه أيضاً فقد كنت من بين أكثر المتابعين لنقلاتكم عبر محطات الوثب والارتقاء، محتفياً ومنوّهاً بخطواتكم، ولافتاً إلى ما يلزم، لا كوصيّ على مسيرتكم ومتعالماً عليكم، بل من خلال تتبعي نبض (الفيصل): المجلة النبتة التي انبثقت من عمق الصحراء بكلّ رونق واخضرار.

فقد تكرّرت الإشارة إليكم بموادّي التي صارت وديعة لديكم، ومنها على الخصوص مقالتي حول الأديب الشاعر الذي افتقدته الساحة الشرقية قبل نحو خمس سنوات الأستاذ المرحوم أمين شنار، واعترفتم بتسلّم المادة، ووعدتم بنشرها (قريباً).كان هذا من نحو السنتين، ولما أزل أتابع، ولكن ثمة ما أودّ ذكره هنا أيضاً بخصوص أحد أهم أبواب الفيصل الذي استمرّ منذ انطلاقتها، ألا وهو باب المسابقة، فبدلاً من تطويره كما وعدتم إذا بكم تغلقونه مع عدد رمضان الحالي غير مشيرين البتّة إلى ذلك، وهذا الأمر أدهشنا بحق نحن المهتمين أيضاً به، وأظننا كثراً منتشرين عبر كل الجهات، ولا أدري ما مصير مشاركتنا في المسابقات الأخيرة، أليس من العدالة بيان نتائجها؟!

وبعد، أعتقد أنّ في هذا كفاية، ولعلّها نزوة زكام ألمّت بالفيصل مجلة (كيلا) تطول. والله الشافي المعافي الكافي، والسلام.

عبد الغني عبد الهادي

عمان ١١١٢١ ص.ب ٨٥٤٥ الأردن

التحرير:

نشكر لك اهتمامك، ومتابعتك، وحرصك على التعليق وإبداء الملاحظات. ونحن نحترم ما تبديه من رأي في المجلة بخصوص التأخير في نشر المواد. فقد سبق التنويه أكثر من مرة بوجود كم كبير من المواد التي يتعذر علينا نشرها في أعداد محددة، خصوصاً أننا نراعي التنويع في المواد، وفي جنسيات كتّابها، ونحرص على أن يأتي العدد مرضياً لكل الأذواق، وإذا وضعنا المواد حسب ورودها لجاءت المجلة في كل عدد بشكل مغاير، وشخصية مختلفة، وقد تفهّم كثير من الكتّاب هذا الأمر، فمنهم من آثر الانتظار، ومنهم من أراد نشر المادة المرسلة في مطبوعة أخرى. أما المسابقة، فهي لم تحجب ولم تختف، ولا نعرف مسوّغاً لما قلته، إلا إذا كانت النسخة التي لديكم قد نزع منها الباب. وقد لمس الإخوة القراء تطوراً في قيمة المسابقة، وعدد جوائزها. أما الشكل، فيحتاج إلى لمسات تطويرية تواكب ما نعمل عليه من تطوير للمجلة تحريراً وإخراجاً.

التراث بين الحياة والجمود

لقد قرأت الاستطلاع الخاص عن هولندا وطواحين الهواء فيها، وسررت كثيراً بالأسلوب الذي كتب به، ولكن ما لفت انتباهي هذا الاهتمام الذي توليه هولندا لتراثها، وهي تحاول التذكير بمكوناته بأساليب حديثة، وبأشكال تدعو إلى التساؤل، لتكون للإجابة محصلة ثقافية تربط المرء بهذا التراث، ويستحضر ما فيه من كنوز.

ومما يؤسفني أننا في عالمنا العربي والإسلامي لا نقدم إلا تراثاً جامداً لا حياة فيه، يدعو إلى النفور، ولا يصلح إلا ليكون في حالة جمود في ركن من أركان متاحف لا يرتادها أحد.

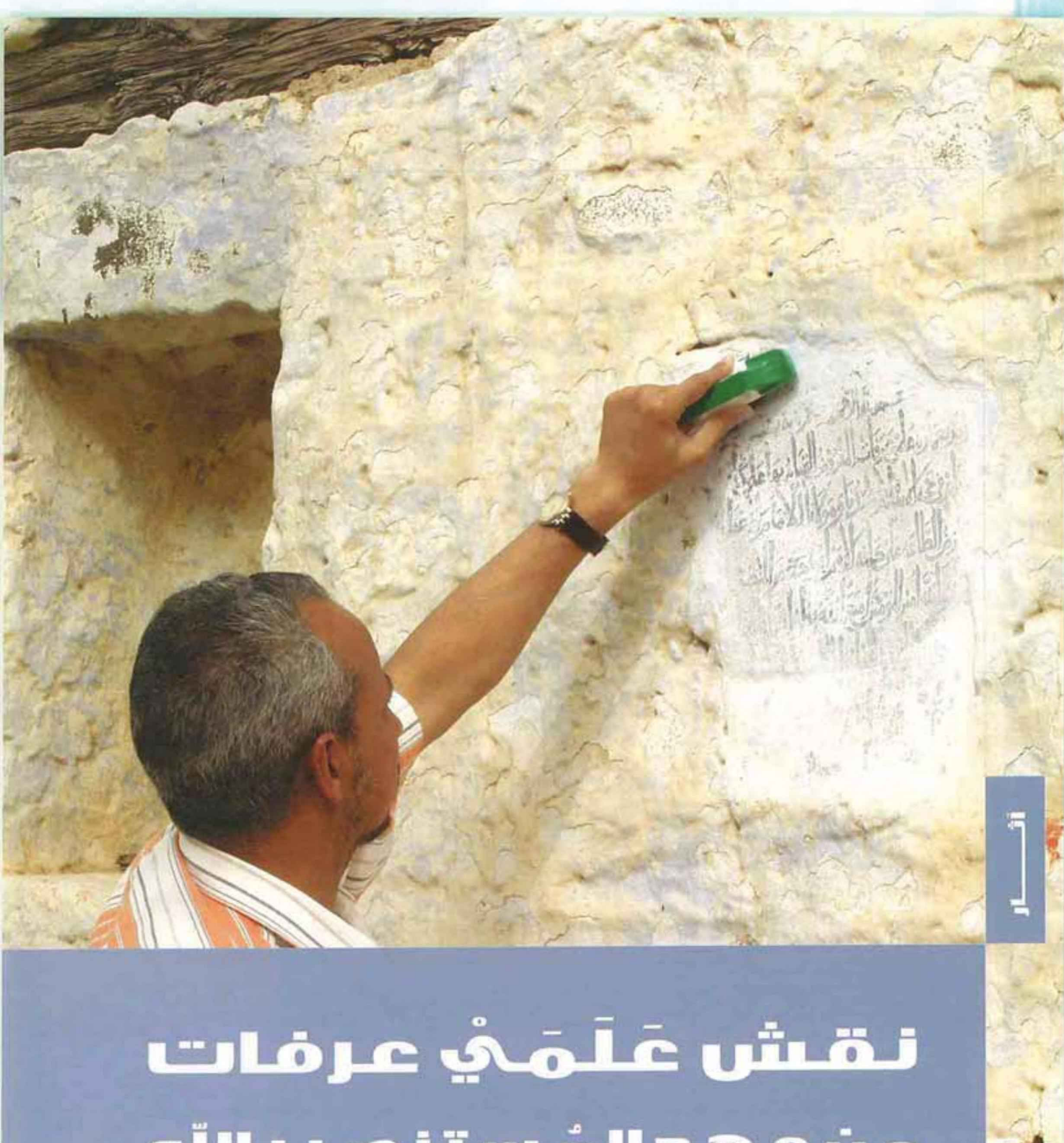
آمل أن يأتي اليوم الذي نجد فيه تراثنا يحيط بنا ونتعايش معه، كما هو الحال في الأمم التي تقدر قيمة التراث، وتتخذه منطلقاً في حياتها اليومية، وواقعها المعيش.

صالح عامر صالح

عين شمس – القاهرة

التحرير:

نشكر لك اهتمامك واتصالك للتعليق على هذا الموضوع، ونأمل، كما قلت، أن يكون تراثنا حياً يمشي بيننا، لا أن يكون أسير المتاحف، بل نأمل أن تكون متاحفنا أيضاً وسيلة لإضفاء الحيوية على هذا التراث بعرضه بالشكل اللائق.



نقش عَلَمَيْ عرفات من عهد المُستنصر بالله

سامي صالح عبدالمالك البياضي

مكة المكرمة - السعودية

تُعدّ الكتابة والتأليف عن مكّة المكرمة من الأمور المحببة إلى نفس كل مسلم من ادنى الشرق إلى أقصى الغرب؛ فهي أحب أرض الله إلى الله، وهي مركز الكون وسرة الأرض. وأُلِّف فيها وعنها ما لم يُؤلَّف عن أي مدينة في العالم من أقصاه إلى أدناه.

لهذا قرّرتُ عندما خطت رجلي أول مرة على ترابها الطاهر أن يكون لها من اهتمامي البحثي في الحضارة والعمارة الاسلامية نصيب أشارك به مع زملائي من الباحثين، سواء السابقون أو اللاحقون، وذلك بالبحث في تاريخها الحضاري والعمراني.

ولهذا كان هذا النقش الاثاري المكتشف المهم والنادر في تاريخ عمائر مكة المكرمة عامة، وعمارة أعلام حدودها خاصة؛ إذ لم يسبق من قبل اكتشاف نقش كتابي يحمل نص تعمير علمَيْن من أعلام حدود عرفات الشرعية. وبهذا الكشف يظلّ تاريخ مكة المكرمة معيناً لا ينضب من الكشوفات الاثارية والتاريخية، التي هي من مصادر تاريخها المتجدد والثري.

[illegible]

كان لي اهتمام خاص بأعمال الخليفة العباسي المستنصر بالله ابي جعفر المنصور (٦٢٣-٦٤٠هـ/ ١٢٢٦-١٢٤٢م) في مكّة المكرمة منذ أن قمتُ بدراسة نقشه التعميري الذي اكتشف مؤخراً بمسجد البيعة بالقرب من منى في مكّة المكرمة . وفي إحدى الزيارات لعرفات لاحظت وجود علم قديم من أعلام حدود عرفات؛ لأنني كنت على علم من خلال المصادر التاريخية بان الخليفة العباسي المستنصر بالله قام بتعمير علمين لحد عرفات من ناحية مكّة المكرمة، وأن له نقشاً كتابياً تعميرياً يُؤرخ لهذه العمارة شاهده مؤرخ مكّة المكرمة الشهير تقي الدين الفاسي (ت ٨٣٢هـ/ ١٤٢٨م)، وقرأ من عليه اسم الخليفة العباسي المستنصر بالله وتاريخ نقشه. وكثيراً ما منّيت نفسي بالعثور على نقشه هذا. وفي هذه المرة، وهي الأولى، قمت فقط بتصوير العلم القديم الذي لا يزال قائماً باللاقطة (الكاميرا) من دون التدقيق فيه؛ لأنني كنت في عُجالة.

وبعد مدة من الزمن حضر لي ضيف عزيز من مصر لأداء العمرة، فتوجهت بصحبته لمشاهدة عرفات، وكان عندي لاقطة (كاميرا) ذات طراز حديث. فقلتُ في نفسي: لعلها فرصة لتصوير العلم بهذه اللاقطة المتطورة تقنياً. وعندما اقتربت من العلم لاحظت وجود ما يشبه النقش، وبعض الحروف بادية من خلف البوية التي دُهن بها العلم والنقش. واكتفيت بالتصوير فقط مع التركيز في ذلك الحجر الذي يبدو أنه نقش، وأصبحت على قناعة تامة وبحسّ تاريخي واثاري أن هذا النقش هو نقش الخليفة العباسي المستنصر بالله، وإن لم يكن هذا فسيكون نقش صاحب إربل الذي ذكره مؤرخ مكّة الشهير تقي الدين الفاسي، وهو النقش الأقدم تاريخاً. إذ كان ذلك النقش مُؤرخاً في شهر شعبان من سنة ٦٠٥هـ/ فبراير - مارس ١٢٠٩م. ولم أقم بأي أعمال لإظهار النقش حتى يتم التواصل مع الجهات المسؤولة عن الآثار والمتاحف في مكّة المكرمة. خصوصاً أنني على علاقة متعاونة وجيدة بهم منذ أن وصلت إلى مكة المكرمة.

ثم تواصلت مع الجهات المسؤولة عن الآثار، وحدّدنا موعداً، وتوجهت إلى مكان العلم بعرفات. ووصلت إلى مكان العلم قبلهم بقليل، وبدأت في إزالة طبقة الجير والبوية من عليه بعد التواصل معهم هاتفياً لوصف كيفية الوصول إلى المكان. وقمتُ بتوثيق جميع مراحل الكشف عن النقش الكتابي عن طريق التصوير؛ من أجل أن يكون دليلاً على حق الاكتشاف لي. واستطعت تعرّف النقش بعد جهد جهيد من إزالة طبقة البوية والجص من على النقش الكتابي التعميري. وكان لديّ خلفية تاريخية كما مرّ أن هناك نقشين من تلك الحقبة ورد ذكرهما عند مُؤرخ مكّة المكرمة تقي الدين الفاسي: أحدهما مؤرخ في شهر شعبان من سنة ٦٠٥هـ/ فبراير - مارس ١٢٠٩م. أما النقش الكتابي الثاني، فهو مُؤرخ في سنة ٦٣٤هـ/ ١٢٣٦-١٢٣٧م. واتضح لي بعد التنظيف أنه باسم الخليفة العباسي المستنصر بالله المُؤرخ في شهور سنة ٦٣٤هـ/ ١٢٣٦-١٢٣٧م. وأنه مُنفذ على بلاط من الحجر البازلتي الأسود غير منتظم الشكل. وإنما استخدم على طبيعته؛ فلم يتم قطعه خصيصى لتنفيذ النقش الكتابي كما هو معروف في عدد من النقوش المكية التي ترجع إلى ذلك العصر والعصور السابقة.

[illegible]

بخصوص دراسة هذا النقش التعميري لعلمَيْ عرفات في عهد الخليفة العباسي المستنصر بالله يُمكن القول على حدّ تعبير الحداد: إن الآثار والتاريخ صنوان لا يفترقان، وعلمان متضامنان، بل يُمكن القول بأنه ما من ترابط بين علم وعلم يعدل تلك العلاقة



علم عرفات من عدة زوايا

القوية القائمة بين الآثار والتاريخ. إنهما الوجهان لعملة واحدة: فكلاهما يكمل الآخر، ومن ثم لا غنى لأحدهما عن الآخر»[٢].

وتظهر أهمية هذا النقش التعميري في تأكيد العمارة التي قام بها المستنصر بالله العباسي، وكذلك مراقبة أقوال المؤرخين، إذ يُؤكد لنا ذلك الحداد أيضاً بقوله: «النقوش الكتابية الإسلامية تُعدّ من المصادر الآثارية المهمة التي يصعب الطعن في قيمتها، أو التشكك في أصالتها؛ فهي من جهة معاصرة للحقائق والأحداث التي تسجلها، كما أنها محايدة، فتعوّض النقص، وتسدّ الفراغ في المصادر التاريخية. ومن جهة ثانية، فإنها تمتاز بأن تواريخها صحيحة إلا فيما ندر. والأعلام التي تُذكر بها يقلّ التحريف والتصحيف فيها. ومن جهة ثالثة، فهي تُفيد في مراقبة أقوال المؤرخين، وإثبات صحتها، أو الكشف عن أخطائها. كما أنها تُميط اللثام عن حقائق كثيرة جديدة مستمدة منها»[٣].

وعندما يُؤكد أحدهما، خصوصاً لو كان الأثر ما ورد في الآخر، وهو التاريخ، تكون حقيقة تاريخية لا لبس فيها. وهو ما يذكره ويُؤكده لنا عبدالقدوس الأنصاري الذي قال: «فطنت لحقيقة علمية كبيرة، ساقتني إلى مزيد الحرص على تتبّع ما أمكن تتبعه من الآثار، واستنطاقها عن ماضي الأخبار، والحقيقةُ الماثلة للعيان هي أنه إذا اتفق التاريخُ الخبري والشاهدُ الأثري على حدوث أمر ما فإن ذلك يكون حقيقةً مؤكّدة لا شبهة فيها ولا التواء»[٤].

وهي الحالة موضوع اكتشافنا هنا؛ إذ إن ذكر نقش عمارة عَلَمَيْ حدّ عَرَفَات في عهد الخليفة العباسي المستنصر بالله هو الخبر الذي ردّده عدد من المصادر التاريخية، كما أن اكتشاف النقش الكتابي لتنفيذ هذه العمارة هو الشاهد الأثري والدليل المادي على ما جاء في النص الخبري التاريخي، فمن هنا تبرز أهمية تكامل المنهج البحثي العلمي ما بين التاريخ من ناحية والآثار من ناحية ثانية، فهما وجهان لعملة واحدة، ولا غنى لأحدهما عن الآخر.

علما عرفات في عهد المستنصر بالله العباسي

ورد ذكر هذا النقش التعميري المكتشف عند تقي الدين الفاسي في كتابه (شفاء الغرام بأخبار بلد الله الحرام)، وذلك بعد حديث مطوّل عن حدّ عَرفات مما يلي مكّة المكرمة، فقد قال: «حدّ عرفة

من جهة مكّة الذي فيه الاختلاف الآن بيّن. وهو علمان بين العلمَيْن اللذين هما حدّ الحرم إلى جهة عرفة. وكان ثمّة ثلاثة أعلام. فسقط أحدهم. وهو إلى جهة المغمّس. وأثره بيّن. ورأيت عنده حجراً مُلقى مكتوباً فيه: أمر الأمير الأصفهسلار الكبير مظفر الدين بن زيد الدين صاحب إربل حسام أمير المؤمنين بإنشاء هذه الأعلام الثلاثة بين منتهى أرض عرفة ووادي عُرنة. لا يجوز لحاجّ بيت الله العظيم أن يجاوز هذه الأعلام قبل غروب الشمس. وفيه: كان ذلك بتاريخ شعبان من شهور سنة خمس وستمائة. ورأيت مثل ذلك مكتوباً في حجر مُلقى في أحد العلمَيْن الباقيين. وفي هذين العلمين مكتوب. أمر بعمارة علمَيّ عرفات وأضاف كاتب ذلك هذا الأمر للمستنصر العباسي. ثم قال: وذلك في شهور أربع وثلاثين وستمائة.

كما أن الفاسي ذكر لنا في كتابه (العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين) عمارة الخليفة العباسي المستنصر بالله علمَيّ حدّ عرفات في سنة ٦٣٣هـ/ ١٢٣٥-١٢٣٦م. وذلك عند ترجمته للخليفة العباسي المستنصر بالله. فقال: «صنع في خلافته من المآثر بمكة وبظاهرها. فمن ذلك عمارته.... المطاف في سنة إحدى وثلاثين وستمائة. ولعيْن بازان في سنة خمس وعشرين وستمائة. وفي سنة أربع وثلاثين وستمائة........ وعمارته لمسجد البيعة بقرب منى على يسار الذاهب إليها في سنة عشرين وستمائة. وعمارته للعلمَيْن اللذين هما حدّ عرفة في سنة ثلاث وثلاثين وستمائة. وغير ذلك من المآثر التي صنعها فتاه الأمير شرف الدين إقبال الشرابي. وأضاف ذلك إلى مولاه المستنصر هذا». يُلاحظ أن الفاسي ذكر في (عقده) أن سنة ٦٣٣هـ هي تاريخ عمارة علمَيّ حدّ عرفات مما يلي مكّة المكرمة. ومن ثم يكون ما ورد في (شفاء الغرام) هو الأصح. وهو الذي اتفق وانطبق مع ما ورد في النقش الكتابي التعميري بعد أن اكتشفته مؤخراً. وقرأت ما ورد فيه من نص تاريخي.

تعد النقوش الكتابية الإسلامية من المصادر الآثارية المهمة التي يصعب الطعن في قيمتها أو التشكيك في أصالتها

كما أن مؤرخ مكّة المكرمة النجم بن فهد (ت ٨٨٥هـ/ ١٤٨٠م) ذكر لنا ذلك في (إتحاف الورى بأخبار أم القرى). وأورد ذلك في حوادث سنة ٦٢٩هـ. فقال: «عمّر الأمير شرف الدين أبو الفضائل والمكارم إقبال بن عبدالله الشرابي المستنصري العباسي العَلَمَيْن اللذين هما حدّ عرفة. وعين عرفة. وأجرى المياه من الطائف إلى عرفات. وعمّر البرك التي بأرض عرفة بعد تعطيلها وخرابها عشرين سنة. وكان الفراغ من العمارة وجريان الماء في ذلك في العشر الأخير من ربيع الآخر».

ومن هنا. نجد أن الفاسي قد قرأ اسم الخليفة صحيحاً. كما قرأ تاريخ النقش أيضاً صحيحاً ومطابقاً للواقع المكتشف. وأن عدم ورود التاريخ صحيحاً في كلّ من (العقد الثمين) وما ورد عند ابن فهد ربما يكون راجعاً إلى تصحيف من قبل النساخ. واعتماد ثانيهما على أولهما.

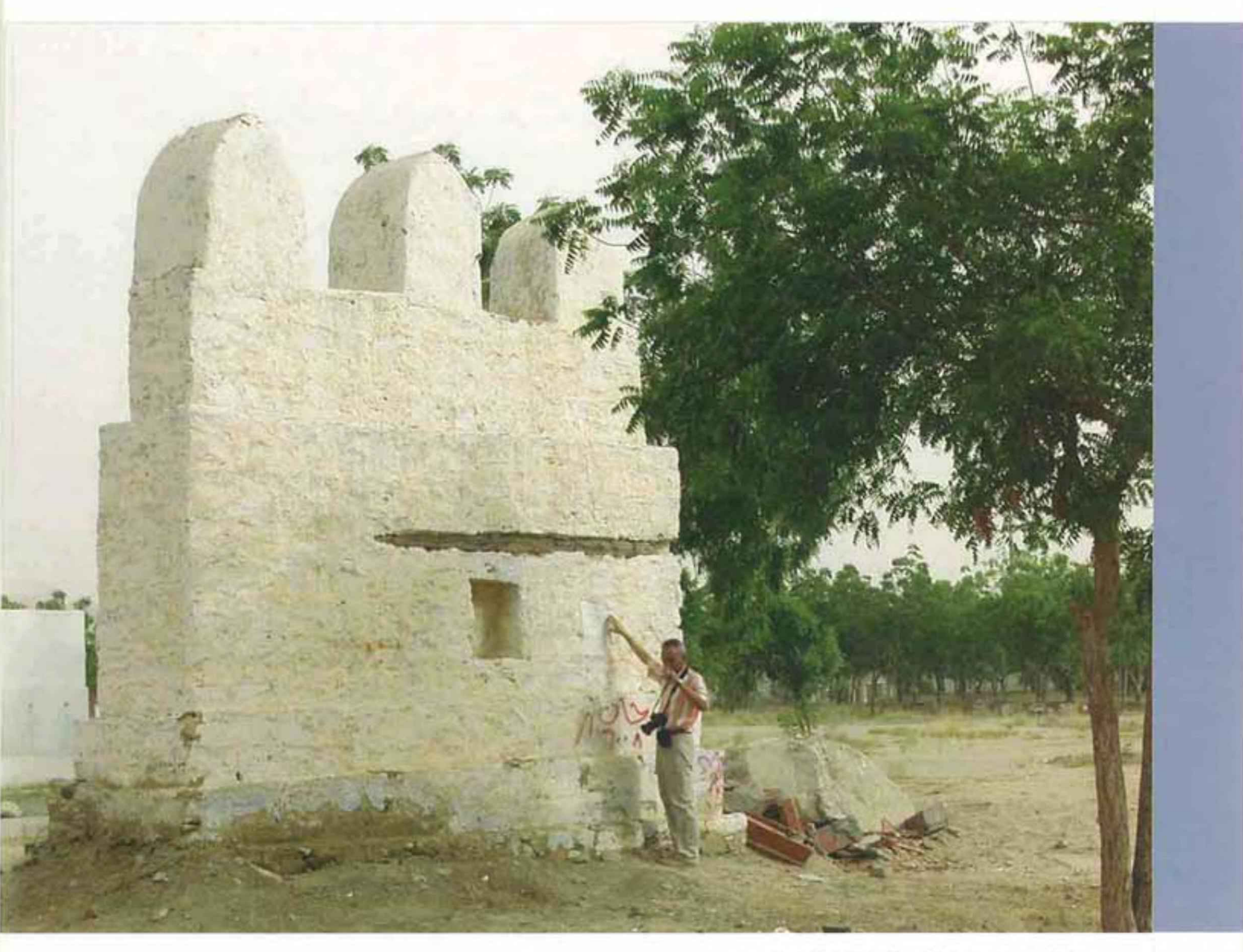
علم عرفات موقعاً وموضعاً

يقع العَلَم الباقي إلى يومنا هذا. الذي اكتشفت به النقش التعميري. إلى الشرق من مسجد نمرة. ويُعدّ هو أقدم علم من أعلام الجهة الشمالية لعرفات. وإلى الغرب من جبل الرحمة. ويحدّه من الشمال واد. وهو يقع على سمت. وإلى الشرق من أحد أعلام الحرم الحديثة. وعلم من عهد خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز آل سعود. رحمه الله.

علم عرفات لغة وعمارة

العَلم لغةً: يُقال لما يُبنى في جوار الطريق من المنازل يستدلّ بها على الطريق: أعلام. واحدها علَم. والمَعْلَم: ما جُعل علامةً وعلماً للطرق والحدود: مثل أعلام الحرم ومعالمه المضروبة عليه.

أما العَلم معمارياً. فيمتد من الشرق إلى الغرب. وهو بناء مستطيل من الحجر البازلتي غير المقطوع جيداً. والمكسو بطبقة من الملاط الأبيض. وهو يتكون من قاعدة وبدن وقمة. فقاعدته مُتدرجه البناء تتكون من ثلاث مستويات تقل كلما ارتفعنا. مساحة الأولى منها ٥.١٧ × ١.٨٥م. وارتفاعها الظاهر حاليا ٣٠ سم. ومساحة الثانية ٤.٩٠ × ١.٧٠م. وارتفاعها ٤٣ سم. ومساحة الثالثة ٤.٦٥ × ١.٤٢م. وارتفاعها ٤٠ سم. ويعلو القاعدة بدن العَلم الذي يبلغ طوله



الباحث يشير الى النقش المثبت في العلم قبل إزالة طبقة الجير من عليه

٠.٩٠ ٤م. وعرضه ٠.٤٢ ١م. وارتفاعه ٠.٩٥ ١م. وينتهي في أعلاه بقمة العلم. وهي ترتد عن بدن العلم قليلاً. وتتوج بثلاث شرافات مدببة النهاية. يحصل بينها فراغات كما هو معتاد في نهاية العمائر. وهي تُذكرنا بما يوجد في العمائر الإسلامية، خصوصاً الدفاعية منها.

ويُلحظ ان العلم مُزوَد بعرق من الخشب لتحمّل تأثير أي اهتزازات. وقد ثُبت هذا العرق الخشبي في وسطه. ويبلغ طوله ٠.٠٥ ٣م. كما يتوسط العلم مكان مستطيل الشكل مساحته ٥٦ × ٦٠ ٤ سم. وعمقه ١٠ سم. وأعتقد أنه ربما كان المكان الأصلي لتثبيت النقش الكتابي التعميري فيه. أو غير ذلك من نقوش أخرى كانت موجودة.

وصف نقش عمارة علمي عرفات شكلا ومضمونا

نُفذ النقش الكتابي التعميري شملاً على حجر من البازلت الأسود بالطريقة المعروفة في نقوش مكّة المكرمة وغيرها. إذ يتم كشط الأرضية وما حول الكتابات. وتترك الحروف والكلمات حسب



النقش قبل إزالة طبقة الجير من عليه



النقش بعد تنظيفه وإزالة طبقة الجير من عليه وتقويته

طبيعة الحجر المُنفذ عليها النقش بارزةً قليلاً عن أرضية النقش. لهذا نجد النص في أعلاه واضحاً تماماً. أما في القسم الأسفل من النقش، فبسبب طبيعة الحجر غير اللامعة، وتأثير المؤثرات المناخية المتنوعة، نجد الكتابة ليست بدرجة الوضوح كما في القسم الأعلى منه؛ مما تعذر معه فك قراءة بعض الكلمات، وهو ما سنحاول الانتهاء منه مع تفريغ النقش الكتابي بالحاسوب الآلي.

والحجر مستطيل الشكل، لكن غير منتظم تماماً؛ فارتفاعه في أقصى نقطة ٣٩ سم، وعرضه بأقصى اتساع ٣٦ سم. وقد حَدّد النقاش - أعتقد أنهُ عبدالرحمن بن حَرْمي المكي كاتب مَكّة المكرمة ونقاشها الشهير - النص بإطار على هيئة محراب ذي عقد مدبّب ومنكسر، زُخرفت قمته بزخارف نباتية عربية محوّرة، وهي المعروفة عالمياً باسم (الأرابيسك).

ثم نَفّذ النقاش النص التاريخي التعميري الذي يتكون من ثمانية أسطر بخط النسخ المتقن، أو الخط الحجازي الليّن البارز قليلاً، وهو الخط الذي أصبح الخط الرسمي على معظم العمائر منذ ذلك العصر، وذلك داخل الإطار المحدد للنص مع مراعاة خروج بعض الحروف في الكلمات التي في نهاية الأسطر خارج الإطار؛ مثل الكلمات الآتية: كافة، الأعظم، المنصور، أهل، وغيرها، وهو أمر مألوف وشائع في النقوش الإسلامية، ومنها تلك التي ترجع إلى العصر نفسه. وعلى سبيل المثال لا الحصر تلك التي تُوجد في قلعتي صلاح الدين الأيوبي بصَدْر (الجندي) وأيْله (صلاح الدين الأيوبي بجزيرة فرعون) في شبه جزيرة سيناء.

كما أن الخط يمتاز بأنه قوي في كتابته وتنفيذه، وهو مُعجم ومشكول في أغلب الكلمات، إذ يُمكن القول: إن عليه وضاءة، كما



ذكر الفاسي عن وصفه كتابات عبدالرحمن بن حَرَمي المكي. وهذه المميزات من خصائص كتابات ابن حرمي المكي في تلك الحقبة.

ويُقرأ النقش على النحو الآتي:

- بسم الله الرَّحمَن الرَّحيم وبه نستعين
- أمر بعمارة عَلَمَيْ عَرَفَات المفْرُوضُ القيامُ بها على كافة
- الأنَام في حَجة الإسْلام سَيّدنَا وَمَولانَا الإمام الأعظم
- المفْترضُ الطَّاعة عَلى كَافة الأمَم أبُو جَعفَر المنْصُور
- المسْتنصر بالله أمير المؤمنين أمتَع الله بطُول بقائه أهل
- الإسلام وَأدم الـ زو(؟) عليهم إذ ....
- .... وتقبل منه صالح عمله بمحمد وآله وصَلى الله على
- سيدنا محمد وآله وذلك في شهور سنة أربع وثلاثين وستماية.

هذا عن النقش من حيث الشكل، أما من حيث المضمون فهو كما هو معتاد في جلّ النصوص التأسيسية يبدأ بالبسملة، يليها الاستعانة بالله جل جلاله، ثم الأمر الصادر بعمارة عَلَمَيْ عَرَفَات من الناحية الشمالية مما يلي مزدلفة ومكة المكرمة، اللذين يجب عدم تجاوزهما طوال الوقوف بعَرَفَات في أثناء أداء فريضة الحج في اليوم التاسع من شهر ذي الحجة من كل سنة إلا بعد غروب الشمس، ثم يلي ذلك الألقاب الفخرية للخليفة العباسي المستنصر بالله الآمر بعمارة عَلَمَيْ عَرَفَات، ثم يلي ذلك الدعاء له، وبعدها الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله. واختتم النص كما هو معتاد في أغلب النقوش التذكارية التعميرية والتجديدية بتاريخ عمارة عَلَمَيْ عرفات، ثم تاريخ تنفيذ النقش في شهور سنة أربع وثلاثين وستماية من دون تحديد شهر بعينه من تلك السنة.

الآمر بعمارة عَلَميْ عرفات والنقش

أما صاحب هذا النقش، والآمر به وبعمارة عَلَمَيْ عَرَفَات، فهو الخليفة العباسي المستنصر بالله أبو جعفر المنصور ابن الخليفة الظاهر بأمر الله أبي نصر محمد ابن الخليفة الناصر لدين الله أبي العباس أحمد ابن الخليفة المستضيء بأمر الله حسن ابن الخليفة المستنجد بالله يوسف العباسي الهاشمي البغداديّ. ولد في مدينة بغداد سنة ٥٨٨هـ/ ١١٩٢م، وأمه أم ولد تركية. بُويع بالخلافة بعد وفاة والده الظاهر بأمر الله في شهر رجب من سنة ٦٢٣هـ/ يونيو - يوليو ١٢٢٦م، وهو الخليفة السادس والثلاثون من خلفاء بني العباس، والخليفة قبل الأخير من خلفاء الدولة العباسية في مدينة بغداد قبل سقوطها على يد قوات التتار.

ولمّا وَلي الخلافة نهض بأعبائها، ونشر العدل في الرعايا، وبذل الإنصاف، وقرّب أهل العلم والدين، وكان جده الناصر يسميه القاضي؛ لعقله ومحبته للحق. وبَنَى المساجد والرُّبُط والمدارس والخانات في الطرق، منها المدرسة التي أنشأها ببغداد المعروفة بالمستنصرية، ووقفها على المذاهب الأربعة، وفيها المارستان والحمَّام، وليس في الدنيا مثلها، وأقام منارَ الدين، وقمعَ المتمردين، ونشَر السنن، وكفَّ الفتن.

تُوفيَ في بكرة يوم الجمعة عاشر جمادى الآخرة، وقيل: في العشرين من جُمادى الآخرة سنة ٦٤٠هـ، عن إحدى وخمسين سنة وأربعة أشهر وتسعة أيام، وكانت خلافته سبع عشرة سنة إلا أياماً، وبُويع بعده ابنه عبدالله المستعصم بالله، فكان الخليفة السابع والثلاثين من الخلفاء العباسيين، وآخرهم في بغداد[٩].

كاتب النقش

يُمكن من دراسة النقش أن نطمئن إلى أن الخط من عمل كاتب مَكّة المكرمة الشهير محمد بن عبدالرحمن بن أبي حَرَمي المكي (ت ٦٤٥هـ/ ١٢٤٧م)[١٠]، وهو الذي اشتهر بكتابة النقوش في مَكّة المكرمة حيث امتهن حرفة الكتابة والنقش، فكان المتفرّد في مجاله، فأصبح من أشهر كُتاب مَكّة المكرمة ونقاشيها، وقد ترجم له الفاسي فقال عنه: «كان ابن حَرَمي هذا يسجل على القضاة بمكّة، ويكتب الوثائق، والمبيعات، وأحجار القبور، والدور، والمساجد، وغير ذلك. وعلى خطه وضاءة»[١١].كما ترجم له ابن فهد في الدر الكمين فقال عنه: «رأيت خطه في شهادة في مكتتب مُؤرّخ بالعشر الأُول من شوال سنة ثلاث عشرة وستمائة»[١٢].

ليس هذا النقش المكتشف هو النقش الوحيد للخليفة العباسي المستنصر بالله، بل له عدد من النقوش المكية الأخرى

نقوش مستنصرية مكية

لم يكن هذا النقش المُكتشف هو النقش الوحيد للخليفة العباسي المستنصر بالله، بل يُوجد له عدد من النقوش المكية التي تم حصرها في مكّة المكرمة. لعل أهمها حتى الآن النقوش الآتية:

– نقش تعمير مسجد البيعة على حجر من الجرانيت الأسود غير المنتظم الشكل، تبلغ أبعاده في أقصى طول له ٤٧ سم، ومن أسفله ٣٣ سم، وارتفاعه من طرفه الأيسر ٢٧ سم، ومن طرفه الأيمن ١٧ سم، وتعرّضت أجزاء بسيطة من أطرافه للتكسير ففُقد آخر النص، وهو يشتمل على خمسة أسطر وهامش أيمن، وكُتب بخط النسخ الليّن الحجازي المجوّد البارز والمشكول والمنقوط، ويُقرأ النقش على النحو الآتي:

– بسم الله الرّحمن الرّحيم وَصَلى الله على سيدنا محمد
– أمَرَ بعمارته سيّدنا ومولانا الإمام المفترض الطاعة
– على كافّة الأنام أبُو جَعْفر المنْصُور المسْتَنصر بالله
– أمير المؤمنين أعَزّ الله أنصَارَهُ وَضَاعَف اقتداره
– وذلك في سنة خمس وعشرين وستمائة [.....]

الهامش: [... الـ] متولى الفقير إلى الله تعالى عبدالرحيم بن حَرَ[مي]؟ اللهم [اغفر له...؟].

– نقش تعمير الكَعْبَة المُشَرَّفَة المؤرخ في سنة ٦٢٩هـ/ ١٢٣٥م، وقد نُفّذ على بلاط من الرخام مقاساته ٨٨-٩٠ × ٣٠-٣٣ سم، وقد تم تثبيته داخل الكَعْبَة المُشَرَّفَة في جدارها الشرقي على يمين الداخل مباشرةً من بابها، ويشتمل النقش على ثمانية أسطر بخط النسخ البارز تُقرأ على النحو الآتي:

– بسم الله الرحمن الرحيم
– أمر بعمارة البيت المعظم
– الإمام الأعظم أبو جعفر
– المنصور المستنصر بالله
– أمير المؤمنين بلغه الله
– أقصى آماله وتقبل منه
– صالح أعماله في شهور سنة

الهوامش والمراجع

١- اكتشف نقش مسجد البيعة الأستاذ الدكتور عبدالوهاب أبو سليمان، والدكتور معراج نواب مرزا، وقد شاركت في فعاليات الندوة العالمية السادسة لدراسات تاريخ الجزيرة العربية ببحث عنوانه: عمارة مسجد البيعة بمنى في عهد الخليفة العباسي المستنصر بالله سنة ٦٢٥هـ/١٢٢٧-١٢٢٨م «دراسة جديدة في النقوش والعمارة».

٢- الحداد، النقوش الكتابية، ص١٢؛ العلاقة بين التاريخ والآثار، ص١٧٠؛ النقوش الآثارية، ص٩.

٣- الحداد، النقوش الآثارية، ص١٠.

٤- الأنصاري، بين التاريخ والآثار، ص١٢.

٥- الفاسي، شفاء الغرام، ص٨٦.

٦- الفاسي، العقد الثمين، مج٦، ص١٢٩.

٧- ابن فهد، إتحاف الورى، ج٣، ص٥٠.

٨- ابن منظور، لسان العرب، مج٦، ص٤١٧.

٩- ابن تغري بردي، النجوم، ج٦، ص٢٣٣، ٢٣٤، ٢٣٦، ٣٠٤، ٣٠٦؛ ابن دقماق، الجوهر الثمين، ص٢١٨-٢١٩؛ الفاسي، العقد الثمين، مج٦، ١٢٩، ١٣١؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج٥، ص٢٢٦-٢٢٨، ٣٠٣، ٣٠٤، ٣٣٢.

١٠- ابن حرمي: هو الكاتب والنقاش عبد الرحمن بن فتوح بن بنجير بن عبد الرحمن بن عبد الجبار بن محمد المكي، أبو القاسم وأبو بكر وأبو محمد، المعروف بابن حرمي، وهي كنية أبيه فتوح العطار، وهو أيضاً مسند وموثقها، كتب عدداً من النقوش التي كانت مثبتة في عمائر مكّة وخارجها، حيث وصلت نقوشه إلى مصر، ودهلك، والسرين، وغيرها، انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء، مج٢٣، ص٢٦٩؛ والفاسي، العقد الثمين، ج١، ص٢٦١؛ والزهور المقتطفة، ص١١٨، ١٥٩؛ وابن فهد، الدر الكمين، ج١، ص١٤٦؛ وابن الضياء، تاريخ مكّة، ص٩٨؛ والفعر، تطور الكتابات، ص٨٣، ٢١٠-٢١٧، ٢٢٣-٢٢٦، ٢٢٩-٢٣٠؛ والزيلعي، الخطاط المكي، ص٢٤٨-٢٦٨.

١١- الفاسي، العقد الثمين، ج١، ص٢٦١؛ ج٥، ص٢٩٨-٢٩٩؛ والزهور المقتطفة، ص١١٨، ١٥٩.

١٢- ابن فهد، الدر الكمين، ج١، ص١٤٦.

١٣- الفاسي، شفاء الغرام، ج١، ص١٠٦؛ والزهور المقتطفة، ص٦٢؛ والبتنوني، الرحلة، ص١٧٠؛ وإبراهيم باشا، مرآة الحرمين، ج١، ص٢٦٦؛ والكردي، التاريخ القويم، ج٣، ص٢٤٦-٢٤٧؛ وعباس، المسجد الحرام، ص٢١٠؛ ونظيف، دراسات في العمارة الإسلامية، ص١٩٢، اللوحة (٩١)؛ وشافعي، نبيلة أحمد عبدالله، ابن حجر الهيتمي، ص٢٧٦؛ وكردي، الكعبة المعظمة، ص١٩٢، لوحة تذكارية (٩١).

El Hawary, Wiet, Inscriptions et monuments de la Mecque Haram et Kaaba, p. 122

- تسع وعشرين وستمائة وصلى
- الله على سيدنا محمد وآله وسلم[13].
- نقش عمارة المطاف حول الكعبة المشرفة المؤرخ في سنة ٦٣١هـ/١٢٣٧م، وقد نُفّذ النقش على بلاط من الرخام مستطيل مقاساته ٦٩ × ٣٤ سم، يشتمل على خمسة أسطر بخط النسخ البارز قليلاً تُقرأ على النحو الآتي:
- بسم الله الرحمن الرحيم أمر بعمارة المطاف الشريف
- سيدنا ومولانا الإمام الأعظم المفترض الطاعة على سائر
- الأمم أبو جعفر المنصور المستنصر بالله أمير المؤمنين
- بلغه الله آماله وزين بالصالحات أعماله وذلك
- في شهور سنة إحدى وثلثين وستمائة وصلى الله على سيدنا محمد[14].

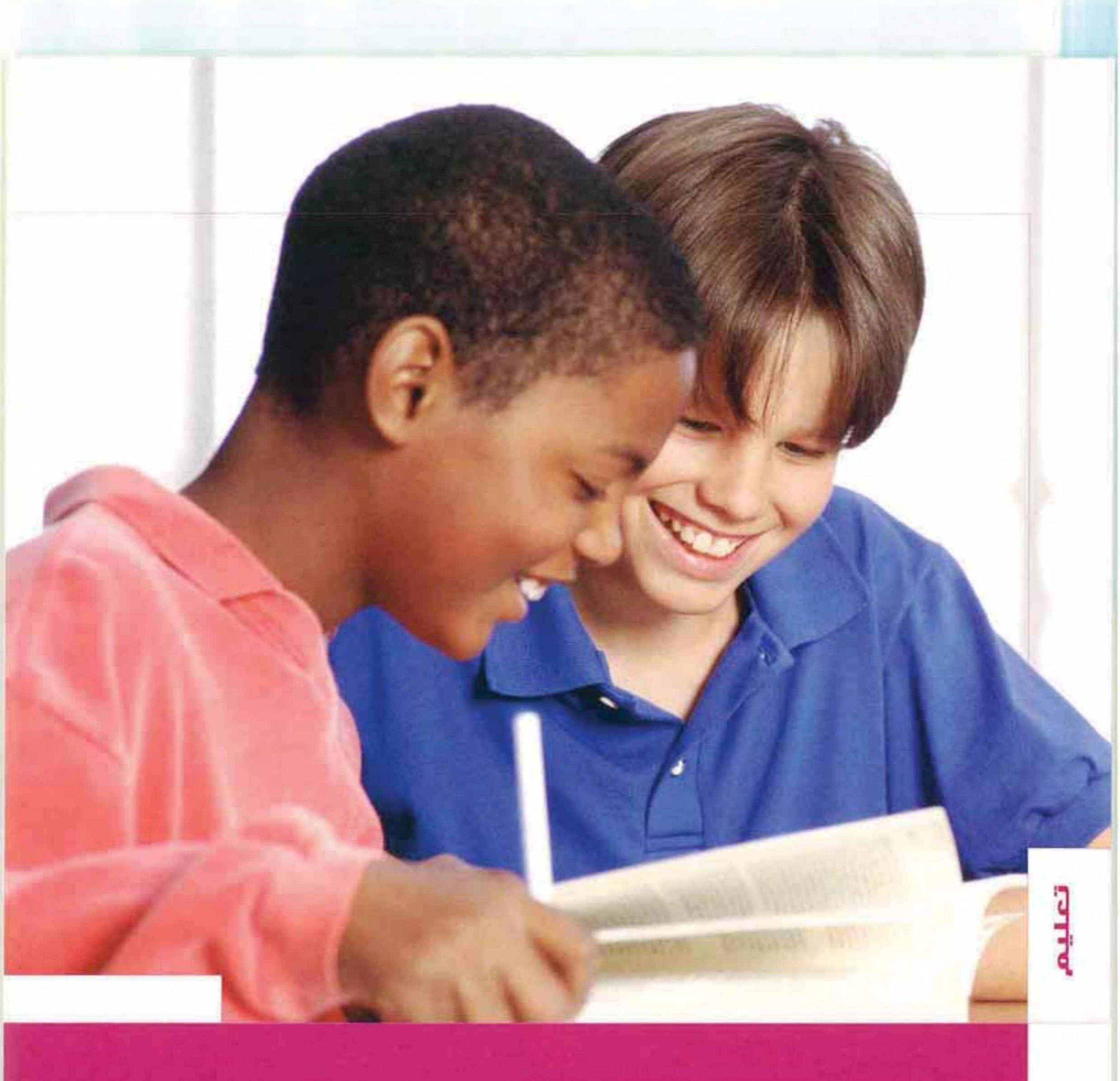
الخاتمة وأهم النتائج

يُعدّ هذا النقش الكتابي التعميري إضافةً جديدةً للنقوش المكية التعميرية المعروفة حتى الآن، كما أتمنى الحفاظ عليه في مكانه، خصوصاً أننا نعلم أن معظم النقوش الآثارية في مَكّة المكرمة لا تُوجد في العمائر التي وضعت عليها عند تشييدها؛ بسبب التطور العمراني المتلاحق في مَكّة المكرمة، وتوسعة المسجد الحرام عبر العصور المتعاقبة، وذلك من باب الحفاظ على التاريخ وتثبيته في مكانه كلما كان ذلك مُتاحاً؛ لأن قيمته التاريخية والمعمارية تكون في تركه بمكانه الذي اكتشف فيه. ولعل أهم نتائج هذه الدراسة الموجزة كانت كالآتي:

- لم يُنشر هذا النقش التعميري المكي المُكتشف علمياً من قبل؛ لذا فهو إضافة جديدة لنقوش عمارة أعلام حدود عَرَفات الشرعية وحدود حرم مَكّة المكرمة خاصة، والنقوش العربية الإسلامية عامة.
- هذا النقش يُعدّ قيمة تاريخية حضارية؛ لإسهامه في تأكيد نص تاريخي ورد عند أحد مؤرخي مَكّة المكرمة الثقة، وهو المؤرخ الشهير الحافظ تقي الدين الفاسي.

(14) النقش محفوظ في معرض عمارة الحرمين الشريفين بعنوان مصنع كسوة الكعبة المشرفة بأم الجود، مكة المكرمة على طريق مكة جدة القديم. وانظر: البنوني ... الفروق ج1 ص... ، الفاسي، شفاء الغرام ج1 ص... والعقد الثمين ج... ، والبتنوني، الرحلة ص... ، وإبراهيم باشا، مرآة الحرمين ج1 ص... ، ... وتاريخ الحرمين ص... ، والجاسر في رحاب الحرمين ص... ، الرحلات المغاربية والأندلسية ص... ، والتازي، رحلة الرحلات ج1 ص...
El Hawary, Wiet, Inscriptions et monuments de la Mecque Haram et Kaaba, p. 122

ابن دقماق، إبراهيم بن محمد بن أيدمر العلائي (ت ٨٠٩هـ/١٤٠٦م): الجوهر الثمين في سير الخلفاء والملوك والسلاطين، تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور، مكة المكرمة، د.ت.
ابن العماد الحنبلي، شهاب الدين أبو الفلاح عبد الحي بن أحمد بن محمد (ت ١٠٨٩هـ/١٦٧٩م): شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.
الفاسي، تقي الدين محمد بن أحمد بن علي (ت ٨٣٢هـ/١٤٢٩م): العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، تحقيق فؤاد سيد، القاهرة، ١٩٦٦م.
شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، جمع وتحقيق فرديناند وستنفلد، بيروت، ١٩٦٤م.
ابن فهد، محمد بن محمد بن محمد بن محمد عُمر الهاشمي المكي (ت ٨٨٥هـ/١٤٨٠م): الدر الكمين بذيل العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، تحقيق عبد الملك بن دهيش، بيروت، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.
الأنصاري، عبد القدوس: بين التاريخ والآثار، جدة، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.
الجاسر، حمد: في رحاب الحرمين من خلال كتب الرحلات إلى الحج (١-١١) مجلة العرب، س٢٦ ج... ، الرياض، ...هـ، مارس-أبريل ١٩٩١م.
الحداد، محمد حمزة إسماعيل: النقوش الكتابية الإسلامية وقيمتها التاريخية، البحث الأول، الجمعية السعودية للدراسات الأثرية، سلسلة دراسات أثرية (٣)، الرياض، رمضان-شوال ١٤٢٠هـ/يناير ٢٠٠٠م.
العلاقة بين التاريخ والآثار: دراسة حول تكامل المنهج العلمي وأهميته في تحقيق الأحداث التاريخية الإسلامية، مجلة الدرعية، س٣ ع٩، الرياض، شوال ١٤٢٠هـ/فبراير ٢٠٠٠م.
النقوش الأثرية مصدر للتاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، ط١، القاهرة، ٢٠٠٢م.
الزيلعي، أحمد بن عمر: الحافظ المكي عبد الرحمن بن أبي حرمي ... في كتب ... دفتر كتب في مكة؟، سلسلة مداولات اللقاء العلمي الثاني لجمعية التاريخ والآثار بدول مجلس التعاون لدول الخليج العربية، ... ، دارة الملك عبد العزيز، الرياض، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.



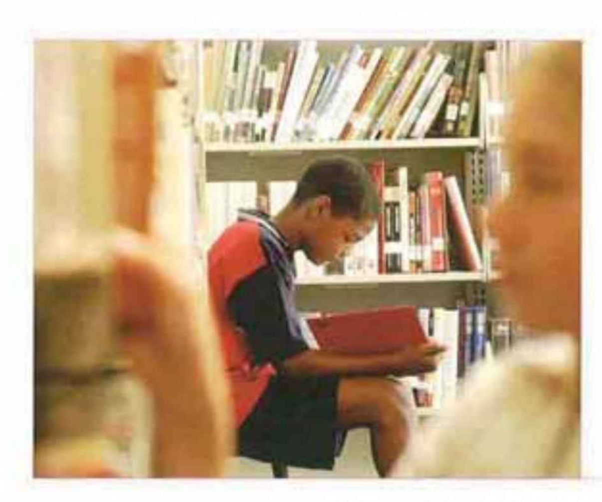
تعليم

تصحيح المناهج
الدراسية في الغرب

فوزية العشماوي

جنيف - سويسرا

تعد قضية تعديل المناهج الدراسية في جميع دول العالم أو تطويرها؛ حتى تتلاءم مع معطيات العصر الحديث من مفاهيم جديدة، من أهم القضايا المحورية في الوقت الحاضر؛ لأنها لبنة أساسية في مكونات الحوار مع الآخر، وبخاصة الحوار الأوروبي مع العالم العربي والإسلامي؛ لذا يجب علينا أن نمهد الطريق أمام الجيل المقبل، فنسهل له السبل للتعايش مع الآخر بأسلوب أفضل من أسلوب جيلنا، و يجب أن نوفر له تربية أفضل من التربية التي حصلنا عليها، وأن نمنحه تعليماً يتناسب مع تطورات العصر الذي يعيش فيه؛ إذ أصبح لزاماً عليه أن يتعامل ويتعايش يومياً مع الآخر،



تعديل المناهج الدراسية ضرورة ملحة



سواء بأسلوب مباشر وجهاً لوجه أم بأسلوب غير مباشر عن طريق الاتصال عبر الإنترنت.

واهتمت وسائل الإعلام المختلفة بهذه القضية في الدول العربية والإسلامية، وكذلك في الدول الأوروبية والأمريكية، سواء في وسائل الإعلام الورقية؛ أي: الصحف والمجلات، أو الوسائل الإعلامية السمعية والبصرية من محطات إذاعية وقنوات تلفازية وفضائية، وكذلك من خلال شبكات الإنترنت، فقد أصبح العالم مفتوحاً، ولم يعد من السهل إخفاء الأخبار أو الأفكار أو تمويهها.

ولقد استاء كثير من المفكرين العرب ومن المسؤولين عن التربية والتعليم في بعض دول العالم الإسلامي من هذه المطالبة بتطوير المناهج الدراسية، خصوصاً فيما يتعلق بتدريس الدين الإسلامي، والأصول الدينية الأساسية الثابتة في الفكر الاسلامي، وعدّوا تلك المطالبة نوعاً من التدخل السافر في أسلوب تربية أولادنا، وأن ذلك يعدّ تدخلاً في الشؤون الداخلية للدول العربية والإسلامية، وأنه ليس من حق أي دولة مهما كبرت أو صغرت أن تتدخل في أسلوب تربية الأجيال المقبلة من الشباب وتنشئتها في أي دولة أخرى.

ولكن بعض المفكرين المسلمين أخذ برأي الغرب، وارتأى أنه يمكن أن نعدّ تلك المطالبة بتعديل المناهج الدراسية في دول العالم الإسلامي إنما هي دعوة للتطوير؛ لمواكبة التقدم العلمي، والاستفادة من معطيات الغرب من تقدم تكنولوجي واهتمام أكثر بالعلوم وبالمنهج العلمي وبالأسلوب البراجماتي العقلاني الذي يطبق المنطق في فهم كل الأمور، وكانت حجتهم في ذلك التفكير قولهم: يجب أن نتحرر ولو قليلاً من تغلغل الدين في كل مناحي حياتنا، كما يقولون.

وفي واقع الأمر، ومن منطلق أن قضية المناهج الدراسية كانت محوراً لعدة دراسات وبحوث أشرفت عليها شخصياً بوصفي خبيرة خارجية في إطار دولي بتكليف من مكتب التربية الدولية في جنيف (BIE)، ومنظمة اليونسكو في باريس، فمن هذا المنطلق أستطيع أن أدلو بدلوي في هذه القضية الشائكة ذات الأبعاد الأكبر ممّا يتصور الجميع، ومن دون أدنى شك فإن إعداد المناهج الدراسية في كل دولة هو من أهم القضايا المحورية التي يجب أن توليها الدولة كل اهتمامها، خصوصاً في مرحلة المدارس الابتدائية؛ لتربية أولادها منذ الصغر على المبادئ والأفكار والأيديولوجيات التي تود أن تشيد عليها أسس الحكم والنظم السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وقديماً قال

العرب في الأمثال الحكيمة: «العلم في الصغر كالنقش على الحجر»، فكل ما تعلمناه في طفولتنا، سواء في الكتب المدرسية أم من شرح مدرسينا وتفسيرهم، ظل راسخاً في أذهاننا على مر السنين ومهما قرأنا، وتعلمنا، وحفظنا في مراحل العمر المختلفة يظل ما حفظناه في الطفولة هو الثابت الذي لا ينمحي أبداً من الذاكرة، والدليل على ذلك أن قصار السور القرآنية التي تعلمناها في الكتّاب أو في المدرسة الابتدائية هي أول ما يخطر على بالنا حين نقف للصلاة، مهما تعمقنا بعد ذلك في حفظ كبار السور القرآنية وأجدناها، ولكننا كثيراً ما ننسى بعض الآيات حين نقف للصلاة، بينما نتذكر من دون وعي أو أي مجهود قصار السور التي تعلمناها في الصغر.

ومن هنا تنبع أهمية قضية المناهج الدراسية، خصوصاً في المرحلة الابتدائية الأولية في التعليم، فهي السبيل الأول للتغيير: تغيير ثقافة شعوب وحضارتها برمتها، وتلقينها أفكاراً ومفاهيم جديدة حسبما يتراءى للمسؤولين عن التربية والتعليم في كل دولة. إن المتعمق في دراسة الكتب المدرسية التي يتم تدريسها في المدارس الابتدائية في كل دولة يجد فيها بذور ثقافة تلك الدولة وحضارتها وسياستها التي تريد أن تغرسها في نفوس أطفالها وعقولهم.

ومن الطبيعي والبديهي أن تركز دول العالم الإسلامي في مناهجها الدراسية في الأصول الثابتة في الفكر الإسلامي، وفي السور القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة؛ لغرس الثقافة الإسلامية في نفوس التلاميذ المسلمين وعقولهم، وذلك ليس في كتب مادة التربية الإسلامية فقط، ولكن في كتب المطالعة والمحفوظات واللغة العربية والتاريخ أيضاً، كذلك نجد أن المناهج الدراسية في الدول العربية والإسلامية تهتم أيضاً بتاريخ العرب وتاريخ المسلمين في العصور المختلفة، وتذكر علماء العرب وتاريخهم وحضارتهم المزدهرة في الأندلس، واختراعاتهم التي ارتكزت عليها النهضة الأوروبية الحديثة في بداية القرن الخامس عشر الميلادي.

وقد لاحظنا أن المناهج الدراسية في دول العالم الإسلامي تعطي أهمية كبيرة لحضارات العالم أجمع، خصوصاً الحضارة الأوروبية، إلى جانب الحضارات الأخرى في العالم، مثل الحضارات الهندية والصينية واليابانية والمكسيكية والإفريقية. أما المتعمق في دراسة

يهتم العالم الإسلامي بتدريس حضارات العالم أجمع





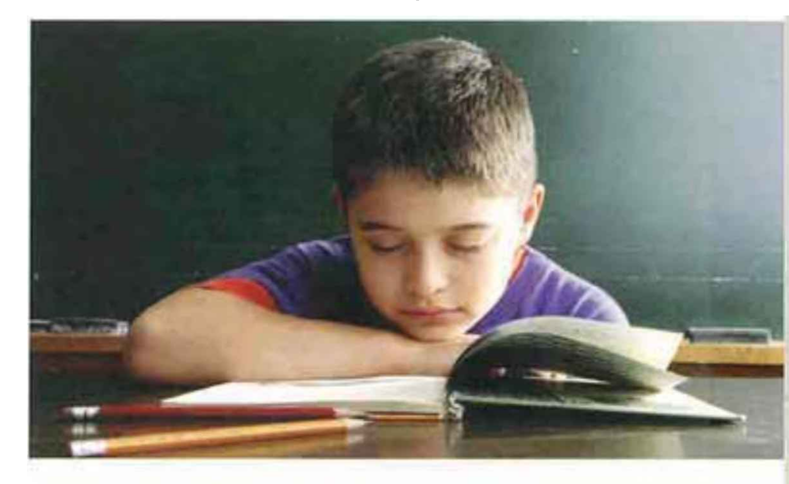


الكتب المدرسية التي يتم تدريسها في المدارس الأوروبية أو الأمريكية فإنه يصطدم بظاهرة إغفال الحضارات الأخرى في العالم، إذ يلاحظ من الوهلة الأولى أن هذه الكتب المدرسية الأوروبية والأمريكية لا تعرض ما جرى من أحداث تاريخية مهمة في دول الجنوب، وعلى الأخص في دول العالم الإسلامي أو في إفريقية وآسيا، ولا حتى في الصين واليابان والهند. فالاهتمام كله منصب على أوربا وتاريخها القديم والحديث، وعلى أمريكا منذ وطئت قدما كريستوف كولمبس أرضها، وكأن تلك القارة التي أطلقوا عليها القارة الجديدة كانت غير موجودة من قبل اكتشافهم لها، مع أنها قارة قديمة مثلها مثل بقية القارات الأربع الأخرى، وكانت موجودة وعامرة بالسكان من الهنود الحمر، ولكنها جديدة بالنسبة إلى الأوربيين فقط.

وإغفال تاريخ الآخر والحضارات الأخرى مغالطة تاريخية كبيرة، ونوع من أنواع الانكفاء الجماعي على العرقية المعروف علمياً بـ Ethnocentrism كذلك نلاحظ أن المناهج الدراسية في الغرب لا تذكر عن العرب والمسلمين إلا بعض الأحداث التاريخية التي تبرز تفوق أوربا أو انتصارها على المسلمين. وسوف نتعرض لظاهرة الإغفال هذه، وبخاصة إغفال المناهج الدراسية في الغرب الاعتراف بفضل الفلاسفة والعلماء العرب المسلمين على النهضة الأوربية في القرن الخامس عشر الميلادي.

وهذا إجحاف وإنكار لحقيقة تاريخية ثابتة في المعجمات

الدعوة إلى تطوير المناهج الدراسية دعوة عالمية



تركز دول العالم الإسلامي في مناهجها الدراسية في الأصول الثابتة في الفكر الإسلامي، وفي السور القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة

والموسوعات العلمية الكبرى في العالم، وعلى الرغم من ذلك فنادراً ما نجد في المناهج الدراسية الغربية تلك الأسماء اللامعة البراقة التي أضاءت باكتشافاتها العلمية تاريخ الحياة على الكرة الأرضية ومسارها من أمثال ابن رشد، والبيروني، وجابر بن حيان، وابن المقفع، والخوارزمي، وابن سينا، وابن النفيس، والطوسي، وابن الهيثم، وغيرهم، الذين يرجع إليهم كثير من الاختراعات والاكتشافات والنظريات التي ترتكز عليها العلوم الحديثة في العالم.

فلماذا لا تكون الدعوة إلى تطوير المناهج الدراسية دعوة عالمية ذات شطرين: فكما يطالب الغرب الدول العربية والإسلامية بتطوير مناهجها الدراسية يجب في المقابل أن تطالب الدول العربية والإسلامية الدول الأوربية والأمريكية بتعديل مناهجها الدراسية وتصحيح المعلومات المغلوطة التي تحتويها هذه المناهج، وإدراج معلومات صحيحة ومناسبة، وليست مشوهة ولا منفرة عن الإسلام وعن العرب والمسلمين؟!

أولاً: صورة الإسلام والمسلمين في المناهج الغربية

سبق أن ذكرنا أن الكتب المدرسية التي يتم تدريسها في المدارس الأوربية أو الأمريكية تطبق ظاهرة إغفال الحضارات الأخرى في العالم، فهي لا تعرض ما جرى من أحداث تاريخية مهمة في دول الجنوب، خصوصاً في دول العالم الإسلامي، ولكنها تعرض قوالب نمطية مشوهة تظهر صورة الآخر بأسلوب غير موضوعي، وأحياناً كثيرة تتعمد إظهاره بمظهر مشوّه وغير لائق ومسيء لثقافته وحضارته. وظاهرة الإغفال omission: أي: إغفال الآخر، وعدم الاعتراف بثقافته أو حضارته أو مساهمته في الحضارة الإنسانية، تعدّ سلاحاً خطيراً يستعمله مؤلفو المناهج الدراسية لعدم الاعتراف بالآخر وتجاهله وتجاهل تاريخه وحضارته، وهذه ظاهرة خطيرة يجب التنبه لها، والعمل على القضاء عليها، ولعل

أكثر الأمثلة دلالة على ظاهرة الإغفال هذه هو إغفال بعض المناهج الدراسية في الغرب الاعتراف بفضل الفلاسفة والعلماء العرب المسلمين على النهضة الأوربية في القرن الخامس عشر الميلادي، إن جميع الكتب الدراسية الأوربية والأمريكية تنسب اكتشافات العلماء العرب إلى غيرهم من العلماء الأوربيين.

فعلى سبيل المثال، وليس الحصر، مازال العلم كله يرى أن المخترع الإنجليزي روجيه بيكون (١٢١٤-١٢٩٤م) Roger Bacon هو صاحب المنهج العلمي التجريبي، بينما في الحقيقة أن المنهج العلمي التجريبي قد استخدمه جابر بن حيان Gaber Ibn Hayan منذ القرن التاسع الميلادي كما جاء ذلك في مؤلفاته. كذلك أول من فكر في نظرية الجاذبية بأسلوب علمي ليس إسحاق نيوتن Isaac Newton (١٦٤٢-١٧٢٧م) كما يدعي الغرب، بل هو أبو الريحان البيروني Abu Rayhan Al-Bayruni الذي عاش ومات قبل أن يولد نيوتن بأكثر من ستمئة عام، وهناك نظرية أخرى تنسب إلى نيوتن، وهي نظرية القانون الأول للحركة: أي الجسم في حالة سكون أو في حالة منتظمة في خط مستقيم ما لم تجبره قوة خارجية على الحركة، بينما أول من ذكر هذه النظرية وسجلها في كتاب هو العالم العربي ابن سينا Avicenne كما جاء في كتابه (الشفاء) في القرن الحادي عشر: أي قبل إسحاق نيوتن بستمئة عام.

وهناك محمد بن موسى الخوارزمي Mohamed Ibn Mussa Al-Khawarizmi الذي عاش في القرن العاشر الميلادي، وهو مؤسس علم الجبر، وأول من ابتكر المحددة التي طورها العالم الياباني سيكي كاو Sikokaw (١٦٤٢-١٧٠٨م). ومع ذلك مازال الأوربيون ينسبون نظرية المحددة إلى العالم الألماني ليبنز Liebniz (١٦٤٦-١٧١٦م). وفي مجال الجبر أيضاً ينسب اكتشاف الرموز الجبرية وإشارات العمليات الحسابية إلى العالم الفرنسي فييت Viette (١٥٤٠-١٦٠٣م). بينما استعملها قبل ذلك بمئتي عام في الأندلس ودوّنها في كتابه (كشف المحجوب في علم الغيوب) العالم العربي أبو الحسن القلصاوي Abu Al Hassan Al Qalssawi (١٤١٠-١٤٨٦م). وفي مجال الرياضيات، هناك اكتشافات عربية كثيرة تنسب إلى العلماء الأوربيين، بينما العلماء العرب هم الذين أرسوا قوانينها: مثل: حساب التكامل، ونظرية المثلث القائم الزاوية، التي طورها العالم العربي ثابت بن قرة Thabit Ibn Qara في القرن العاشر الميلادي، والتي لا تزال تنسب إلى ليبنز Liebniz ، الذي جاء بعده بأكثر من ستمئة وخمسين سنة، إلى جانب نظريات أبي بكر الكرخي Abu Bakr Al-Kirkhi الذي عاش في القرن الحادي عشر الميلادي، وهو مبتكر مثلث معاملات نظرية ذات الحدين، وعلى الرغم من أن أحد العلماء الصينيين، ويدعى تشوشيكي Chochiki، أصدر كتاباً بعنوان (العناصر الأربعة) عام ١٣٠٣م شرح فيه طريقة إيجاد معاملات نظرية ذات الحدين باستخدام مثلث المخترع العربي أبي بكر الكرخي، وهذه شهادة تاريخية متعارف عليها في مجال علم الرياضيات في العالم أجمع، إلا أن الأوربيين لايزالون يصرون على أن العالم الفرنسي بلاز باسكال Blaise Pascal (١٦٢٣-١٦٦٢م) هو صاحب هذه النظرية.

وهناك اكتشافات ونظريات أخرى لا تعد ولا تحصى في المجالات العلمية شتى، وفي الطب خاصة، مثل اكتشاف الدورة الدموية الصغرى، الذي يعود إلى العالم ابن النفيس Ibn El-Nafis، ولكن أوربا لاتزال تنسبه إلى عالم أوربي آخر، وكذلك اكتشافات ابن سينا Avicenne، إذ كان كتابه (الشفاء) يدرس في جامعات أوربا حتى القرن التاسع عشر.

فإلى متى سنظل نتهاون في حقوقنا وحقوق العلماء العرب علينا، ونتغاضى عن كل هذه المغالطات الجسيمة، ولا نطالب بتصحيح المعلومات، وبإظهار الحقائق التاريخية الثابتة في الكتب والمخطوطات، وكشف مغالطات العلماء الأوربيين، الذين نسبوا إلى أنفسهم اختراعات العلماء العرب المسلمين، ومحوا أسماء العرب تماماً، وذلك حتى نهاية القرن التاسع عشر الميلادي عندما بدأ بعض المستشرقين الأوربيين يعترفون في كتاباتهم بفضل العرب المسلمين على النهضة الأوربية؟ ومن بين هؤلاء الذين نطقوا بالحقائق نذكر المستشرق الفرنسي جوستاف لوبون Gustave Lebon، الذي

إعداد المناهج الدراسية في كل دولة هو من أهم القضايا المحورية التي يجب أن توليها الدولة كل اهتمامها، خصوصاً في مرحلة المدارس الابتدائية

بعض المفكرين المسلمين أخذ برأي الغرب، وارتأى أنه يمكن أن نعد المطالبة بتعديل المناهج الدراسية في دول العالم الإسلامي دعوة إلى التطوير

أشاد بدور المسلمين في تنوير أوربا، فقد ذكر في كتابه الذي يحمل عنوان (حضارة العرب) (١٨٨٤م) ما يأتي:

«كان تأثير العرب المسلمين في الغرب عظيماً، واليهم يرجع الفضل في حضارة أوربا... ولا يتسنى لنا معرفة التأثير العظيم الذي أثره العرب المسلمون في الغرب إلا إذا أدركنا مدى تخلف أوربا في الزمن الذي دخلت فيه الحضارة الإسلامية إليها في القرنين التاسع والعاشر الميلاديين حين ازدهرت الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، بينما كان سادة أوربا نصف متوحشين يعتكفون في أبراج عالية، ويتفاخرون بأنهم أميون... إن العرب المسلمين هم الذين أخرجوا الغرب من التوحش، وأعدوا النفوس للتقدم والرقي بفضل علوم العرب وآدابهم التي أخذت الجامعات في أوربا تعول عليها فانبثق منها ذات يوم عصر النهضة الأوربية».

وعلى الرغم من هذا الاعتراف بدين الحضارة الأوربية للعلماء العرب فلانزال نجد صورة الإسلام والمسلمين مشوّهة في كثير من الكتب الأوربية، بل إن هناك ظاهرة جديدة، بعد أحداث ١١ سبتمبر عام ٢٠٠١م الأليمة، وهي ربط الإسلام والمسلمين بالإرهاب، وبالعمليات الإرهابية، بل إن بعض كتب التاريخ في الغرب قد أدرجت أحداث ١١ سبتمبر عام ٢٠٠١م، في مناهجها منذ عام ٢٠٠٣م، ونسبتها إلى المسلمين في بعض دول الشرق الأوسط، ونحن نعتقد أن إدراج تلك الأحداث في المناهج الأوربية يعدّ تسرعاً غير مسوّغ.

لابد أن يعترف الغرب بفضل العلماء العرب والمسلمين على النهضة الأوربية، وعلى الحضارة الغربية، وأن يعرف التلاميذ في المدارس الأوربية والأمريكية أن العرب والمسلمين ساهموا في إرساء أسس الحضارة الغربية خاصة، والحضارة الإنسانية عامة، ونحن نطالب المسؤولين عن المناهج الدراسية في الدول الأوربية وفي الولايات المتحدة الأمريكية بتصحيح المعلومات المغلوطة في الكتب المدرسية، واستبدال الحقائق التاريخية الثابتة بها، انطلاقاً من مبادئ احترام حقوق الإنسان، وإرساء حوار الحضارات بدلاً من صراع الحضارات.

ثانياً: صورة الأوربيين في مناهج العالم العربي والإسلامي

يتضح جلياً من التعمق في دراسة الكتب المدرسية التي يتم تدريسها في المدارس الابتدائية في معظم الدول العربية والإسلامية أن هذه الدول تحاول أن تغرس في هذه المناهج بذور ثقافتها وحضارتها وأيضاً سياستها. ولكن اللافت للنظر أن المناهج الدراسية في دول العالم الإسلامي تعطي أهمية لتاريخ العالم أجمع وحضاراته، ولا تتوقف فقط على تاريخها الإسلامي، وأنها تعرض أهم مميزات الحضارة الأوربية، إلى جانب الحضارات الأخرى في العالم، مثل الحضارات الهندية والإفريقية والآسيوية، ولكن ما يؤخذ عليها هو أنها لا تتوخى الموضوعية، والأسلوب العلمي البراجماتي في عرض الأحداث والشعوب، إذ تقدمها طبقاً لمعاييرها، وطبقاً لتقويمها وقيمها الإسلامية، ولا تراعي في ذلك الخصوصيات الثقافية لتلك الشعوب والحضارات، التي تختلف معاييرها عن المعايير الإسلامية.

لذا فإن صورة الأوربيين والأمريكيين في الكتب الدراسية في العالم العربي والإسلامي مغايرة للواقع، وتعكس كثيراً من السلبيات والتشويه، ونحن نطالب الدول العربية والإسلامية، بتعديل مناهجها أيضاً، وعدم الاستمرار في بث روح العداء والكراهية للغرب في نفوس التلاميذ المسلمين، وتصوير الأوربيين والأمريكيين كأنهم يعيشون في حالة من الانحلال الأخلاقي والتفكك الأسري، وأنهم نهبوا خيرات البلاد العربية والإسلامية بعد استعمارهم لها، وأن الاستعمار الأوربي ما هو إلا استمرار للحروب الصليبية.

إن هذه الصورة السلبية عن الأوربيين قد استخرجها فريق من الباحثين الألمان من المناهج الدراسية في مصر وسورية وفلسطين والأردن: «لقد وجدنا احتراماً شديداً للدين المسيحي، ولكن المعلومات عن العقيدة المسيحية، وعن حياة المسيحيين قليلة جداً، والمناهج المصرية تحتوي على معلومات ممتازة عن التاريخ القديم للأقباط في مصر، ولكن لا توجد معلومات عن الأقلية المسيحية بعد الفتح الإسلامي لمصر، كما نجد معلومات جيدة عن الالتقاء الحضاري بين الحضارة العربية الإسلامية وأوربا في القرون الوسطى، ولكن وجدنا أنماطاً سلبية تصور الغرب المسيحي على أنه

عدو الثقافة الإسلامية، كما لا يوجد على الإطلاق معلومات الالتقاء الثقافي في الوقت الحاضر».

وقد أعطى القائمون على هذه الدراسة أهمية كبيرة للمناهج الدراسية في مصر على وجه الخصوص، وخرجوا بخلاصة فحواها: «لاحظنا أن من ٨٠٪ إلى ٩٠٪ من المعلومات التاريخية التي يتم تلقينها للتلاميذ المصريين تتعلق بمقاومة الصليبيين، وتحث على النضال والكفاح للتحرر من الصليبيين... وأن حقبة الاستعمار الحديث متصلة اتصالاً مباشراً بحقبة الحروب الصليبية، وتبدو كأنها استمرار مباشر لتلك الحروب الصليبية، ولكن بأساليب مختلفة».

ولم يكتف القائمون على الدراسة بتسجيل ملاحظاتهم العامة على المناهج، بل إنهم استخرجوا من الكتب المدرسية بعض المقاطع التي تسوّغ وتؤكد تلك الملاحظات، مثلما يتضح من المقطع الآتي: «لقد انتصر صليبيو العصر الحديث على المسلمين؛ وذلك بتحقيق الأهداف التي لم يستطع أجدادهم في القرون الوسطى تحقيقها. لقد انتقموا من العالم الإسلامي من خلال احتلالهم له، وفرض أنظمتهم وقوانينهم عليه، وباستغلال موارده لصالحهم» (نص مستخرج من كتاب التاريخ للمدارس الثانوية، جمهورية مصر العربية، طبعة عام ٢٠٠١ و ٢٠٠٢م، ص ٨١).

هل يعقل أن نطلق على الأوربيين تعبير (صليبيو العصر الحديث) في القرن الحادي والعشرين في كتب التاريخ المدرسية، التي تدرس في أهم دولة في منطقة الشرق الأوسط، في مصر التي كانت سباقة إلى السلام، وإلى الحوار مع أوربا، وإرساء الحوار الثقافي الأورمتوسطي؟

قد يردّ على ذلك بأن هذا وصف للاستعمار والمستعمرين الذين احتلوا مصر ٨٨ عاماً، ولكن هذه المدة قد انتهت، وحصلت مصر على الاستقلال وجلاء المستعمرين منذ أكثر من ٥٠ عاماً، وأصبح هؤلاء المستعمرون: أي: الإنجليز، حلفاء لمصر، وبيننا وبينهم اتفاقيات ومعاهدات وعلاقات دبلوماسية واقتصادية وثقافية، فلماذا نستمر في وصفهم بأنهم (صليبيو العصر الحديث)؟.

وهناك دراسة أجراها مركز تقييم تأثير السلام على المناهج الدراسية في كل من إسرائيل والمناهج الجديدة التي وضعتها السلطة الفلسطينية، وكذلك المناهج الأردنية والسورية؛ للوقوف على مدى تطبيقها معايير اليونسكو ومعايير هذا المركز لإقرار تربية السلام في هذه الدول. وجاءت نتائج هذه الدراسات لغير مصلحة تلك الدول جميعاً، إذ إنها تقول: «إن المناهج السورية تستخدم تعبيرات سلبية للتعريف بالصهيونية وبإسرائيل، فتصفها بأنها (السرطان الصهيوني) أو (العدو الصهيوني)... والصهيونية حركة سياسية، عنصرية، إمبريالية، استعمارية، عدوانية، امتدادية، تستخدم الدين اليهودي للتوصل إلى أهدافها لإنشاء وطن لليهود على أرض فلسطين، وفي البلاد المجاورة» (كتاب التربية القومية الاجتماعية، الجمهورية السورية، ص ٨٩).

ويذكر الباحثون في تقريرهم أن «المناهج السورية لا تخفي أن تحرير فلسطين الكامل هو تعبير موازٍ لتصفية إسرائيل، ويتم ذكر ذلك على أنه واجب أساسي لحزب البعث الحاكم، وأن هذا العمل إنما هو عمل للتطهير: تطهير فلسطين من الصهيونية، والطريقة الوحيدة لاستعادة الكرامة العربية والإسلامية» (المصدر نفسه، ص ٢٢).

ونحن نرى أن هذا العرض السياسي البحت غير مقبول علمياً؛ إذ لا توجد مجرد محاولة لإفهام التلاميذ أن العداء بين المسلمين واليهود الإسرائيليين حالياً إنما يرجع إلى أسباب سياسية، وليس إلى أسباب دينية؛ لأن المسلمين يعترفون باليهودية، ويرون اليهود (أهل الكتاب) و(أهل الذمة)، وأن المسلمين لا يعادون اليهود، ولكنهم يعادون الصهاينة الإسرائيليين. إن إغفال هذه الحقائق العلمية لا يمكن أن يندرج تحت بند تربية السلام التي تود الأمم المتحدة والهيئات الدولية الأخرى العاملة في مجال إقرار السلام أن تنشرها في دول الشرق الأوسط للتوصل إلى التعايش السلمي بين شعوب هذه المنطقة.

إن إقرار هذا التوضيح واجب علمي وملزم في المناهج الدراسية في الدول العربية والإسلامية؛ لأن اليهود ليسوا فقط الإسرائيليين الموجودين في إسرائيل، بل إن كثيراً من الأوربيين والأمريكيين يدينون بالدين اليهودي، فهم يهود أيضاً، وبيننا وبينهم مواثيق وعهود واعتراف بدينهم وهويتهم وثقافتهم اليهودية. هذا الإغفال لهذه الحقائق العلمية يجب القضاء عليه وتطوير المناهج الدراسية في الدول العربية والإسلامية لتحتوي على هذه الحقائق العلمية؛ ليستوعبها التلاميذ العرب المسلمون والمسيحيون، ويتعايشون معها، ويتعاملون بموجبها مع الأوربيين والأمريكيين المسيحيين واليهود.





المناهج الدراسية في دول العالم الإسلامي تعطي أهمية كبيرة لحضارات العالم أجمع، خصوصاً الحضارة الأوروبية، إلى جانب الحضارات الأخرى

الخلاصة

إن الدعوة إلى تطوير المناهج الدراسية دعوة عالمية ذات شطرين: فكما يطلب الغرب من الدول العربية والإسلامية تطوير مناهجها الدراسية يجب في المقابل أن نطلب الدول العربية والإسلامية من الدول الأوربية والأمريكية تعديل مناهجها الدراسية. ولقد لاحظنا من خلال تجربتنا العلمية والدراسات المقارنة للمناهج الدراسية في بعض دول العالم العربي الإسلامي، وفي بعض الدول الأوربية، أن هناك ظاهرة خطيرة متبعة يطلق عليها ظاهرة الإغفال omissin؛ أي تجاهل الآخر وثقافته وإسهاماته في الحضارة الإنسانية العالمية. وأهم مثال على هذه الظاهرة في الكتب الأوربية هو إغفال ذكر فضل العلماء العرب المسلمين على النهضة الأوربية. إذ لايزالون ينسبون كثيراً من الاختراعات والاكتشافات العلمية التي قام بها العرب المسلمون في الأندلس في القرن الثاني عشر الميلادي إلى علماء أوربيين في القرن السابع عشر الميلادي؛ لذا يجب القضاء على هذه الظاهرة، وإدراج معلومات علمية صحيحة، والاعتراف بفضل العلماء العرب الذين أرسوا أسس العلوم الحديثة في العالم؛ حتى يعرف التلاميذ الأوربيون والأمريكيون من هم العرب المسلمون، وماذا قدموا للحضارة العالمية؟

كذلك يجب أن يقوم العرب والمسلمون بتعديل المناهج الدراسية في بلادهم لتصحيح الصورة المشوهة التي تعرضها عن الأوربيين والأمريكيين، وعدم إظهارهم بمظهر المستعمرين الجدد، الذين يتربصون بالدول العربية والإسلامية للانقضاض عليها، وسلب خيراتها ومواردها الأولية، وإخضاع شعوبها للهيمنة والسيطرة الأجنبية، وإفساد المجتمعات فيها، وضرب الدين الإسلامي، وإذلال الشعوب والأوطان.

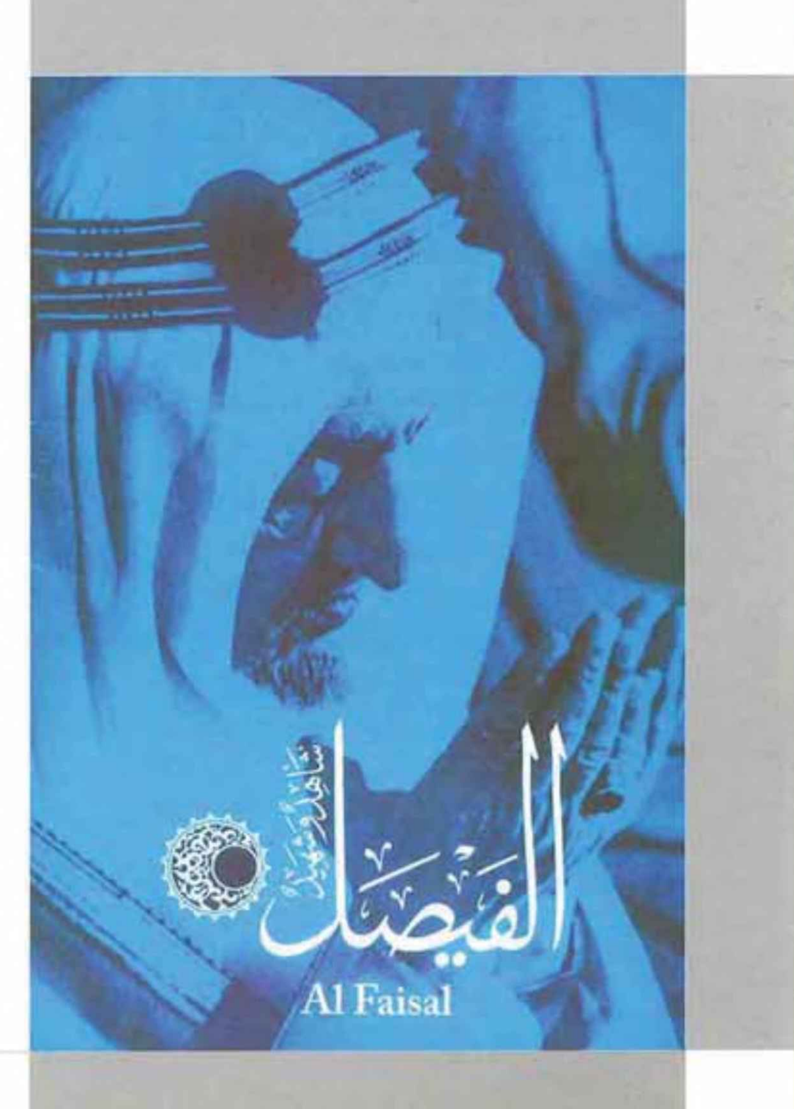
إن المعلومات المغلوطة عن الآخر لن تؤدي إلا إلى النفور من الآخر، وزيادة الفجوة بين العالم العربي والإسلامي من ناحية والدول الأوربية والأمريكية ذات الثقافة المسيحية واليهودية من ناحية أخرى، ولن تزرع في نفوس أولادنا سوى الحقد والعنف. فيجب أن نقوم بتطوير المناهج الدراسية هنا وهناك؛ لنزرع بذور المحبة والسلام في نفوس الجيل الصاعد، ونشر تربية السلام وحقوق الإنسان؛ لنحقق حوار الحضارات والتعايش السلمي مع الآخر.

الأمير خالد الفيصل يفتتح معرض (شاهد وشهيد) في محطته الثالثة

افتتح صاحب السمو الملكي الأمير خالد الفيصل بن عبدالعزيز - أمير منطقة مكة المكرمة - مساء ١٠ شوال الماضي (١٠ أكتوبر/ تشرين الأول) معرض (الفيصل.. شاهد وشهيد) في محطته الثالثة في مركز جدة الدولي للفعاليات والمنتديات، وقد جوّل سموه في المعرض الذي ضم الصور الفوتوغرافية والأفلام المرئية للملك فيصل، رحمه الله، ورافقه صاحب السمو الملكي الأمير تركي الفيصل - رئيس مجلس إدارة مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية - وصاحب السمو الملكي الأمير مشعل بن ماجد - محافظ جدة - وعدد من الأمراء، والمسؤولين، والضيوف.

وقال الأمير خالد الفيصل، عقب جولته في المعرض الذي تنظمه مؤسسة الملك فيصل الخيرية، ومركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية: إننا نعاهد الله سبحانه وتعالى، ونعاهد قادتنا أمثال الملك فيصل بن عبدالعزيز، ومن قبله والده الملك عبدالعزيز، بأننا سوف نسير على نهجهم وخطاهم، وأن نحاول قدر الإمكان أن ننجز ما بدأه في سبيل خدمة المملكة العربية السعودية، والوطن العربي، والعالم الإسلامي. وأضاف: كان الملك فيصل رجلاً عظيماً، وقائداً ملهماً، ومسلماً ضحّى بكل غالٍ ونفيس في سبيل خدمة الدين أولاً، ثم الوطن والمواطن في المملكة، رحم الله الملك فيصلاً الذي نقول له: إنك ما زلت معنا، وسوف تبقى كذلك.

وأوضح سموه أن المعرض في محطته الثالثة سيلقى كثيراً من الاهتمام من الزوّار من أبناء المنطقة، التي عاش الفيصل فيها أغلب أيام حياته، ومن زوّار بيت الله الحرام؛ لتزامن المعرض مع الحج، وما تمثّله فترة حكم الفيصل للعالمين العربي والإسلامي، مبدياً رضاه عما حققه المعرض في محطتيه السابقتين في الرياض وأبها، وختم سموه بقوله: إن المعرض يمثل حقبة مهمة في تاريخ المملكة العربية السعودية، وسيسهم في تعريف الأجيال التي لم تعايش الملك فيصل -رحمه الله- بتاريخه، وسيرته العطرة، شاكراً للقائمين على المعرض والمنظمين له الجهود الكبيرة التي بذلوها من أجل إخراجه بهذا الشكل الراقي.



كما أكد صاحب السمو الملكي الأمير تركي الفيصل - رئيس مجلس إدارة مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، والمشرف العام على المعرض- أن المعرض في محطته الثالثة يستهدف إلقاء مزيد من الضوء على تاريخ شخصية عظيمة خدمت أمتيها العربية والإسلامية، وناصرت قضاياهما العادلة طوال حياتها. من خلال الفعاليات التي تُقام على هامش المعرض في جامعة الملك عبدالعزيز، وجامعة أم القرى، وجامعة الطائف، والأندية الأدبية، وكلية دار الحكمة، وكلية عفت، وفرع وزارة الخارجية، وكلية إدارة الأعمال، ومدارس دار الحنان، والغرفة التجارية الصناعية. ونوّه سموه بما قدمه الفيصل لوطنه وأمته، وما بذله من جهد مخلص لنصرة القضايا العربية والإسلامية العادلة، ومن بينها القضية الفلسطينية التي كانت محور اهتمامه. وأوضح سموه أن المعرض يشتمل على كثير من المعلومات الموثقة بالصور المختلفة عن رحلات الملك فيصل، ومواقفه السياسية تجاه القضايا المحلية والإقليمية والعالمية. وقال: إن عنوان المعرض (الفيصل.. شاهد وشهيد) يتناول الحقبة الزمنية التي كان الملك فيصل شاهداً على أحداثها مع دخوله مجال السياسة والحكم في سنّ مبكرة في العقد الثاني من القرن الماضي حتى يوم استشهاده - رحمه الله - سنة ١٣٩٥هـ، مبيناً أن المعرض يتضمن صوراً فوتوغرافية نادرة للملك في خلال سنوات حياته المختلفة، ومشاهد متحركة، ولقطات فيديو تسجل مراحل متعددة من مسيرته الخالدة، إضافةً إلى بعض المقتنيات الخاصة، وعدد من المخطوطات والنصوص المكتوبة. وقال سموه: إن هناك محطات أخرى للمعرض بعد منطقة مكة المكرمة يجوب فيها كل مناطق المملكة، مشيراً إلى أن المحطة الرابعة هي الدمام، ثم تكمل المسيرة في باقي مناطق المملكة البالغ عددها ١٣ منطقة، بعد ذلك سينطلق المعرض إلى دول مجلس التعاون، ثم إلى العالمين العربي والإسلامي، وبعد ذلك إلى بقية دول العالم. وأضاف سموه: حسب تقديراتنا الأولية فإن مدة المعرض قد تصل إلى ١٠ سنوات حتى يغطّي هذه الدول.

وشكر الأمير تركي الفيصل صالح بن علي التركي - رئيس مجلس إدارة الغرفة التجارية الصناعية بجدة - والدكتور عبدالله مرعي بن محفوظ - عضو مجلس الإدارة -، وفريق العمل في غرفة جدة لدورهم في نجاح الفعاليات.

وقالت صاحبة السمو الملكي الأميرة مشاعل بنت تركي الفيصل -المسؤولة عن المعرض: إن المعرض ذاكرة الأجيال الجديدة، وهو يستهدف الشباب والأجيال التي لم تعاصر حياة الملك فيصل.

وقد أقيمت ضمن فعاليات معرض (الفيصل.. شاهد وشهيد)، بمركز جدة الدولي للمؤتمرات والمنتديات، ندوة تحت عنوان: (الفيصل: العهد الموصول)، نظّمتها كلية عفت في جدة في يوم ١٣ شوال الماضي (١٣ أكتوبر ٢٠٠٨م). وأكدت صاحبة السمو الملكي الأميرة لولوة الفيصل - نائبة رئيس مجلس الأمناء، والمشرفة العامة على الكلية - أن هذه الندوة جاءت تخليداً لذكرى الفيصل، وإنعاشاً للذاكرة الوطنية لمواقفه الخالدة، رحمه الله. وقالت: إن هذه الاحتفالية تعدّ انطلاقة أكاديمية للفعاليات الثقافية والإعلامية للنساء والرجال تُعرض فيها إنجازات الملك الشهيد. وتضمنت كلمة لجوزيف كشيشيان، وهو من كبار المؤرخين والكتّاب الذين دوّنوا مسيرة الملك فيصل، كما تحدث كل من الدكتور محمد عبده يماني، والدكتورة نادية باعشن، والمهندس محمد حسن أبو داود، والسيدة مها فتيحي، مستعرضين إسهامات الملك فيصل من جميع جوانبها التنموية، وما قدمه لشعبه، وللأمتين العربية والإسلامية، وركز أحد المحاور فيما قدّمه الملك فيصل للمرأة من مكتسبات، وقد أدار الجلسة الإعلامي حسين شبكشي.

وقالت الدكتورة هيفاء رضا جمل الليل - عميدة كلية عفت - من جهتها: إننا في كلية عفت نؤمن بأهمية الولاء، والانتماء إلى الوطن الغالي، وإلى مؤسّسيه الراشدين، وأهمية مدارسة تاريخهم وسيرهم.

يُذكر أن المعرض سيستمر أكثر من شهرين، ويشتمل على فعاليات مختلفة في مواقع كثيرة ستشهد محاضرات وندوات تتناول جوانب مختلفة من حياة الفيصل، رحمه الله.



أيام ثقافية سعودية في المكسيك وبولندا وكوريا الجنوبية

أقيمت فعاليات الأيام الثقافية السعودية بالمكسيك، وانطلقت في ساحة لوريتو بمدينة مكسيكو سيتي في مساء ١٢ شوال الماضي (١٢ أكتوبر عام ٢٠٠٨م) بحضور الدكتور أبو بكر باقادر - وكيل وزارة الثقافة والإعلام للعلاقات الثقافية الدولية - وأعضاء الوفد السعودي المشارك. وقدمت فرقة الفنون الشعبية السعودية عروضاً فلكلورية، وألواناً شعبية؛ مثل: الطرب الينبعي، والمزمار، والليوة، والسيف، والعزاوي، وأخيراً العرضة السعودية التي شارك في أدائها الجمهور المكسيكي. وترافق مع ذلك توزيع الحلويات الشعبية السعودية، وماء زمزم على الجمهور الذي تفاعل مع الفعاليات.

وصرّح منير بن إبراهيم بنجابي - سفير خادم الحرمين الشريفين لدى المكسيك - بأن الأيام الثقافية السعودية في المكسيك تأتي تنفيذاً للتوجيه السامي للتعريف بالموروث الشعبي للمملكة، وإطلاع الشعب المكسيكي على حضارة المملكة، وتاريخها العريق، الذي قدّمته حكومة خادم الحرمين الشريفين وشعب المملكة مجسماً إلى حكومة المكسيك وشعبها في إطار العلاقات الأخوية بين البلدين الصديقين. وقد كرّم السفير منير بنجابي وفد وزارة الثقافة والإعلام المشارك في الأيام الثقافية السعودية بالمكسيك.

من جهة أخرى، شاركت فرقة الفنون الشعبية بجمعية الثقافة والفنون بجدة في احتفال سفارة خادم الحرمين الشريفين لدى جمهورية بولندا بمناسبة اليوم الوطني للمملكة بحضور السفير الدكتور ناصر البريك، وقدمت الفرقة الرقصات والأهازيج الشعبية من مختلف مناطق المملكة. وقد استضافت وزارة الثقافة البولندية فرقة الفنون الشعبية في حفل ثانٍ أقامته احتفاءً بمناسبة اليوم الوطني للمملكة في كبرى حدائق العاصمة وارسو بحضور السفير البريك، وعدد كبير من الطلاب السعوديين المبتعثين، وبمشاركة بولنديين تفاعلوا مع الفنون الشعبية السعودية.

كما افتُتحت برعاية الأستاذ عبدالله بن عبدالعزيز العيفان - سفير خادم الحرمين الشريفين لدى جمهورية كوريا الجنوبية - في ٨ شوال الماضي (٨ أكتوبر/ تشرين الأول عام ٢٠٠٨م) فعاليات المهرجان الثقافي للمملكة العربية السعودية، الذي يستضيفه المركز الكوري للثقافة العربية والإسلامية بمدينة أنشون بجمهورية كوريا الجنوبية، ويمتد إلى الأول من ذي الحجة (٣٠ نوفمبر/ تشرين الثاني عام ٢٠٠٨م).

وقال الدكتور هان داك كي - مدير المركز -: إن إقامة هذا المهرجان تجسّد حرص حكومة خادم الحرمين الشريفين على تعزيز العلاقات مع جمهورية كوريا الصديقة في مختلف المجالات.

افتتاح أكبر مسجد في أوربا بالعاصمة الشيشانية

شهدت مدينة غروزني عاصمة جمهورية الشيشان في يوم ١٧ شوال الماضي (١٧ أكتوبر/ تشرين الأول ٢٠٠٨م) افتتاح مسجد (قلب الشيشان)، وهو يحمل أيضاً اسم الرئيس الشيشاني الراحل أحمد قديروف الذي كان مفتياً أيضاً قبل تولّيه الرئاسة في عام ٢٠٠٣م.

وكان أحمد قديروف -مفتي جمهورية الشيشان سابقاً- قد دعا إلى تشييد هذا المسجد في عام ١٩٩٧م، إلا أن الحرب التي اندلعت في القوقاز حينذاك حالت دون ذلك. وقد شيّد المسجد قبالة الحديقة التي يتوسّطها تمثال لقديروف الذي يتولى ابنه رمضان منصب رئيس جمهورية الشيشان حالياً. ويعدّ هذا المسجد أكبر مسجد في أوربا؛ إذ يتسع لنحو ١٠ آلاف مصلٍّ، ويحتل مساحة ١٤ هكتاراً. ويضم المسجد إلى جانبه مبنى لإدارة المؤسسة الإسلامية في الشيشان، ومؤسستين للتعليم الإسلامي، وبيتاً للطلبة، ومكتبة، وفندقاً.

رقوق قرآنية ومخطوطات نادرة في معرض بصنعاء

افتتح وزير الثقافة اليمني أبو بكر المفلحي معرضاً لنوادر الرقوق القرآنية والمخطوطات، ضم ١٠٦ صور من النوادر التي تكتنزها دار المخطوطات بالعاصمة صنعاء، ومكتبة الأحقاف في تريم بمحافظة حضرموت، وهي تشمل مجالات العلوم الدينية، والعلمية، والطب، والهندسة، والفلك، والتاريخ؛ وذلك ابتداءً من القرن الهجري الأول ما قبل التنقيط وبعده. وهناك مخطوطات بخط مؤلّفيها؛ كالإمام العلامة محمد بن علي الشوكاني المتوفّى سنة ١٢٥٠هـ، إلى جانب مخطوطات لمؤلفين خطّها آخرون. ويبرز المعرض الذي استمر في رواق بيت الثقافة في صنعاء حتى ٢٠ شوال الماضي (٢٠ أكتوبر/ تشرين الأول عام ٢٠٠٨م) الموروث الثقافي والحضاري.
وفي المعرض صور لرقوق قرآنية تعرض الخط الكوفي المستخدم في كتابة المصاحف قبل التنقيط وبعده، وهي تمثل مراحل مختلفة من الخط الكوفي الذي ظهر في الكوفة، وانتشر في الأمصار العربية والإسلامية، ومن بينها اليمن، حيث يوجد الخط الكوفي اليماني.
وينفرد مخطوط ابن المجاور الدمشقي، الذي يعود إلى القرن السابع للهجرة، ويحمل عنوان: (تاريخ المستبصر): بمخططات ورسوم لمكة المكرمة قبل ٧٠٠ سنة، إلى جانب مخطط لمدينة جدة، ومخططين لمدينتي عدن وزبيد اليمنيتين.



مشاركة عربية وأجنبية في مهرجان الإسماعيلية للأفلام الوثائقية

شاركت ٤٠ دولة عربية وأجنبية في الدورة الثانية عشرة من مهرجان الإسماعيلية الدولي للأفلام التسجيلية والقصيرة، الذي كانت انطلاقته في يوم ١٥ شوال الماضي (١٥ أكتوبر/ تشرين الأول عام ٢٠٠٨م)، واستمر مدة أسبوع.
وشارك في المهرجان الفلم السعودي (حذاء الجنرال)، وهو فلم من فئة أفلام الكرتون للمخرج أكرم أغا، وذلك ضمن مئة فلم من بينها ٩٢ فلماً من الدول العربية والأجنبية.
وقرّرت إدارة المهرجان تخصيص حفل الافتتاح لعرض الأفلام التسجيلية للمخرج الراحل يوسف شاهين تكريماً له. وأوضح الناقد علي أبو شادي - رئيس المهرجان - أن جوائز المهرجان تبلغ نحو ٦٠ ألف جنيه مصري موزّعة على خمس مسابقات، هي: الفلم الروائي القصير، والفلم التسجيلي الطويل، والفلم التسجيلي القصير، وأفلام الرسوم المتحركة، والأفلام التجريبية.
ومن الأفلام العربية المشاركة: (السكات) للتونسية فاتن حفناوي، و(جنوب) للفلسطيني نزار حسن، و(المشهد) للأردنيين رفقي عساف، وحازم بيطار، و(حرب)، و(حب وجنون) للعراقي محمد الدراجي، و(مونولوج) للسوري جود سعيد. ومن مصر شاركت ثمانية أفلام. ومن الدول الأجنبية المشاركة في المهرجان: هولندا، وبلجيكا، وفنزويلا، وإسبانيا، وبولندا، والمكسيك، وسنغافورة، وسويسرا، وروسيا، وأمريكا، والأرجنتين، واليونان، والصين، وبريطانيا، وفرنسا، وألمانيا، وفنلندا، وأستراليا.
وتكوّنت لجنة تحكيم المهرجان، التي ترأستها هذا العام المخرجة الروسية ماشا نوفيكوفا، من المخرج التونسي المقيم في باريس مصطفى الحسناوي، والناقد الهندي بريمندرا مازامدر، والناقدة المصرية ماجدة موريس، والناقدة والكاتبة السورية ديانا جبور.


الملف



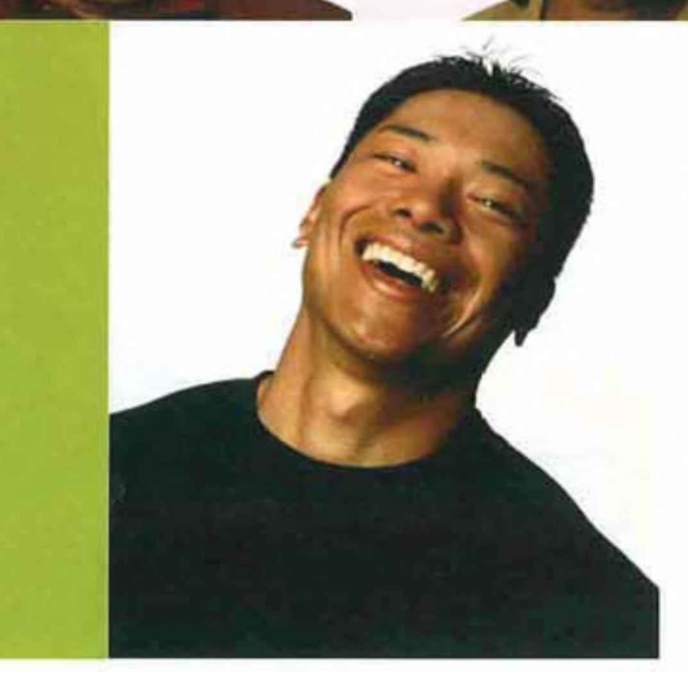
نولد جميعاً ولدينا القدرة على الضحك. إنه لغة عالمية لا نحتاج أن نتعلمها. كل الناس تضحك، كل الشعوب. الضحك جزء من السلوك البشري في كل مكان بالعالم. يضحك الفرد منا في المتوسط ١٧مرة كل يوم. إننا نضحك أكثر مما نأكل أو نغني أو نحب، وكلنا يفهم لغة الضحك من دون تدريب. غير أن كثيراً منا قد لا يعلم - وبعضنا قد لا يأبه حتى أن يعلم - عمَّ يعبر الضحك؟ وكيف يتجلى؟ وما الذي يدفع الإنسان إلى هذه الاستجابة الجسدية المحضة، التي تترجم بعدد من الحركات في الفم، وفي عضلات الوجه، ترافقها زفرات متقطعة متفاوتة في شدة صخبها؟ وإلى ذلك، وهنا الأهم، ربما لا يدرك كثير أن الضحك أصبح الآن علماً يكاد يتفرد بذاته، ويدور حوله الجدل، وتوضع له النظريات (فلسفية، ونفسية، واجتماعية)، وتتنازعه التفاصيل والأفكار المختلفة.

الضحك
علم له أصول

إبراهيم علي شعافي
صنعاء - اليمن







الضحك حيّر العلماء

تحاول هذه المقالة مقاربة الضحك من منظور علمي، والتجول في بعض عوالمه المثيرة الملأى بالتفريعات و«التعقيدات» التي بلا شك تؤكد - في النتيجة، وبعكس السائد - أن الضحك ليس مجرد عملية فسيولوجية فحسب، بل هو «علم» متكامل وعميق.. علم له أصول!.

ما الضحك؟

يُعرِّف قاموس ويبستر الضحك بأنه «تعبير مسموع يرتبط بانفعال معين (خصوصاً البهجة والسخرية والارتباك.. إلخ)». ويحدث الضحك من خلال اندفاع الهواء على نحو مفاجئ من الرئتين فينتج منه أصوات تمتد من القهقهة الانفجارية إلى الضحك نصف المكبوت أو المكتوم. وغالباً ما تصحب الضحك حركات خاصة بالفم أو عضلات الوجه، وارتفاع ما في العينين. ويرتبط الضحك بالاكتشاف لتسلية ما أو متعة ما مرتبطة بشيء معين أو شخص معين». كذلك عرف الضحك بأنه «فعل الضحك أو الصوت الناتج عنه الدال على المتعة أو اللهو أو التسلية». وكلمة الضحك كلمة عامة تشير إلى أصوات الزفير أو التنهدات، إذ إنه يترجم بسلسلة زفرات قصيرة ومتقطعة ناجمة عن حركات شهيق وزفير عنيفة لعضلة الحجاب الحاجز، وهو يترافق بتنغيم في كل الأوقات تقريباً.

لماذا نضحك؟

تساءل الفلاسفة كثيراً عن علّة الضحك، ولماذا كان مظهراً للسرور والفرح، وكثرت إجاباتهم، فمن قائل: إنه صنيع فسيولوجي مادي يتصل بانتقال الشعور انتقالاً مفاجئاً من الأعصاب إلى العضلات، ومن قائل: إنه صنيع نفسي ينشأ من إفراغ التعب الذي يصيبنا في الحياة، إذ يخرجنا الضحك من حياتنا الجادة المجهدة، فنشعر بالراحة ونضحك. ويزعم آخرون أنه انفجار يحدث من انتظار أو من جهد يتحول فجأة لا إلى شيء، بل إلى فراغ مطلق، وكأن النتيجة غير المنتظرة هي التي تدفعنا دفعاً إلى أن نضحك ونغرق في الضحك بمقدار بعدها عنا، ومفارقتها المقدمات التي تسبقها. ويذهب الفيلسوف الأمريكي جون موريل إلى أن الضحكة البشرية الأولى ربما تكون قد صدرت تعبيراً عن الارتياح لزوال خطر ما، يسمع الآخرون الضحكة فيحسون بالأمان ويطمئنون، ويضحكون، ويستطيعون بعد ذلك أن يسترخوا. عندما يضحك الفرد تسترخي عضلات جسمه كلها بالفعل (والحق أن الضحك إذا تمكن منك فقد تضطر إلى أن تقبض بيدك على شيء ما حتى لا تسقط على الأرض). ويرى بعضهم أن ضحك الإنسان قد تطور بوصفه لتشكيل العلاقات

بين الناس وتوطيدها. كانت البسمة أولاً، ننقل بها إلى الآخر الرغبة في التواصل. ومع الزمن أصبح من السهل تزييف البسمات، وتطلب الأمر إشارة أكثر تعقيداً، فكان الضحك. الضحك يتطلب من الجهاز العصبي أكثر، ويحتاج إلى طاقة أكثر، وبذا سيصعب تزييفه. حلّ الضحك إذاً محل الابتسام كدلالة أمينة على الرغبة في الانخراط في صفوف الجماعة. على أن أشهر من حاول تفسير الضحك هو الفيلسوف الفرنسي هنري برجسون الذي بنى نظرية طريفة تقوم على أننا نضحك على الأشخاص ومنهم؛ لما أصابهم من تحول أخرجهم عن طبيعتهم العادية المألوفة لنا، إذ نراهم قد تصلبوا، وخرجوا عن عقولهم، وأصبحوا كأنهم آلات، فهم لا يتصرفون تصرف الإنسان الحر المختار، وإنما يتصرفون تصرف الآلات الصلبة التي لا تملك حرية ولا اختياراً؛ وبهذا يصبحون كأنهم لعب تحرّك بأسلاك سواء في أوضاع الجسم وحركاته أم في أوضاع الكلمات ومدلولاتها وارتباطها فيما بينها. والمجتمع يضحك من هذه اللعب لخروجها على منطقه، فضحكه قصاص عادل لها؛ لأنها شذت عنه، وتصرفت في القول أو في الوضع تصرفاً لا يألفه، فهو يؤدّبها بضحكه منها. فالضحك عقاب وقصاص وتأديب، ينتقم به المجتمع ممن يتطاولون على منطقه ومعقوله. وأياً ما كان السبب في الضحك فالناس يضحكون من دون أن يعرفوا لماذا يضحكون، وهو ضحك يريح أعصابهم، ويشرح صدورهم، ويقوّم أخلاقهم، ويشعرهم بشيء من الصلة فيما بينهم، ويجعلهم يحافظون على تقاليدهم وأوضاع مجتمعهم، ويربي فيهم ملكة النقد، ويوقظ فيهم التنبه لأخطائهم وأغلاطهم.

مراتب الضحك وأنواعه

هناك مراتب من الضحك وأنواع له، فقد جاء في «فقه اللغة وسر العربية» لأبي منصور الثعالبي، تحت عنوان: «في مراتب الضحك»، أن التبسم أولى مراتب الضحك، ثم الإهلاس، وهو إخفاؤه، ثم الافترار والانكلال، وهما الضحك الحسن، ثم الكتكتة أشد منها، ثم القهقهة، ثم الكركرة، ثم الاستغراب، ثم الطخطخة، وهي أن يقول: طيخ طيخ (يقصد يضحك المرء مصدراً أصواتاً من فمه وأنفه)، ثم الإهزاق والزهزقة، وهي أن يذهب الضحك به كل مذهب. وفي المقابل، رأى بعض الناس أن مراتب الضحك تراوح بين الضحكة الخافتة، وهي ضحكة هادئة تتم من خلال نغمات صوتية منخفضة، والضحكة نصف المكبوتة (التي تتكون عادة من سلسلة من الأصوات المتقطعة العالية المقام)، والقهقهة والدمدمة، وهما مجموعة من أصوات الضحك العالية الخشنة غير المصقولة. أما بالنسبة إلى أنواع الضحك، فقد أشار ماكنيل إلى وجود عدة أنواع من الضحك، نذكر منها: ضحك البهجة والمرح، والضحك العصبي، وضحك المحاكاة للآخرين، وعدوى الضحك أو الضحك المعدي، وضحك الدغدغة (أو ضحك اللمس)، والضحك المرضي (ضحك بعض حالات الفصام أو الصرع مثلاً)، وضحك الأطفال في أثناء اللعب.. إلخ. وقد رأى عباس محمود العقاد، في السياق ذاته، أننا نضحك لأسباب كثيرة، ولسنا نضحك لسبب فرد لا يتعدد، ويوشك أن يكون لكل حالة من الحالات ضحكتها التي تصدر عنها، ولا تصدر عن حالة غيرها، كأنما هي لغة كاملة على أسلوبها في التعبير. هناك ضحك السرور والرضا، وهناك ضحك السخرية والازدراء، وهناك ضحك المزاح والطرب، وهناك ضحك العجب والإعجاب، وهناك ضحك العطف والمودة، وهناك ضحك الشماتة والعداوة، وهناك ضحك المفاجأة والدهشة، وهناك ضحك المقرور (المصاب بالبرد)، وضحك المشنوج (المصاب بالشنج، وهو تقلص يعرض للعصب فيمنع الأعضاء من الانبساط)، وضحك السذاجة، وضحك البلاهة، وما يختاره الضاحك وما ينبعث منه على غير اضطرار. بل ربما كان لكل مضحكة من هذه المضحكات ألوان لا تتشابه في جميع الأحوال. فالضاحك المسرور قد يكون سروره زهواً بنفسه، واحتقاراً لغيره، وقد يكون سروره فرحاً بغيره، ولا زهو فيه بالنفس، ولا احتقار للآخرين. والضاحك الساخر قد يضحك من عيوب الناس؛ لأنه يبحث عن تلك العيوب، ويستريح إليها، ولا يتمنى خلاص أحد منها، وقد يضحك من تلك العيوب؛ لأنه يخرج عن عاطفة لا يستريح إليها عامة بين إخوانه الآدميين، ولا خاصة في أحد بعينه من أولئك الإخوان. والضاحك من عيوب السخف والحماقة قد يضحك من السخيف الأحمق، أو يضحك من الذي يحكيه في سخافته وحمقه، فيعرف كيف يحكيه، وكلاهما باعث من بواعث الضحك مخالف لغيره في أثره وداعيه ومعناه.

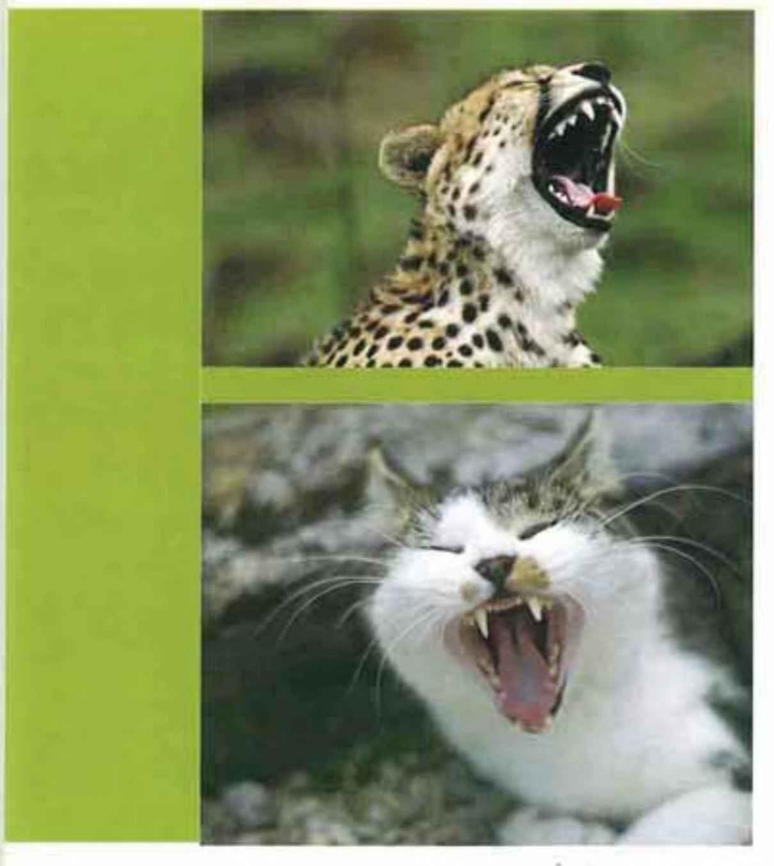
من يضحك أكثر؟

منذ زمن بعيد لوحظت الفروق بين الذكور والإناث في الضحك، فمثلاً في كتاب جوبير عن الضحك، الذي يعود إلى أكثر من أربعة

قرون، وصف جويير ضحك الإناث بأنه أكثر مباشرة من ضحك الذكور، لكن هذا الضحك الصريح من جانب الإناث قد يتم تشجيعه في بعض الثقافات، كالثقافة الغربية مثلاً، ولا يتم تشجيعه في بعض الثقافات الشرقية التقليدية، تلك الثقافات التي لا تشجع حتى على أن يظهر المرء أسنانه عندما يبتسم أو يضحك، كما لا يكون الضحك بصوت مرتفع مرغوباً فيه في صحبة الرجال. وقد وجد زثيفي أن النساء عموماً أكثر تذوقاً للفكاهة من الرجال، لكن هذا الأمر قد تحول إلى النقيض عندما كان الأمر يتعلق بإبداع الفكاهة، فالرجال أكثر إبداعاً للفكاهة من النساء. وأحد التفسيرات لهذه الفروق - كما يقول هيج - هو أن كثيراً من النكات تشتمل على مكونات عدوانية أو جنسية، وهي المكونات التي لا تشجع النساء عادةً في كثير من المجتمعات على التعبير عنها بشكل صريح، ومن ثم لا تكون إبداعاتهن لهذه النكات جاهزة أو مباشرة كما هو حال الرجال. أما إذا أردنا مقارنة الأطفال بالكبار فهناك خط فاصل واضح بين الواقع الفسيح؛ أي: عالم اليقظة الكبير، ومملكة المعنى الأخرى اللامحدودة (التي تشتمل على الأحلام وعوالم الخيال)، والتي يهرب الإنسان إليها بين الفينة والأخرى. أما لدى الطفل الصغير فتكون الخطوط المميزة أو الفاصلة بين هذين العالمين غير واضحة، بل تكون أكثر سيولة وتداخلاً، فيمتزج عالم الخيال والأحلام بالعالم الواقعي داخله، كما أنه يتحرك بحرية خارج عالم الواقع أيضاً، ولا يستطيع الطفل أن يميز بين المستويات المتنوعة للوجود، ومن ثم لا يمكنه في البداية أن يستخلص ذلك التناقض (في المعنى)، الذي يشكل البنية الأساسية للخبرة الفكاهية. أما عندما يصل الطفل إلى معرفة هذه المستويات أو معايشتها وإدراكها معاً، فهنا فقط تصبح الخبرة الفكاهية الحقيقية أمراً ممكناً. خلاصة القول: إن هناك نوعاً من الارتقاء التدريجي في سلوك الفكاهة والضحك لدى الأطفال. وهو ارتقاء يسير خطوة خطوة، ويبدأ من ظل الابتسامة العابرة، إلى الضحكة الأولى (البدائية)، إلى الابتسامة المقصودة أو حتى المرتبطة بالارتباك والخجل، ثم إلى الضحك المرح.

هل تضحك الحيوانات أيضاً؟

على الرغم من أن بعض الباحثين يشدد على أن الضحك خاصية إنسانية بامتياز، بل إن هناك من يذهب بعيداً، كالكاتب



حتى الحيوانات تضحك أيضاً!

الفرنسي رابليه الذي يؤكد «أن الضحك هو الخاصية المميزة للإنسان»؛ إلا أن هناك من يذهب إلى أن الحيوانات تضحك أيضاً، مع ملاحظة أن ثمة فروقاً واختلافات في طريقة ضحكها عن ضحك الإنسان. فقد لاحظ أحد العلماء أن الجرذان تبدو خائفة قلقة إذا كانت منفردة في مكان مفتوح، فإذا عادت إلى القفص مع غيرها من الجرذان بدت بالفعل سعيدة، بدت وهي تلعب مع أقرانها كأنها تضحك. كما لاحظ العالم أن صغار الجرذان تصدر في أثناء اللعب تعبيرات صوتية قصيرة من طبقة صوت أعلى من أن نسمعها نحن بآذاننا. وفي تجربة أخرى أجريت عام ٢٠٠٠م اتضح أنها تستجيب للدغدغة (في البطن والضلوع) بعضة مزاح أو بسقسقة فوق سمعنا. كانت الأفراد التي تصدر أعلى سقسقة هي الأكثر حرصاً على أن تدغدغ. أما النتيجة الأكثر إثارة فكانت أن تزاوج الأفراد التي تحب الدغدغة قد أنتج بعد أربعة أجيال من التربية نسلاً يسقسق ضعف عدد مرات سقسقة أجداده!. فإذا

نظرنا إلى الرئيسات الأقرب إلينا فسنتأكد أن الضحك ليس أمراً يخص الإنسان وحده. هذا رأي بعض العلماء وأصحاب النظريات. فقد قارن تشارلز داروين بين الأصوات المتكررة، التي تنطقها القردة العليا عندما تتم دغدغتها، وضحك الإنسان، وقال بوجود تشابه بينهما. ولاحظ علماء آخرون تلك الحركات التي أطلق عليها اسم الوجه اللاعب أو اللاهي لدى هذه القردة، حيث تتكرر عملية خفض جفني العين إلى أسفل، وفتح الفم إلى أقصى اتساع له، فتنكشف كل الأسنان، أو على الأقل الأسنان العليا، وعدّوا ذلك نشاطاً شبيهاً بالابتسام لدى الإنسان. لكن الاقتصار على دراسة حركات الوجه والشفتين، وانكشاف الأسنان، والأصوات الناتجة لا يكفي للدلالة - في ذاته - على وجود تشابه بين نشاط الفكاهة والضحك لدى الإنسان ومثله لدى الحيوان.

إن المسألة أعمق من ذلك بكثير، فعندما قارن روبرت بروفين بين ضحك الإنسان وضحك قردة الشمبانزي وجد اختلافاً واضحاً بينهما: فالضحك الإنساني - مثله مثل كلام الإنسان - يجري إنتاجه على نحو استثناء خلال عملية تنفس يتحرك للخارج (زفير)، حيث يجري إنتاج النغمات الصوتية المتقطعة (ها.. ها) من خلال زفرة واحدة قصيرة مفاجئة تعقبها زفرة أخرى، وهكذا. أما ضحك الشمبانزي فإنه - على العكس من ذلك - يماثل اللهاث، مع وجود خاص لمقطع صوتي واحد يجري إنتاجه خلال كل عملية زفير أو شهيق. خلاصة الأمر أن هناك فارقاً كبيراً بين ضحك الإنسان وضحك الحيوان، وبذا لا يمكن المقارنة بين الإنسان والحيوان من حيث أيهما أكثر ضحكاً.

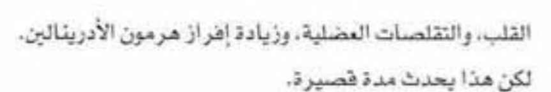
وظائف الضحك وفوائده

للضحك فوائد أكثر من أن نتجاهلها. وفي هذا الإطار، ثمة من يعتقد أن السبب الذي دفع الإغريق إلى بناء المستشفيات قرب المسارح هو الاستفادة من الخصائص العلاجية للضحك. يمكنك أن تغير حياتك إلى الأفضل إذا تعلمت أن تضحك أكثر، وألا تأخذ الحياة بكل هذه الجدّية: «لأنك أبداً لن تخرج منها حياً» كما يقولون. إن الحس الفكاهي يمكن أن يضيف لمسة إنسانية إلى حياتك وعملك. إننا لا نضحك لأننا سعداء، إنما نسعد لأننا نضحك. الضحك يغير إحساسك بذاتك، بكيانك، بعائلتك، بأصدقائك، بالعالم كله. إن تذوق الفكاهة يتضمن القدرة على اكتشافها حتى في المواقف الحرجة والمتوترة، بل في المواقف التراجيدية، كما يتضمن القدرة على اكتشاف الظرفاء.

والحال أن للضحك وظيفة نفسية جوهرية تتمثل في تخفيف أعباء الواقع، وترطيب جدية الحياة، وإراحة النفس من كثافة المشكلات اليومية، وإطلاق الذات من أسر التفكير العميق الجاد؛ لأنه - على حد تعبير شارلا لو - «إذا كانت الحياة هي الفردوس فإن الضحك هو الفردوس المستعاد». وربما كانت هذه هي الفكرة المحورية الذي أدار عليها سيجموند فرويد نظريته في سيكولوجية الضحك، فعند الطبيب النفسي الشهير في بحث له عن الضحك أنه نوع من الفعل الإرادي الذي يلجأ إليه الإنسان ليتحرر من جدية الواقع، ويعفي نفسه من أعباء الحياة، ويتخلص من رباط العنق الاجتماعي الذي يلازمه طوال اليوم، وهذا معناه أن الفكاهة نوع من أنواع الصحة النفسية، تساعد على الهروب من عناء الواقع والاستمتاع بلذة الحياة. وعلى هذا الأساس ذهب فرويد إلى تقسيم الضحك إلى ثلاثة أنواع: النكتة، والهزل، والدعابة، كما ذهب في تفسيرها إلى القول بالقصد والغاية في القوة النفسية: فالنكتة فيها قصد وغاية على مستوى العاطفة، وفي الهزل قصد وغاية على مستوى الفكر، أما الدعابة فالقصد فيها والغاية على مستوى الإحساس. على أن هذه الأنواع جميعاً لا يقصد إليها الإنسان إلا بعد الطفولة، وهي السن أو المرحلة التي لا تعرف المفارقات المضحكة، ولا تقدر على تفكيك النكتة أو التفكير فيها، ولا تحتاج إلى الدعابة لتشعر بالسعادة. إلى ذلك، هناك فوائد جسمية واجتماعية للضحك. فأما الفوائد الجسمية فيتمثل أبرزها في الآتي:

- تعمل الفكاهة والضحك على زيادة حالة الاستثارة والنشاط في المخ والجهاز العصبي للإنسان.
- يعمل الضحك على حدوث زيادة في ضغط الدم، وضربات

الفكاهة هي أداة خاصة للبراعة واللباقة الاجتماعية، إذ يمكن من خلالها تلطيف غضب الآخرين وهجومهم السلبي، وتحويله إلى حالة إيجابية

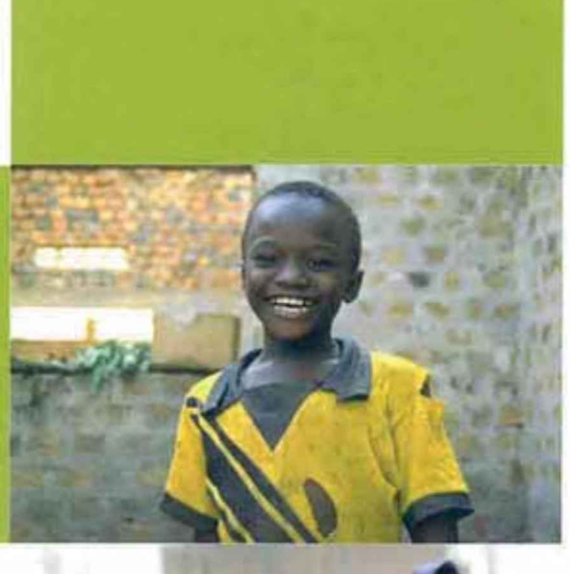


القلب، والتقلصات العضلية، وزيادة إفراز هرمون الأدرينالين. لكن هذا يحدث مدة قصيرة.

- سرعان ما ينخفض ضغط الدم وضربات القلب، ويعقب ذلك استرخاء عضلي، وشعور بحسن الحال.
- يعمل الضحك على تعزيز الجهاز المناعي لدى الإنسان وتقويته.
- يعمل الضحك على تنبيه أو نشاط زائد في عضلات الوجه، والحلق، والفك، والحجاب الحاجز، والصدر، والبطن، والعنق، والظهر، وأحياناً الأطراف.
- يعمل الضحك على تزويد الدم بالأكسجين، والحفاظ على مستوى ضغط الدم متوزاناً أو مستقراً، وينشط الدورة الدموية، والتوتر في الأعضاء الحيوية في الجسم، والمساعدة على الهضم، وإراحة الجهاز الكلي لجسم الإنسان.

وأما الفوائد الاجتماعية للضحك فيتمثل أهمها فيما يأتي:

- يقوي الضحك التعاون الاجتماعي، وييسّر التفاعل بين الأفراد والجماعات، ويرفع من مستوى الدافعيه للعمل والنشاط والإنجاز.
- الفكاهة تنشط العقل والخيال والإبداع، وتتطلب الاستبصار والحس الاجتماعي، وتمي شعوراً خاصاً بالقيم الخاصة بالجمهور، وينبغي أن تقوم الدعابة والضحك على أساس فهم اجتماعي خاص لمطالب الآخرين ومشاعرهم.
- الفكاهة هي أداة خاصة للبراعة واللباقة الاجتماعية، إذ يمكن من خلالها تلطيف غضب الآخرين وهجومهم السلبي، وتحويله إلى حالة إيجابية ونوع جديد من العلاقة المشتركة.
- يكافئنا الضحك لمجرد -وجودنا معاً-، فنحن نضحك أكثر في قاعات المسارح أو السينما مع أناس لا نعرفهم أكثر مما نضحك عندما نوجد في قاعة خالية من البشر.
- تستخدم الفكاهة الآن في السياسة، إذ يستأجر مرشحو الرئاسة في أمريكا الآن - كما يشير ماكنيل - بعض كتّاب الفكاهة لجعل أنفسهم أكثر قرباً إلى الناس من خلال الدعابات والفكاهات التي يلقونها أحياناً.
- الفكاهة والضحك يقاومان الاكتئاب والقلق والغضب الشديد، ويساعدان على المواجهة والمقاومة والوقاية من الأمراض النفسية، واضطربات الشخصية، والأزمات الاجتماعية.





الضحك يعزز الجهاز المناعي

أمراض الضحك

هناك بعض جوانب التشابه الظاهرية بين حالة الضحك وبعض المظاهر السلوكية والوجدانية المرتبطة ببعض الأمراض العقلية والنفسية والعصبية، كما أن الضحك قد يكون حاضراً في بعض هذه الأمراض على نحو واضح وخاص، وقد يكون حاضراً أيضاً في بعض الاضطرابات السلوكية والاجتماعية والعضوية. فعلى سبيل المثال، قد يرتبط الضحك بظاهرة العدوان، فقد أشارت تقارير حديثة إلى أن العنف الجماهيري والمجازر والمذابح التي تحدث عبر العالم يصاحبها أحياناً الضحك، فخلال عام ١٩٩٩م رصد كثير من المراقبين حدوث ظاهرة الضحك (غير السوي) في إندونيسيا وكوسوفا، وكذلك خلال المذبحة التي حدثت في ليتلتون في ولاية كولورادو الأمريكية، فوفقاً لما قاله أحد الشهود الناجين من المذبحة، فإن القاتلين كانا يضحكان

الفكاهة تنشط العقل والخيال والإبداع، وتتطلب الاستبصار والحس الاجتماعي



ضحك يتحدى حتى الحرب!

ويصرخان في ابتهاج حينما كانا يقومان بالقتل. كما أن الضحك قد يرتبط - بشكل أو آخر- ببعض أمراض المخ. فقد أظهرت دراسات كثيرة أن اضطرابات الحالة الانفعالية أو المزاجية للناس هي من أبرز أعراض الذهان، وفي دراسة لـ (كتنج) أجراها عام ١٩٨٠م وجد أن اضطراب المزاج كان موجوداً لدى ٨٥٪ من أفراد عينة دراسته. وكان ٣٤٪ من هذه النسبة مصابين بالاكتئاب، و١٨٪ من العدوانيين، و ١٦٪ في حالة شعور بالبهجة العامة. وهكذا. كذلك قدمت الدراسات التي أجريت على مرض باركنسون أو الشلل الرعاش بعض الأدلة على قيام بعض مناطق المخ. وكذلك الموصلات العصبية الخاصة فيه. بتنظيم الحالة المزاجية للأفراد. فخلال هذا المرض تحدث ارتجاجات او رعشات وتصلب وتباطؤ في الحركة مصحوب بوجود تفكك أو انحلال فيما يسمى العقد القاعدية في المخ. كذلك لوحظت بعض الأعراض المرضية الأخرى لدى المصابين بهذا المرض. منها ان نحو ٩٠٪ من المصابين به تحدث لهم حالات اكتئاب. كما لوحظ أيضاً أنه إضافة إلى العجز الجسمي الواضح فإن الانخفاض الذي يحدث في الموصلات العصبية في أجزاء معينة في مخ المريض قد يكون مسؤولاً عن تلك التحولات العميقة التي تحدث لديه في حالته المزاجية. وقد أظهرت بعض الدراسات العلاجية أن أعراضاً سلوكية، مثل الانسحاب الاجتماعي والاكتئاب، كانت تتغير إلى عكسها على نحو مؤقت بعد إعطاء المريض دواء يتكون أساساً من مادة شبيهة بمادة الدوبامين التي يفرزها المخ، فبعض المرضى يصبحون بعد تناول هذا الدواء أكثر حيوية وسعادة واستمتاعاً بالفكاهة، لكن بعضهم الآخر يصبح أكثر هياجاً واندفاعاً من الناحية الحركية إلى الدرجة التي يجب عندها - بالفعل - إيقاف تعاطي هذا الدواء. في ضوء ذلك كله يفترض أن النشاط المفرط للموصلات العصبية المرتبطة بالدوبامين هو ما يحدث أيضاً في حالات الهوس، التي يحدث فيها شعور شديد بالابتهاج من دون مسوغ واقعي. وإضافة إلى الدوبامين افترض أيضاً أن النقص أو الاستنزاف لمادة السيروتونين، وهي المادة التي تعمل على تيسير الاتصال بين الخلايا العصبية، والتي يزداد نشاطها عندما تتلقى خبراً ساراً، قد يكون مسؤولاً عن ذلك الاضطراب الوجداني الذي يحدث في مرض باركنسون. ويرتبط الضحك أيضاً بفقدان القدرة العضلية المفاجئ، وهو نوبة مفاجئة من الضعف العضلي

يحدثها الضحك أحياناً، وأحياناً يحدثها الغضب، أو غيرهما من أشكال الاستثارة الانفعالية أو الأفعال. خلال هذه النوبة قد ينهار المرء فيتحول إلى كومة من العضلات المنهكة، وهي حالة معاكسة تماماً لما كان عليه إبان وقوفه أو جلوسه، وتستغرق هذه النوبة مدة تراوح بين ثوانٍ قليلة و٣٠ دقيقة، ويكون المريض، الذي تحدث له مثل هذه النوبات، منتبهاً وواعياً بما يحدث له أو حوله، لكنه يكون كذلك عاجزاً عن الحركة الإرادية المناسبة، خصوصاً خلال الدقيقة الأولى من النوبة، وأحياناً خلال النوبة كلها. ويقال: إن مثل هذه النوبة تحدث لدى نحو ٧٠-٨٠٪ من المرضى الذين يعانون النعاس المفاجئ، وعددهم ٢٥٠ ألفاً في أمريكا، وهو أيضاً بمنزلة حال من النوم المرضي المفاجئ الذي يحدث في أثناء النهار، وهو من بين اضطرابات النوم وأمراضه، ويسبب حدوث الفقدان المفاجئ لإرادة القدرة العضلية. والواقع أن هذه حال مثيرة للاهتمام يتحول



الإنسان خلالها إلى شخص ضعيف من خلال الضحك، في حين أن المنطق يجعلنا نسعى من أجل جعله قوياً بالضحك.

والضحك أحياناً يكون حالة مرضية في حد ذاته، ومن ذلك ما بات معروفاً بـ«عدوى الضحك». ففي عام ١٩٦٢م حدثت في تنجانيقا (المعروفة الآن باسم تنزانيا) واقعة غريبة جداً. بدأت الحكاية في قرية كاشاشا الصغيرة المعزولة على الشاطئ الغربي لبحيرة فكتوريا كنوبة ضحك اجتاحت مجموعة صغيرة من البنات بمدرسة داخلية، أعمارهن تراوح بين ١٢ و١٨ سنة، ثم انتشرت بسرعة في صورة وباء، التفاصيل غير معروفة، لكن الضحك انتقل من فرد إلى فرد ليصيب في نهاية المطاف بعض المجتمعات المجاورة. عمّ الوباء، حتى لقد تطلب الأمر إغلاق المدارس مدة ستة أشهر.

كان الحجز الصحي الإجباري للفتيات المصابات بالضحك هو الوسيلة الوحيدة للتحكم في الوباء، وبعد استبعاد وجود تسمم غذائي أو دوائي، أو التهابات في الدماغ، قيل: إن السبب سيكولوجي يتمثل في وجود حالة هستيرية حادة أدت إلى انتشار هذه العدوى في تلك المدارس والقرى، ولم توضح أسباب ظهور هذه الهستيرية في ذلك الوقت خاصة، أو في هذا المكان تحديداً.

لكن ملاحظة طبيعة النمط الذي انتشرت به هذه الظاهرة أدت إلى الاقتراب من تفسيرها، فقد كان أول من أصيب بهذه النوبات الفتيات المراهقات في مدارس دينية مسيحية، ثم انتشرت بعد ذلك إلى أمهاتهن وقريباتهن من الإناث، ولم يصب الآباء بها قط، ولم يصب أي شخص من وجهاء القرية أو كبارها، ولا رجال الشرطة فيها، ولا المدرسون، ولا أي شخص كان مرتفعاً في تعليمه أو ثقافته، ومن ثم تأكدت فكرة العدوى الهستيرية.

وليس ببعيد عن هذه الحالة المرضية ما أورده أحمد مستجير حول دور الضحك في قدح زناد أزمات الربو في الأطفال بأكثر مما ينجم عن الدُّخان smog أو الرياضة. ويشير مستجير، في هذا السياق، إلى أنه في بحث ظهر عام ٢٠٠٢م حللت فيه حالات كل من وصل قسم الطوارئ من الأطفال خلال ستة أشهر، في أحد مستشفيات نيوساوث ويلز، اتضح أن الثلث منهم كانوا يعانون من «ربو المرح»، وظهر أن هذا الربو يشيع بين الأطفال الكبار، وبين من تتكشف فيهم أعراض الربو في أثناء الليل أو في الصباح الباكر. لم يُعرف بالضبط السبب في هذا، لكن يبدو أن الأمر يرجع إلى التنبيه الفيزيقي لمستقبلات بالمسالك الهوائية.

الضحك في الإسلام

لا خلاف في إباحة الإسلام للضحك، وقد وردت في النصوص الشرعية ألفاظ ومعانٍ ودلالات على الضحك في التبسم، والسرور، والبشر، فمن ذلك قولة تعالى: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا﴾ (النمل: ١٩)، وقولة تعالى: ﴿فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ﴾ (هود: ٧١) . وقد جاء في الأثر أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يتفكه، وكان قليل الضحك، وإذا ضحك وضع يده على فيه، وإذا تكلم تبسّم، وإذا مزح غض بصره، وكان فيه دعابة قليلة. ويروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: «أنا أمزح ولا أقول إلا صدقاً». وروي عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه أنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «لا تحقرن من المعروف شيئاً ولو أنك تلقى أخاك بوجه حسن»، و«تبسمك في وجه أخيك صدقة». وروي عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أنه قال: مزح صلى الله عليه وسلم فصار المزح سنة، وكان يمزح فلا يقول إلا حقاً. وروي عن جابر بن عبد الله - رضي الله عنه- أن رجلاً جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو يخطب، فقال: يا رسول الله، رأيت فيما يرى النائم البارحة كأن عنقي ضربت، فسقط رأسي، فاتبعته، ثم أعدته مكانه، فضحك النبي صلى الله عليه وسلم وقال: «إذا لعب الشيطان بأحدكم في منامه فلا يحدّث به الناس». كما روي عن عمر - رضي الله عنه-: ضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان من أحسن الناس ثغراً. وكذلك ما روي عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال: كان رسول صلى الله عليه وسلم من أحسن الناس خلقاً، أرسلني يوماً لحاجة، فخرجت حتى أمر على صبيان يلعبون في السوق، فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم قابض بقفاي من ورائي، فنظرت إليه وهو يضحك، وقال: «يا أنيس، اذهب حيث أمرتك».

لا خلاف في إباحة الإسلام للضحك، وقد وردت في النصوص الشرعية ألفاظ ومعانٍ ودلالات على الضحك في التبسم، والسرور، والبشر

من هنا لم يكن غريباً أن يقول علي بن أبي طالب - رضي الله عنه -: روحوا القلوب، اطلبوا لها أطراف الحكمة؛ فإنها تمل كما تمل الأبدان. وقال عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - ذات مرة: لأكلمنّ رسول الله لعله يضحك.

ومع هذا ثمة ضوابط شرعية للضحك، مثل: التوسط في الضحك، فلا يكون الإنسان في شتى أموره هازلاً، يعيش بقلب أماتته كثرة الضحك، ويفتقد هيبته أمام أقرانه وذويه، قال رسول صلى الله عليه وسلم: «أقلّ الضحك؛ فإن كثرة الضحك تميت القلب»، بل يتوسط الإنسان؛ لذا فإن النبي صلى الله عليه وسلم لم ينْهَ عن الضحك، بل عن كثرته. وألا يكون سبب الضحك الاستهزاء بأمور الشرع، وألا يكون الضحك مبعثه السخرية، وتحقير المسلم، أو الاستهزاء بالناس.

وقد لخص أبو حامد الغزالي (ت ٥٠٥هـ) في (إحياء علوم الدين) وجهة النظر الإسلامية في هذا الشأن حين قال: «وأما المزاح فمطايبة، فيه انبساط، وطيب قلب، فلم ينْهَ عنه، فاعلم أن المنهي عنه الإفراط أو المداومة. أما المداومة فلأنه اشتغال باللعب، والهزل فيه، واللعب مباح، ولكن المداومة عليه مذمومة. أما الإفراط فيه فإنه يورث كثرة الضحك، وكثرة الضحك تميت القلب، وتورث الضغينة في بعض الأحوال، وتسقط المهابة والوقار». ويقول كذلك: «إن قدرت على ما قدر عليه رسول الله وأصحابه، وهو أن تمزح ولا تقول إلا حقاً، ولا تؤذي قلباً، ولا تفرط فيه، فلا حرج عليك فيه».

وهكذا تم الانتباه لفوائد المزاح والضحك والترويح في تنشيط الحواس والعقل والجسد، فتستطيع هذه الحواس أن تنتبه، وتعي الذكر، وتواصل العبادة، ويستطيع هذا العقل أن يتجلى ويشحذ، فيفهم ويدرك ويفكر، ويستطيع هذا الجسد أن يستريح فيواصل عمله وكده ونشاطه بحماسة أكبر، وإقبال ملحوظ. أما الجهامة والجدية المبالغ فيهما فتورثان الكآبة والفتور والسأمة والملل، والعزوف عن العمل والتفكير، بل ربما العبادة؛ «فالقلوب إذا كلّت عميت». هكذا يكون خير الأمور الوسط، وتكون الحياة في أحسن حالاتها جامعةً بين الجد والمزاح، وبين التأمل الصامت والضحك.

إدانة الضحك

في سياق التاريخ، شكل الضحك مادة لتأملات نظرية وعقلية كثيرة، وفي العصر الوسيط، عُدّ رهاناً لاهوتياً مهماً، ولا شك في أن إدانة الكنيسة له كانت بسبب صلته الخطيرة بالجسد. ومن وجهة نظر أخرى، شكّلت هذه الفكرة طرف الخيط الذي قاد إلى رواية الكاتب أمبرتو إيكو الشهيرة «اسم الوردة»، التي تدور حبكتها في دير أوربي يعود إلى العصر الوسيط، ويعبّر فيها رجل الدين الجليل جورج دوبورغو - عدو الضحك اللدود - عن رأيه فيه بقوله: «إن الضحك يهز الجسد، ويشوّه قسمات الوجه، وهو يجعل الإنسان أشبه بالقرد».

لكن بطل الرواية غيوم دوبا سكر لإيل يرد على هذا الرأي بالقول: «القرود لا تضحك؛ فالضحك صفة خاصة بالإنسان وحده من دون سواه من المخلوقات، وهو قرد عقلانيته». وهو بذلك يبتعد عن وجهة النظر اللاهوتية التي تدين الجسد والعالم المادي بوصفهما مصدراً للخطايا.

الضحك في عالم بائس

لا يخلو مجتمع من المجتمعات الإنسانية من الأزمات والهموم حتى لو كان مستقراً من الناحية المادية، فهناك مشكلات مختلفة وكثيرة قد تعكر صفو هذا الاستقرار، لعل أبرزها كثرة الضيق والاكتئاب وعدم الاستقرار النفسي. وتتجسد هذه الظاهرة بشكل خاص في بعض المجتمعات الصناعية المتقدمة كالسويد مثلاً، فقد رصدت عدة حالات لأناس انتحروا بسبب ضيقهم ومللهم من الحياة، على الرغم مما وفرته حكومتهم من خدمات الضمان الاجتماعي بأشكالها كافة. فما بالنا بمجتمعات لم تحصل حتى على أبسط حقوقها في ضمان الاستقرار المعيشي، فضلاً عن تفشي الأمراض والأوبئة، وانتشار الأمية والجهل، خصوصاً في بلدان العالم الثالث، فهناك تفشٍّ للبطالة، بالإضافة إلى كثرة المشكلات الأسرية والأزمات الأجتماعية التي تؤدي دوراً كبيراً في ظهور الشقاء والبؤس وانتشارهما، لدرجة تصل إلى أن بعض الأسر قد تبيع أطفالها نتيجة للوضع المتردي الذي تعيش فيه. وهنا يحق لنا أن نسأل: هل سيخلق الضحك يا تُرى مناخاً ملائماً للتفريج عما في نفوس الناس من إحباطات؟

قد يضحك الإنسان في مثل هذه المواقف عوضاً عن البكاء والحزن من منطلق عدم جدوى الحزن والبكاء؛ لأن ذلك لن يزيده إلا شقاءً وبؤساً وحزناً حتى تنهار قواه. ولكن الضحك سيساعده - بلا ريب - على الصبر والجلد، ويبعث فيه روح التفاؤل والأمل من جديد، فيرتاح نفسياً، وتقوى عزيمته، ويكتشف طرقاً أخرى





للاستقرار في هذا العالم البائس.

إن الضحك يضعف مبدأ الاستسلام للظروف القاسية، ويخلق في نفس البائس روحاً جديدة تساعده على اكتشاف أساليب جديدة في التفكير والعمل بما يتناسب مع الظروف المتقلبة التي يعيشها.

وأخيراً..

ذات يوم ركب أحد السائحين مركباً في وسط البحر مع أحد البحارة، وأخذ ذلك السائح يسأل البحار متغطرساً عن معلوماته ومدى ثقافته، ويقول له: هل تعلم عن الفلسفة شيئاً؟ فيقول له البحار: لا، فيرد السائح: إذاً، ضاع نصف عمرك، ثم يعود ويسأله: هل تعرف شيئاً عن علم الفضاء؟ فيرد البحار: لا، فيقول السائح: إذاً، ضاع نصف عمرك، ثم عاد وسأله مرة أخرى: ماذا تعرف عن العولمة؟ فقال له البحار: لا أعرف شيئاً، فرد السائح: إذاً، ضاع نصف عمرك، وظل يسأله ويستعرض معلوماته أمام البحار البسيط حتى اقتربا من نهاية الرحلة.

وقبل أن يصلا إلى الشاطئ حدث أن هاج البحر فجأة، ولم يتمكن البحار من التحكم في المركب، فملأته المياة وأصبح على وشك الغرق، فسأل البحار السائح وقال له: هل تعلم كيف تسبح؟ فقال له: لا، فقال البحار: إذاً، فقدت عمرك كله.

المراجع

- أحمد مستجير، علم اسمه الضحك، وجهات نظر، العدد ٧٥، إبريل ٢٠٠٥م.
- أديب محمد الأشقر، الضحك: هل نأخذه على محمل الجد؟، العربي، العدد ٥١١، يونيو ٢٠٠١م.
- بركات محمد مراد، الفكاهة والضحك والترويح عن النفس في التراث العربي الإسلامي، الفيصل، العدد ٣٤٢، يناير - فبراير ٢٠٠٥م.
- جلال العشري، الضحك فلسفة وفن، القاهرة، دار المعارف، ١٩٧٩م.
- شاكر عبدالحميد، الفكاهة والضحك: رؤية جديدة، سلسلة عالم المعرفة، العدد ٢٨٩، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، يناير ٢٠٠٣م.
- شوقي ضيف، الفكاهة في مصر، سلسلة اقرأ، العدد ٥١١، القاهرة، دار المعارف، مايو ١٩٨٥م.
- عباس محمود العقاد، جحا الضاحك المضحك، بيروت - صيدا، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، د.ت.
- نبيل راغب، موسوعة الإبداع الأدبي، بيروت، مكتبة لبنان ناشرون، ١٩٩٦م.
- هنري برجسون، الضحك: البحث في دلالة المضحك، ترجمة: سامي الدروبي وعبدالله عبدالدايم، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٧م.
- مجلة الجزيرة، العدد ١٢٥، ٣ مايو ٢٠٠٥م.



كانت الرحلة من هولندا إلى بلجيكا بالقطار ممتعة: فالمناظر الطبيعية على امتداد الطريق تبهج النفس. وهدوء الناس على الرغم من كثرة الركاب يبثّ الطمأنينة، ويمنح حيزاً للخيال ليسرح في ملكوت الله. وكان الوقت اليسير الذي قرّرت أنا وزميلا الرحلة قضاءه في بروكسل معضلة كبيرة. فكيف لنا في وقت قصير أن نهتدي إلى ما نريد من معالم سياحية تشعرنا بأننا زرنا هذا البلد الذي يمثل رقماً في أوربا المعاصرة.

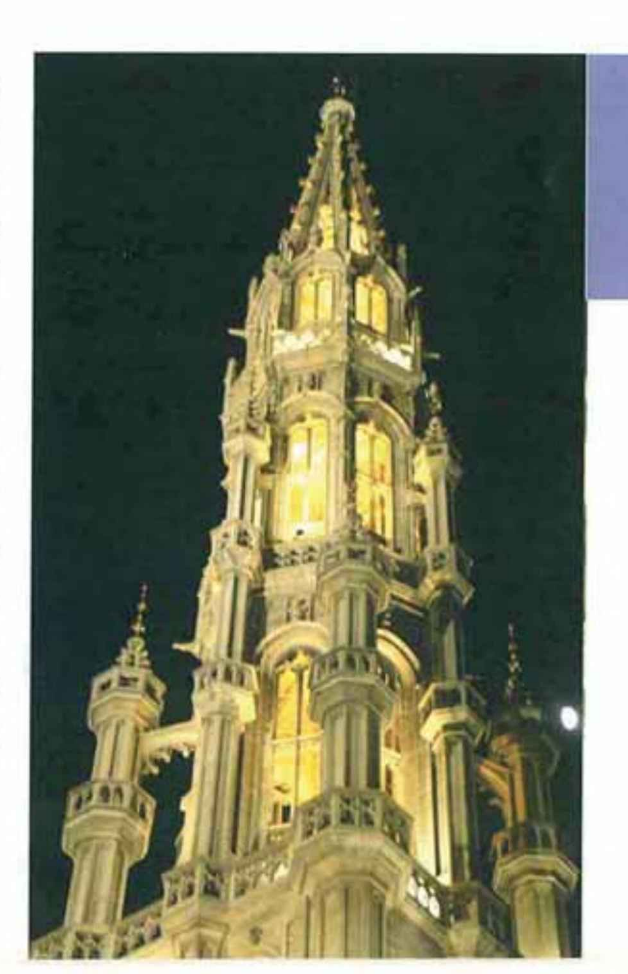


بروكسل

الساحة الأسطورية ولغز الطفل الصغير!

حسين حسن حسين

قسم التحرير

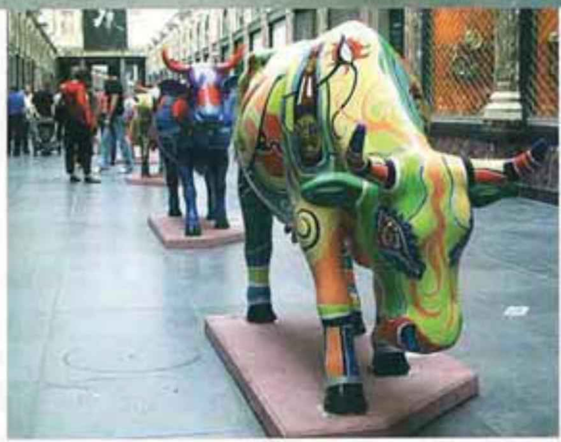


ولكن تبدد هذا الهاجس بأن استقبلتنا فتاة بلجيكية متطوعة لتسألنا عن وجهتنا، فشرحنا لها ما نريد، فما كان منها إلا أن رافقتنا بالمترو إلى ساحة القصر الكبير؛ لتكون من هناك انطلاقتنا، فشكرنا لها مبادرتها، لتنطلق إلى حال سبيلها بعد أن تركت في النفوس انطباعاً طيباً عن بلدها، وتركت لي مهمة أن أعرّف به، فماذا يمكن أن يُقال عن بلجيكا وعاصمتها بروكسل؟

ذاكرة التاريخ

تقع بلجيكا في غرب أوربا، ويحدّها كل من ألمانيا ولوكسمبورج من الشرق، وفرنسا من الجنوب والجنوب الغربي، وبحر الشمال من الشمال الغربي، وهولندا من الشمال. وبروكسل العاصمة تعدّ أيضاً عاصمة غير رسمية للاتحاد الأوربي؛ لوجود عدد كبير من مقارّ منظماته فيها؛ مثل: اللجنة الأوربية، ومجلس الاتحاد الأوربي (مجلس الوزراء)، واللجنة الاجتماعية والاقتصادية الأوربية، والبرلمان الأوربي، واتحاد البنلوكس، وهو الاتحاد الاقتصادي الذي يضم إلى جانب بلجيكا كلاً من هولندا ولوكسمبورج، كما أنها مقر حلف شمال الأطلسي (الناتو).

الرواق الزجاجي



لبلجيكا تاريخ تليد، فيُقال: إنها في عام ٥٧ قبل الميلاد سيطر عليها الإمبراطور الروماني يوليوس قيصر بعد أن هزم شعبها (البيلاج)، وهو من قبائل (السلت)، وأطلق عليها الرومان اسم (جاليا بلجيكا)؛ لتصبح جزءاً من (غول). ثم سيطر عليها (الفرانكس)، وهي قبيلة ألمانية. وكانت بلجيكا في القرون الوسطى من أهم مراكز التبادل التجاري في أوربا؛ لتميّز موقعها، ووجود حدود مشتركة بينها وبين عدد من أهم الدول الأوربية سلطةً ونفوذاً وقدرةً اقتصاديةً.

وجاء نابليون ليفرض سيطرته على أوربا، وكانت بلجيكا جزءاً من إمبراطوريته الشاسعة. ثم انتقلت السلطة إلى المملكة الهولندية التي تشكّلت عقب مؤتمر فيينا في عام ١٨١٥م، الذي فرضت فيه الدول المنتصرة على نابليون إرادتها. وكانت بلجيكا ولوكسمبورج تمثّلان القسم الجنوبي من هذه المملكة، بينما كانت هولندا تمثل القسم الشمالي، وهو القسم الغنيّ والمتحكم. وقد قامت ثورة في بلجيكا في عام ١٨٣٠م ضد المملكة؛ بسبب الإحساس بالظلم والتهميش، إلى جانب أبعاد دينية مذهبية ولغوية. فكان الشعب البلجيكي كاثوليكياً، بينما يدين الملك بالبروتستانتية. كما أن الفروق اللغوية تمثلت في انقسام ذلك إلى مجموعة الفلامند الناطقة بالهولندية، بينما يتحدث (الوالون) الفرنسية، مع إحساس بتعالٍ هولندي. وقد انقلب الوضع عقب هذه الثورة، ونيل بلجيكا استقلالها، واعتراف دول أوربا بهذا الاستقلال في ٢٠ ديسمبر/ كانون الأول؛ لتصبح هناك سيطرة فرنسية، إلى حدّ إقصاء اللغة الهولندية من التعليم.

تلمح في بلجيكا بوضوح وجوها عربية، كما يوجد بها أحد أضخم المراكز الإسلامية في أوروبا

وضمت بلجيكا أقلية ألمانية بعد هزيمة ألمانيا في الحرب العالمية الأولى التي انتهت في عام ١٩١٨م، ويبلغ عدد سكانها نحو ١١ مليون نسمة. وكان الألمان قد احتلوها في هذه الحرب، وبقيت تحت سيطرتهم حتى عام ١٩١٨م. ثم عادوا إلى احتلالها في بداية الحرب العالمية الثانية حتى هزيمتهم وانسحابهم في عام ١٩٤٤م.

وتزدهر في بلجيكا الصناعة، خصوصاً صناعة الحديد والزجاج والزنك والكيماويات. وتتركز الزراعة في السهل الأوسط حيث أغنى أراضي بلجيكا الزراعية، وفي سهل الفلندر، وفي هضبة الأردن.

المسلمون في بلجيكا

مع دخول القطار إلى الأراضي البلجيكية تلمح بوضوح وجوهاً عربية في محطات القطار، وفي الشوارع. والملاحظ التزام



سوق الأحد

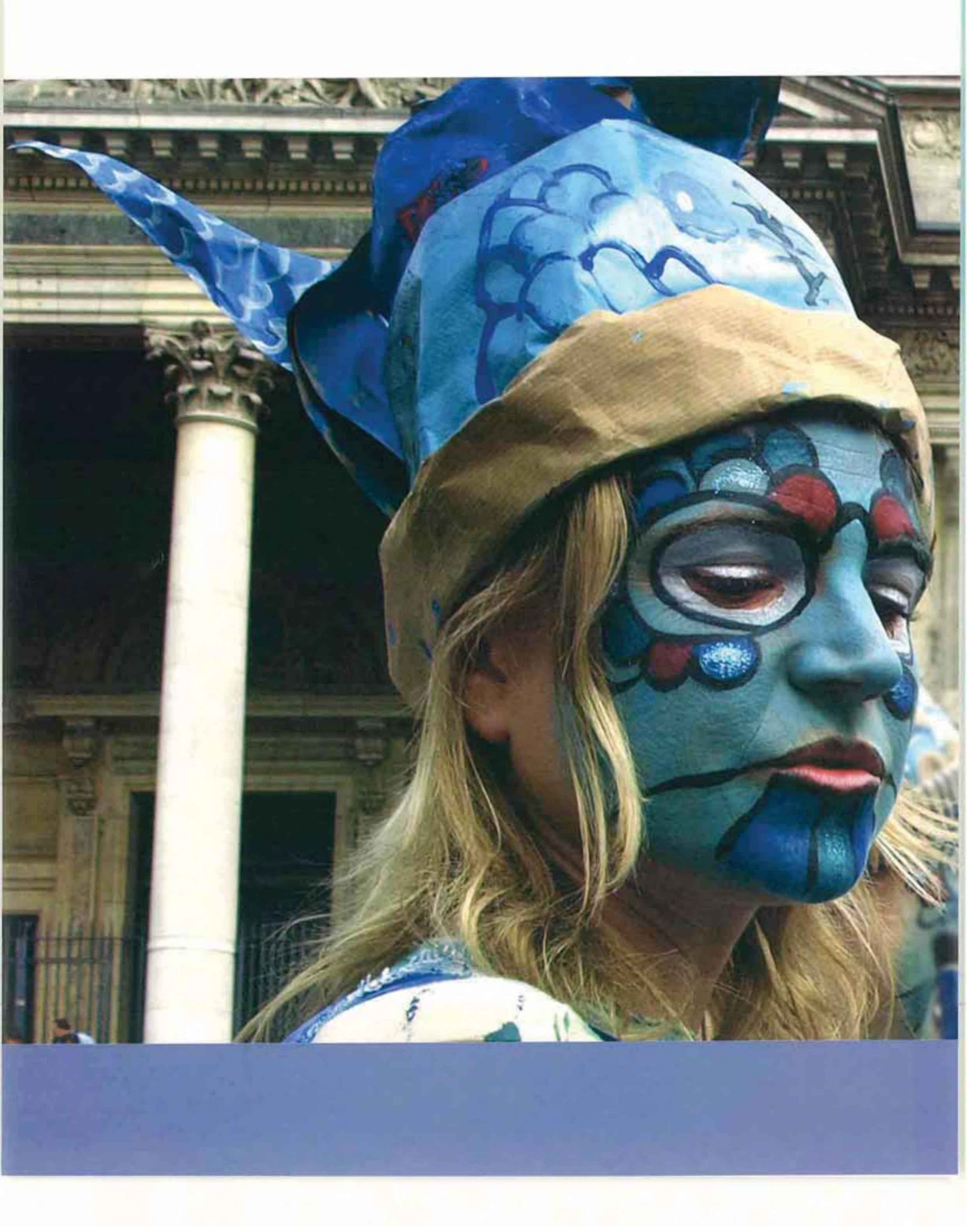
المرأة بشكل باد للعيان الحجاب الذي يكشف الوجه. وكانت هذه الملاحظة سبباً في أن أعود إلى المصادر المختلفة للتأكد من صدق ملاحظتي، فوجدت أن المعلومات تشير إلى وجود أكثر من نصف مليون مسلم، ينتمي أغلبهم إلى المغرب العربي، وتركيا، وألبانيا. وقد لاحظت - كذلك - حرصاً من العرب على التحدث بالعربية فيما بينهم، ومنهم شباب في مقتبل العمر يبدو أنهم ولدوا هناك، أو جاؤوها صغاراً، ولكن سرت فيهم الثقافة العربية بجلاء.

ويوجد في بلجيكا أحد أضخم المراكز الإسلامية في أوربا، ويرجع تاريخه إلى عام ١٩٣٦م، وكان صغيراً، وفي حيّ متواضع في البداية، إلا أن الملك البلجيكي الراحل بودوان الأول أهدى إلى الملك فيصل - رحمه الله - في عام ١٩٦٧م جزءاً من متحف الآثار الدائم لمدينة بروكسل الواقع على مقربة من مقر المفوضية الأوربية، والمجلس الأوربي، وقد تحوّل اليوم إلى مركز كبير على مستوى أوربا كلها، بعد أن قام الملك خالد - رحمه الله - بافتتاحه في عام ١٩٧٨م، وكان قد رافق الهدية الملكية اعتراف بلجيكا بالإسلام ديناً رسمياً في عام ١٩٦٨م من ضمن الأديان التي تنتشر في أوربا، ومثّل ذلك في وقتها سابقة ودلالة على التسامح الديني الذي تتميز به بلجيكا، وتلا ذلك في عام ١٩٧٥م السماح بتدريس التربية الإسلامية ضمن البرامج المدرسية لأبناء الجالية؛ مما زاد من ثقل المركز الإسلامي والثقافي في بروكسل ومسؤولياته، كما كانت بلجيكا سبّاقة إلى احتضان أول معهد إسلامي أوربي في عام ١٩٨٣م، وبعد ثلاث سنوات من هذا التاريخ افتتح مسجد في مطار بروكسل، ويزيد عدد المساجد اليوم على ٣٠٠ مسجد.

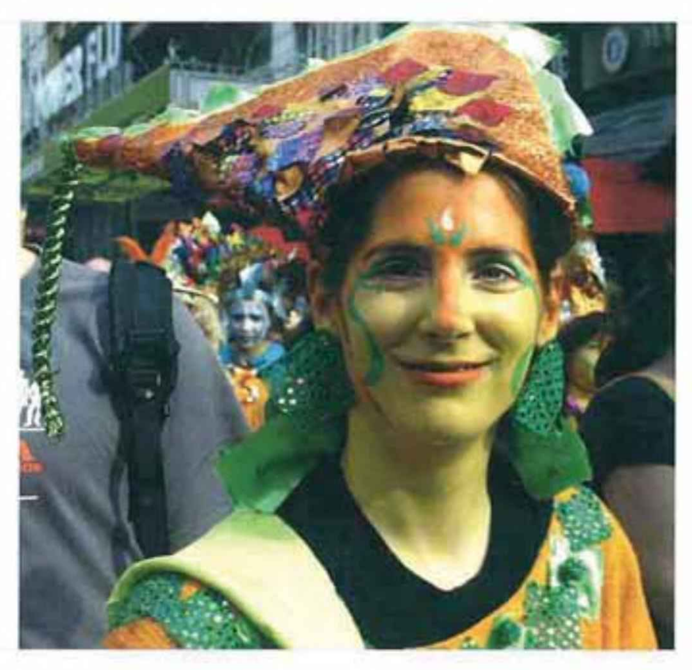
وعلى الرغم مما يُقال عن تأثيرات أحداث سبتمبر إلا أن هناك مسلمين يؤكدون التسامح الذي يتميّز به البلجيك، ويدلّلون على ذلك بأن حي (ميدي) المعروف بمطاعم المسلمين ومقاهيهم لايزال يجتذب بلجيكيين غير مسلمين تستهويهم الأكلات العربية، مثل الُسمن، والحرشة المغربية، والشاي بالنعناع.

[illegible]

إذا كان الحضور الإسلامي لافتاً لنظري، فإن ذلك الطفل الصغير الذي يتبوّل ظل يطاردنا حيث حللنا، مستفزاً أي إنسان لكي يعرف قصته، ولا أعرف كيف فات عليّ أن أقف عنده فيما







من التقاليد الاحتفالية

قرأت عن بلجيكا قبل السفر، ولعل عدم تأكدي أنا وزميلاي من إتمام هذه الزيارة كان من أسباب عدم حرصنا على الاستزادة بالمعلومات عن هذا البلد الأوربي الساحر. وقد ظللنا نخمّن من يكون، ولكن لم يهتدِ أحدنا إلى سرّه، إلا عندما وجدناه يقف في المتحف بشكل تمثال من البرونز صغير الحجم، وكان السؤال: لماذا هذا التمثال الصغير، وليس التماثيل العملاقة التي يمكن أن يكون أحدها عنواناً لبروكسل: لما في أغلبها من لمسات جمالية، ودقة في الصنع، وبعضها يعود إلى ملوك لهم دورهم في التاريخ البلجيكي، وقادة تبدو على ملامحهم الهيبة والشجاعة، ولا شك أن لهم من البطولات ما جعلهم يستحقون هذه الوقفة المهيبة، وهذا الجهد المبذول في صنعهم: تماثيل تحكي تاريخاً مضى، وأحداثاً تركت بصمتها في ذاكرة أمة مفتونة بالفن؟!

كان هذا السؤال يدور في ذهني: لماذا هذا الصغير الذي يبدو في لقطة طفولية تحملك على الابتسام؟! فكان الجواب الذي وجدته على لسان مرشد المتحف، وبعد ذلك في كتب السياحة ومواقعها، هو أن هذا التمثال يرجع إلى القرن السابع عشر، وتحديداً إلى عام ١٦١٩م، ويطلق عليه تمثال منيكين Manneken-Pis، وقصته أن حريقاً هائلاً شبّ، وكاد يقضي على بلجيكا، لولا أن هذا الطفل تبوّل على النار حتى انطفأت، فكان هذا التمثال تكريماً لهذا الطفل ذي القوة الجبارة. أما الرواية الأقل رواجاً، فهي أن أحد الأثرياء تاه ابنه في أثناء جولة سياحية في بروكسل، فظلّ يبحث عنه حتى وجده يتبوّل في إحدى الحدائق، فكان من الرجل أن عبّر عن امتنانه بإهداء المدينة هذا التمثال العجيب، فيا له من امتنان!

ساحة القصر الكبير

تعدّ ساحة القصر الكبير Grand Palace من أروع الساحات في العالم؛ فهي تشعرك كما لو كنت تنتقل إلى عصر سحيق تجد معالمه بصعوبة في أمّات الكتب، فهذه المباني الفخمة التي تعكس ثراء المادة، وغنى الفكر تنفصل عن عالم الواقع؛ فالتأمل في الرسوم التي تحمل وجوهاً وأحداثاً يشعرك كما لو أنك في معركة حربية حامية الوطيس، أو في أوبرا كتلك التي في مخيّلتي عن

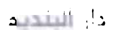
ساحة القصر الكبير في بلجيكا من أروع الساحات في العالم؛ فهي تنقلك إلى عصر سحيق لا تجد معالمه إلا في أمّات الكتب



أبهة العمارة

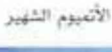
افتتاح قناة السويس وقد تصدّر الخديوي إسماعيل صدر المجلس في المسرح الفخم الذي أعدّ لاستقبال أوبرا عايدة، ولا أدري لماذا عايدة هذه التي ترتبط في ذهني كلما جاء الحديث عن الأوبرا.

أقول: إن هذه الساحة بمبانيها، وما عليها من نقوش ورسوم، تعطي صورة زاهية عن بلجيكا، وإذا اكتفى الزائر بها لكان لهذا البلد الصغير في قلبه وقع جميل لا تمحي آثاره، وتستحق الساحة لقب الساحة الأسطورية؛ لجمال مبانيها بزخارفها الفلامنكية والقوطية، وواجهاتها الذهبية، التي تعكس مستوى رفيعاً من القدرات الهندسية الإبداعية، والرخاء الاقتصادي. ووددتُ لو أن موعد زيارتنا لبروكسل تزامن مع موعد فرش سجادة الزهور الطبيعية التي تتشكل من مليون زهرة بأشكال مختلفة تزيّن المكان في تقليد جميل متبع منذ عام ١٩٧١م، ويقام هذا الاحتفال كل عامين على مدى ٥ أيام.

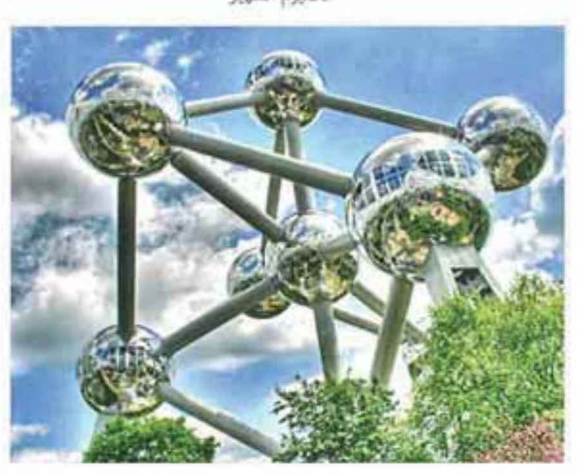


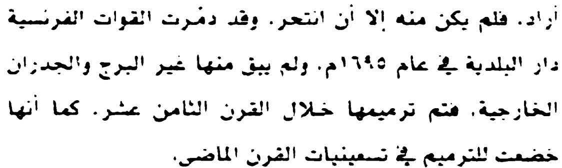
دار البلدية

تقف دار البلدية Town hall محتلة مساحة كبيرة من هذه الساحة، وهي تعطي المكان روحاً خاصة، وتبدو كأنها تحتضن الساحة، أو كراوٍ يحكي قصصاً من التاريخ تستحق الإنصات والانبهار، ويد الفنان أو الفنانين الذين أبدعوا في إخراجها قصة أخرى: فهي تقدم هذا البلد الصغير في أبهى صورة. ولدار البلدية حكاية: فقد كان في محلها حتى نهاية القرن الرابع عشر الميلادي بيوت خشبية صغيرة، ومع تزايد أهمية بروكسل كان شراء هذه المنازل وهدمها، وإقامة دار للبلدية تضم المكاتب الإدارية، ووضع الأساس في عام ١٤٠٢م؛ ليبدأ بعد ذلك البناء، والتوسّع كلما ازدادت المدينة أهمية، وظل التمثال الأصلي الذي وضع في عام ١٤٥٥م باقياً حتى عام ١٩٩٦م، ومن القصص التي تُحكى أن المعماري الذي صمّم البرج وجده مائلاً، وليس في المنتصف كما



الأتميوم الشهير





الطفل الصغير الذي يتبول

أراد. فلم يكن منه إلا أن انتحر. وقد دمّرت القوات الفرنسية دار البلدية في عام ١٦٩٥م. ولم يبق منها غير البرج والجدران الخارجية. فتم ترميمها خلال القرن الثامن عشر. كما أنها خضعت للترميم في تسعينيات القرن الماضي.

[illegible]

هذا المكان تكتشف فيه جمال الزجاج حين يتم توظيفه فنياً. فتظنّه للوهلة الأولى متحفاً: لما فيه من لمسات جمالية. وتتبدى الأناقة في المطاعم. والمقاهي. ودور السينما. والمسارح. والمتاجر المنتشرة على جانبيه. إضافة إلى انتشار الفنانين الجوّالين الذين يعرضون أعمالهم. التي تتميّز بالاحترافية وغنى الألوان المنسجمة مع الجمال. الذي يتناثر في أرجاء المكان. وقد افتتح جاليري سان هوبير Galeries St Hubert في عام ١٨٦٤م. وكان أول مركز للتسوّق في أوربا. وتعدّ محلات الشوكولاتة آية في الأناقة. سواء في واجهاتها. أم في طرائق عرضها. أم في تشكيلات الشوكولاتة. أم في بائعيها الذين يبدون ودودين بابتسامات عريضة تحثّ على الشراء. ولو من باب المجاملة.

تعد بروكسل مدينة رائعة للتسوق لمن لديه المقدرة المالية؛ فهي تجمع مستويات مختلفة من الأسواق

وتكشف الإحصاءات أن بلجيكا تنتج نحو ١٧٢ ألف طن سنوياً من الشوكولاتة. وبها أكثر من ألفي متجر لبيعها. ويُقال: إن أجودها هي (البرالين). وهي شوكولاتة باللوز والجوز مخلوطة بطريقة معينة. ومن اعتاد زيارة أوربا يعرف أن هناك شوكولاتة بالكحول: مما ينبغي توضيح ما تريده للبائع الذي سيغريك بالمذاق المتميز للشوكولاتة الكحولية من دون أن يعرف موقفك من الكحول. وتشتمل ساحة جراند بالاس على متحف للشوكولاتة يتكون من ثلاثة طوابق. وهو يحكي قصة الشوكولاتة. وطرائق صنعها. وتجد في القاعة الزجاجية Galeries St Hubert محلات المشغولات اليدوية المصنوعة من اللاسية والدانتيل بأشكال وألوان لها جاذبيتها.

سوقان متناقضان

تعدّ بروكسل مدينة رائعة للتسوّق لمن لديه المقدرة المالية. وهي تجمع مستويات مختلفة من الأسواق. ولعل سُوقيْ سيتي تو city 2 والأحد اللذين يقفان على طرفي نقيض يعكسان هذه الحقيقة: فالسوق الأول راقٍ في معروضاته. وأسلوب عرضها. بينما الثاني لا يختلف عن أيّ سوق شعبي في عالمنا العربي. حيث تعرض الأشياء كما اتفق من دون ترتيب أو تنظيم. كما أن المعروض يتنوّع. حتى لا نجد تصنيفاً للسوق. إلا أنه لكل شيء من الإبرة إلى الصاروخ. وتكثر فيه البضائع الصينية بصورة لافتة: مما يؤكد غزو الصين للأسواق الأوربية. وهو ما يبدو أيضاً في ألمانيا. وهولندا. وفرنسا. وأكثر ما يجذب الزبائن في البضائع الصينية رخصها إذا قورنت بالبضائع الأوربية. أما سيتي تو. فشارع طويل. على جانبيه فروع لأكبر المحلات المعروفة عالمياً. وكذلك تنتشر مطاعم الوجبات السريعة الشهيرة. وهو يقع قريباً من ساحة القصر الكبير.

الاتميوم والحديقة الاوربية

كنت أودّ أن أجوّل في الأتميوم Atomium. الذي يعدّ من أهم معالم بروكسل. ولكن لم يسعفنا الوقت. فاكتفينا بالمشاهدة



من على البُعد. وهذا البناء حديث، يرجع إلى عام ١٩٥٨م، وقد أقيم بمناسبة احتضان بروكسل للمعرض الدولي الإكسبو، وهو يتكوّن من تسع كرات يتصل بعضها مع بعض بممرات ومصاعد كهربائية. وقد أثنى الإقبال الذي وجده البناء السلطات عن التفكير في هدمه، بل أصبح مقصداً سياحياً؛ مما دفع المسؤولين إلى تجديده واستغلاله في عروض فنية وثقافية، فأصبح هناك مطعم كبير، ومحلات تجارية، وقاعة مؤتمرات، وصالة عرض، ويجتذب المبنى نحو نصف مليون سائح سنوياً. وقد أقيمت إلى جواره حديقة أوربا المصغرة mini-europe، التي تشتمل على مجسمات لأهم معالم المدن الأوربية، وهي أيضاً من المعالم التي تميّز بروكسل من غيرها؛ فهي تنقل أوربا إلى الزائر.

متاحف بروكسل: أصل الحكاية

بروكسل واحدة من المدن التي تحتفي بالمتاحف، التي تتعدّد

ساحة الميدان وهي تتزين بسجادة من الزهور

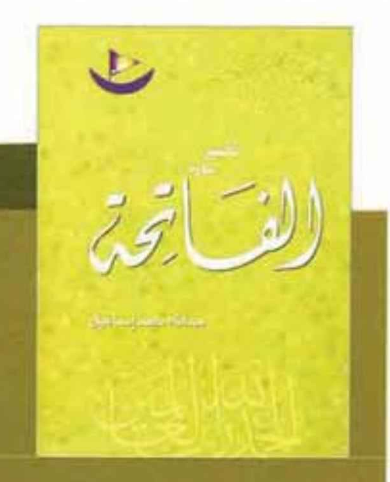


اهتماماتها، وتنوّع مقتنياتها، وهي تحكي روايات من الذاكرة تنقلها إلى الأجيال، وهي تحمل أيضاً دعوة إلى تذوّق الفن والاستمتاع به. ومن أهم متاحف بروكسل متحف العلوم الطبيعية والجغرافية، ومتحف الجيش الملكي، ومتحف التاريخ الطبيعي، ومتحف الآلات الموسيقية، ومتحف السيارات، ومتحف تان تان الذي يبيّن صناعة الأشرطة أو الأعمال الكرتونية الفرنسية والبلجيكية، ومتحف السينما، ومتحف السلالة المالكة، ويشمل ما يخصّ العائلة المالكة منذ عام ١٨٣١م، ومتحف الشوكولاتة الذي سبقت الإشارة إليه.

مطاعم عربية

كان السباق مع الوقت مضنياً؛ لأنه من الصعب تعرّف بلد عمره قرون في ساعات، وكان لابد أن نستجيب لنداء الجسد الذي أنهكته الحركة، ومحاولة التقاط صور ذهنية لاسترجاعها؛ مما يتطلب حفظ تفاصيلها، وتمثلت الاستجابة في البحث عن مطعم لإسكات الجوع؛ ولأن المأكولات البحرية تغلب على الشوارع المجاورة للساحة الكبيرة قرّرنا أن نلتهم بعضها، فوجدنا تونسياً ظريفاً يتحدث إلينا بالعربية، ويدعونا إلى مطعمه، ولكن عندما سألناه عن السعر وجدناه يكفي لعزومة حي في مدينة الرياض على كبسة (معتبرة). وقد تعاطف معنا الرجل، وقال: دعكم من هذه المحلات، سأصف لكم مطعماً مغربياً قريباً من هنا، وقولوا لهم: إنكم من طرفي؛ أي أن الواسطة العربية وصلت أيضاً إلى أوربا، وبالفعل كان لها فعل السحر؛ إذ استقبلتنا صاحبة المطعم وهي تتحدث إلينا بلكنة مغربية مغرقة في المحلية؛ مما جعلنا نفهم كلامها بعمومه من دون التفاصيل، وأحضرت لنا أكلة مغربية لم أعد أتذكر اسمها، ولكنها كانت طيّبة المذاق، والأهم أنه لا مقارنة بين سعرها وأسعار الأكلات الأخرى، ويبدو أن الخبز سلعة عزيزة في بلجيكا؛ فقد ظلت تعطينا قطعة قطعة؛ مما زاد تلهّفنا.

وكانت هذه الأكلة المغربية ختام الرحلة إلى بلجيكا، التي استقبلتنا في محطاتها وجوه عربية، وودّعناها بأكلة عربية ووجوه عربية تحاول أن تجد لها موطئ قدم في عالم أوربا المتلاطم، وهي تمسك بتراثها مسك القابض على الجمر.



إسماعيل، عبدالله محمد / تفسير سورة الفاتحة.. صنعاء: مركز الرائد للدراسات والبحوث، ١٤٢٧هـ، ١١٩ص.

يقول المؤلف: إن الهدف من هذا التفسير هو عرض معاني سورة الفاتحة الأساسية، ولفت التفكير إلى بعض نتائج فهمها التي تؤثر في علاقتنا بالله تعالى، ورؤيتنا العامة للحياة، والإشارة إلى بعض السلوكيات التي يتوقع أن تظهر علينا إذا ما فهمنا السورة فهماً صحيحاً. وقد تجنّب المؤلف الخوض في القضايا اللغوية إلا بالقدر الضروري لفهم السورة.

كما أن هنالك بعض المسائل الفقهية التي تتعلق بهذه السورة، أهمها وأكثرها خلافاً بين الفقهاء مسألة البسملة: أهي من السورة أم لا؟ وأ يجب أن يُجهر بها في الصلاة أم لا؟ وبما أن هذه المسألة لا تؤثر في الهدف من هذا التفسير، بل تصرف الانتباه عن التركيز في المعاني الأساسية، فلم يخض فيها المؤلف.

وقد قسم المؤلف السورة إلى أربعة أقسام: الأول البسملة، والثاني من الحمد إلى مالك يوم الدين، والثالث إياك نعبد وإياك نستعين، والرابع من اهدنا الصراط المستقيم إلى آخر السورة. وفي أول كل قسم يذكر القضايا المختلفة التي يجب أن نلمّ بها لفهم آيات ذلك القسم، ثم يتناول تلك القضايا واحدة تلو الأخرى.

وتناول المؤلف قبل ذكر هذه الأقسام الأربعة أهمية سورة الفاتحة وفضلها، وأنها من أعظم سور القرآن الكريم؛ فهي ترتبط بأهم الفروض الواجبة علينا، وهي الصلاة، فيقرؤها المسلم ١٧ مرة على الأقل كل يوم وليلة، وذلك في الصلوات الخمس المفروضة، كما يقرؤها في غير ذلك من السنن. وتناول المؤلف كذلك أسماء سورة الفاتحة التي عُرفت بها، وسبب التسمية، ويذكر مجمل المعاني والدلالات التي تتضمنها هذه السورة الكريمة.



حرف الكاف

أناتولي بريستافكين❖
ترجمة: سعاد شريف زين العابدين
الخرطوم - السودان

لم يكن لدى سلاف غالكين أب ولا أم. كان عمره ثماني سنوات، ويسكن في ملجأ للأطفال، ويذهب إلى المدرسة. كانت معلمة الصف تدعى غالينا. لدى كل التلاميذ أمهات وآباء يعطونهم إفطاراً. أما غالكين فلم يكن هناك أحد يعطيه شيئاً. كثيراً ما كان سلاف يحلم في أثناء الدروس بأن اسم عائلته ليس غالكين، وأنهم ربما قد أخطؤوا في مكان ما فأضافوا إليه حرفاً زائداً، وأن اسم عائلته مثل اسم عائلة المعلمة، وهكذا يكون اسمه سلاف غالين. لكن من المستحيل أن تغير اسم عائلتك، لذلك اكتفى سلاف بأن يحلم بذلك، وكان يحلم أيضاً أنه إذا ما تحقق ذلك فسوف تعطيه المعلمة لفافة فيها إفطار عند ذهابه إلى المدرسة. وشيئاً فشيئاً بدأ سلاف يبغض ذلك الحرف الذي تسبب في تحطيم أحلامه، فأخذ يحذفه في اختبارات الإملاء؛ لذلك كان دائماً ما يرسب فيها.

ذات مرة اشتاطت المعلمة غضباً، فقالت له: «لماذا تسقط حرف الكاف دائماً من الكلمات؟ لا أحد غيرك يرتكب مثل هذا الخطأ الشاذ. انظر ماذا كتبت: (سطعت الشمس الحارقة فذهبنا لي نستحم في الجدول)، أسقطت حرف الكاف من كلمة (لكي). هذا شيء غير مفهوم. تعال إليّ غداً في المنزل قبل ذهابك إلى المدرسة».

ذهب غالكين إلى المعلمة، فأملت عليه نصاً، وعندما قرأته ووجدت أن حروف الكاف محذوفة غضبت، ولسبب ما سألته عن والديه، وأمرته أن يحضر إليها مرة أخرى. لكن الشيء المهم أنها أعطته لفافة فيها إفطار.

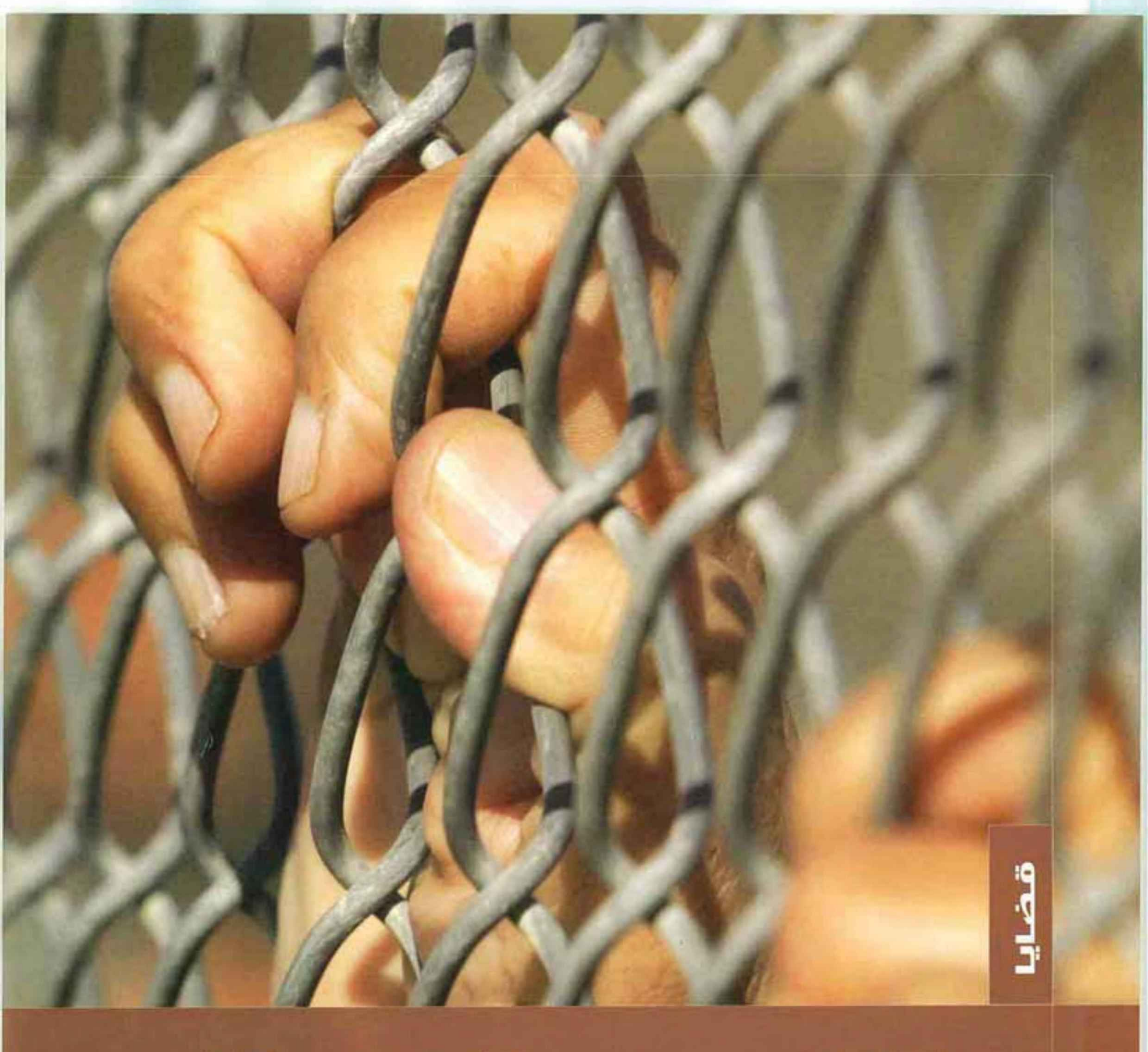
اندفع سلاف بسرعة البرق إلى المدرسة. في أثناء الفسحة لم يذهب كما كان يفعل من قبل إلى الممر، بل أخرج إفطاره مع أنه لم يكن يرغب في الأكل.

عندما أعطتهم المعلمة قطعة جديدة للإملاء نظرت إلى كراسة غالكين، لم يكن فيها أي خطأ، فحروف الكاف جميعها تقف في موضعها.

كان هناك خطأ واحد، وقد وقع غالكين اسمه هكذا: ف. غ. غالين، لكن ربما لم تلحظ المعلمة ذلك الخطأ.

❖ كاتب روسي، ولد عام ١٩٣١م في موسكو. فقد أبويه في الحرب العالمية الثانية؛ لذلك تربى في ملجأ للأطفال. درس في معهد جوركي للأدب. من أشهر قصصه: (طفولة الحرب)، و(ميران في الغابة)، و(الجندي والطفل)، وغيرها.





العولمة

وثقافة الصورة

عمر زرفاوي

تبسة - الجزائر

الواقع الفعلي والواقع الافتراضي: نحو حقيقة سينوغرافية

الواقع الافتراضي[1]: عالم بديل من الواقع الفعلي من صنع التقنية الرقمية، متشكّل في ذاكرة الحواسيب الإلكترونية، وهو واقع فوق الواقع يجسّد - بجلاء - مقولة (نهاية الفيزياء)، فلما «أفلت الواقع من النظرات الراصدة، والخطابات الفاحصة، والشعارات الطوباوية، كما يفلت الزئبق من أصابع اليد، اصطنع الفكر لذاته واقعاً فائقاً يتحكّم فيه، ويلمّ به شمله، ويوحّد به أواصره وأطرافه، ويسيّره وفق أغراضه وأهدافه»[1]، كل ذلك تلبيةً لتلك الرغبة الإنسانية الجامحة في السيطرة على مهماز الواقع، والتّحكم في الطبيعة، والاقتصاص من تعقّد ظواهرها.

وللمخيال الميدياتي القائم على التشكيلات الرقمية، والتراكيب العدديّة غير المحدودة الفضل كلّه في إضفاء البعد الافتراضي على الواقع الفعلي من طريق لعبة الرقمنة المسؤولة عن خلق «نماذج مقولبة Stéréotype تعبّر عن (واقع) من دون التعبير عنه، تعبّر بالأحرى عن واقع ضمن واقع تخييلي وإيهامي وتضليلي، يصوّر للمشاهد نماذج طوباويّة استرقتها عيون الكاميرا، واقتطعتها عن واقعها الموضوعي»[2].

اللغة الرقمية والواقع الافتراضي

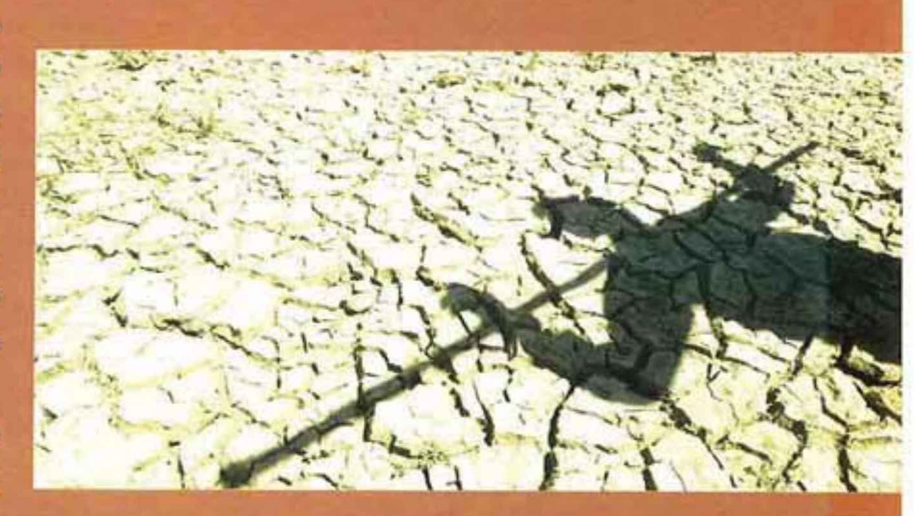
اللغة الرقميّة: نظام من العلامات يتم تدوينها في الآلات الذكيّة، بواسطة النظام الثنائي الرقمي المتكوّن من القيمة (واحد، صفر)، موزّعة على ثماني خانات، وهي نتاج أسلوب التكويد والتشفير، حيث يُعطى لكل حرف من حروف (الألفباء) كوداً رقمياً، وهي بهذا «تُحلّ الأبجدية الرقميّة السيّالة محل الأبجدية الحروفيّة الثابتة... والعوالم الافتراضية التي يمكن تخيّلها وتركيبها بواسطة الأعداد محلّ العوالم المجازية والدلاليّة، التي يمكن خلقها واستيلادها بواسطة الحروف»[3].

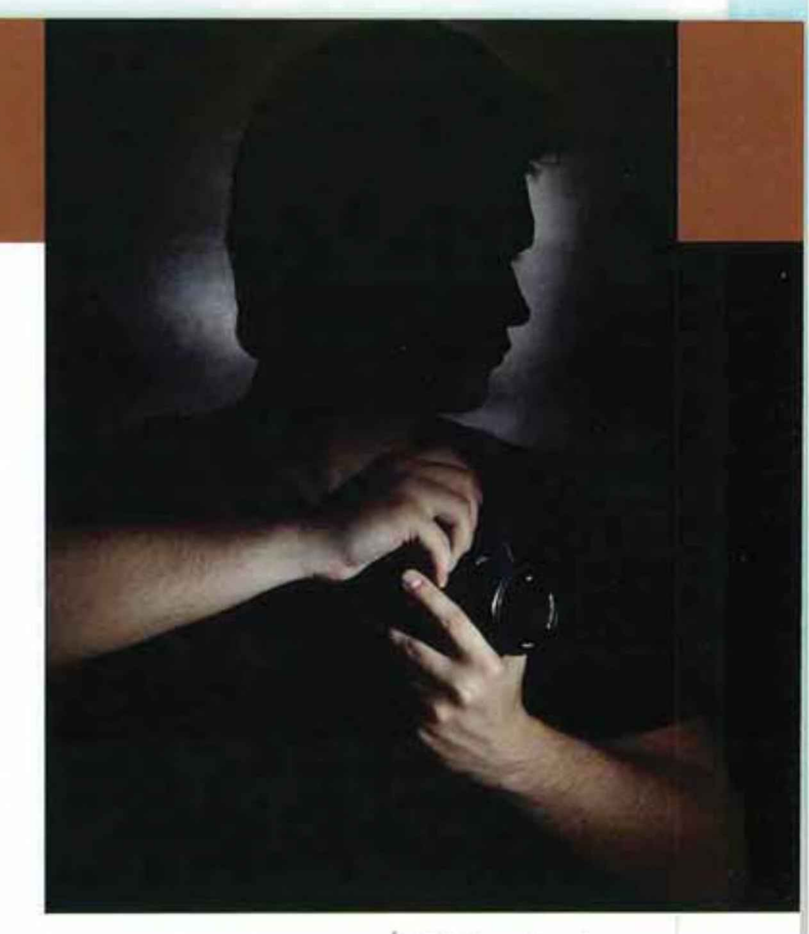
ومنذ أن أثبت ميشال فوكو تمزّق العلاقة بين الكلمات والأشياء بحلول العصر الحديث خرجت اللغة من وسط الكائنات، ودخلت عصر الحياد الخاص بها، وتخلّت عن دورها التمثيلي للواقع الفعلي؛ لتكون بيت الوجود الذي يولد فيه الإنسان، لها قوانينها الداخليّة التي تجعلها متفرّدة عن الأشياء، بل إنّ الأشياء لتخرج منها وكأنها ولدت من فورها. إن اللغة الرقمية هي اليوم مسكن الوجود بتعبير هيدغر، داخلها تُشكّل وتتخلّق تلك العوالم الافتراضية، ومنها يولد الإنسان العددي والأشياء من جديد.

الواقع الافتراضي واتجاهات ما بعد الحداثة

إن وصف هذا الواقع البديل بالواقع الوهمي في بعض الكتابات الفكرية لم يأتِ من فراغ، بل له أواصر قوية بفكر (ما بعد الحداثة): تقويض الحقيقة المطلقة، وإعلان (موت الإله) مع نيتشه، وتفكيك مفهوم التمثّل Concept of representation، وتجاوز إشكالية الذات/ الموضوع Problematic of Subject مع ميشال فوكو؛ فثورة ما بعد الحداثة بإعطائها «سلطة للعلامات... فجّرت مفهوم التمثّل المعرفي على النحو الذي يجعل المعرفة ليس تصوّراً للواقع، بل صناعة له من خلال تغيير الشيء المراد معرفته... والثورة الإعلاميّة بإعطائها سلطة لتقنية المعلومات، تتجاوز تقنية المماثلة على النحو الذي يجعل المعرفة: ليس فقط عبارة عن تصنيع للواقع، بل اصطناع واقع جديد عبر عمليات الحوسبة والأعلمة أو الرقمنة»[4].

ولعل ما يتجسّد أمام الإنسان اليوم من فضاءات متولّدة عن النظم الإلكترونية يلتقي مع مخيال (ما بعد الحداثة)، أين تقترب الحقيقة المشهدية/





الصورة تغير من الواقع كثيراً

السينوغرافية من رؤية فريدريك نيتشه للحقيقة: الحقيقة المنظورية، التي تصنعها إرادة القوّة، ويصنعها من يملك الوسائط والصور والأرقام، يخلقها باستمرار؟ أين يصبح الخداع والوهم والتضليل هو الحقيقة الوحيدة في فضاء الواقع الفائق؟ يقول محمد شوقي الزّين: «يختفي كلّ تمثّل أو تصوّر أو مفهمة: لأن منطق الواقع الفوقي هو اختزال كلّ عقلنة للواقع، وتدمير كل معقولية لأجزائه ومكوّناته. في هذا الواقع نحن أمام نماذج مقولبة، ووقائع منمذجة ومحنطّة، وإيهامات منتجة وموزّعة، نحن أمام اقتلاع جذور المرجعيّات: لأنه لا مرجع في هذا الفضاء، ولا واقع، ولا مثال، وإنما نماذج وتصنّعات وحقائق منمنمة»[6].

الواقع الافتراضي وعصر الحقيقة المشهدية

والقول: إن هذا الواقع البديل مُتعالٍ عن الزمن والحدث التاريخي يعني أنه أضحى مصدراً مطلقاً للحقيقة. شأنه في ذلك شأن الواقع الموضوعي عند التجريبيين. والعقل عند المثاليين (العقليين). «فمنذ أفلاطون حتى هيغل. كانت معرفة الحقيقة هي التطابق مع ما هو واقع. وكان عالم الكليات من المثل المجرّدة.

والأفكار المطلقة هو العالم الحقيقي؛ أي: هو الحاكم على هذا العالم الواقعي والناظم له»[7]. أمّا الآن فالحقيقة لم تعد تجريبية يتطابق فيها الفكر مع الواقع، ولا مثاليّة (عقليّة) يتطابق فيها مع ذاته[8]؛ «فالحاكم والناظم هما عالم الأشباح الضوئية من المنتجات الإلكترونيّة غير الملموسة، ومعنى ذلك أنّ الحقيقة ليست ما نعرفه، بل ما نختلقه من الوقائع، أو ما نصطنعه من العوالم. والعالم الاصطناعي الذي يُدار به الواقع الآن، والذي هو في منتهى الهشاشة، هو أشدّ واقعيّة من الواقع بقدر ما بات يتحكّم به أو ينوب منابه، وتلك هي المفارقة: لم تعد الأشباح ظلال الحقيقة، بل ما نصنع به الحقائق»[9].

إن الحقيقة اليوم تتخذ صورة جديدة، وشروطاً أخرى، لم يعهدها الفكر البشري، إنّها حقيقة افتراضية، واحتمالية، ومشهدية، وسينوغرافية، وشروطها «تقنية محضة: الإنارة، قوّة تأثير المقاطع المسوقية، فعالية توهيم الصّورة، زوايا اللقطات المقدّمة في الصّور، الأداء الصّوتي للمعلّق، المكياج، الجينيريك، المكساج، التقطيع والتركيب (المونتاج). هذه هي الشروط التي تشيّد صرح الحقيقة، والتي تقدّمها في هيئة تركيب سينوغرافي»[10].

بذلك يصبح الواقع الافتراضي مرجعاً للواقع الفعلي، خصوصاً أن الحقيقة أضحت ما يُخلق، وما يُركّب، وما يُتوهّم من النماذج، ومع كلّ خلق وتركيب وتوهم سيتغيّر المرجع بتغيّر ما يُختلق، وما يُركّب، وما يُتوّهم، فيكون بذلك اللاّمرجع هو المرجع الوحيد، الثابت المتغيّر، والمتغيّر الذي لا يثبت؛ فالإقليم من هنا فصاعداً «لن يسبق الخريطة، وإنما هي التي تسبقه وتغمره وتخفيه؛ لتبرز حقيقتها كواقع مجتثّ من أصوله، ومبتور عن لا واقعيّته. (إنّ) الخريطة هي حقيقة الحقائق دون مرجع واقعي، يربط بين ما هو مشار إليه ومحرّر في المكان والزمان وصورته المصغّرة، وحقيقته المختزلة في الخريطة»[11].

> الصورة تغيّر من الواقع، وتعيد تشكيله من جديد؛ لذلك يحذر النقاد من خطر الصورة وتأثيرها في حياتنا المعاصرة

ما بعد الحداثة وأزمة أصالة الصورة

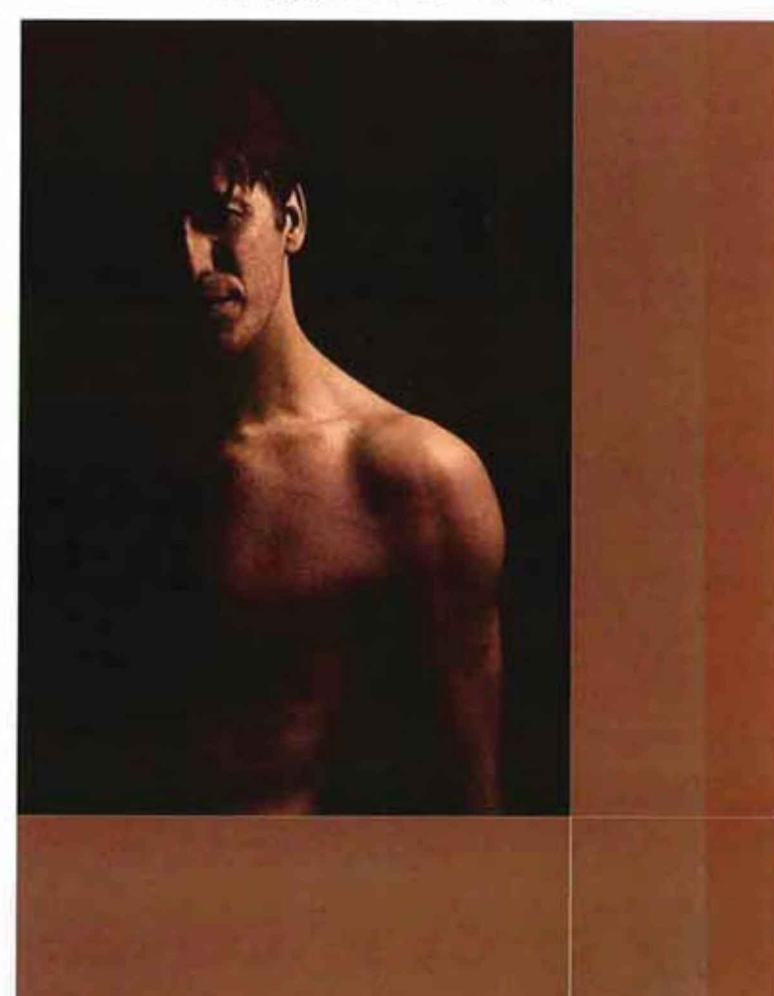
وصف رولان بارت Roland Barthes الحضارة المعاصرة بحضارة الصّورة؛ فالصورة تغيّر من الواقع، وتعيد تشكيله من جديد؛ لذلك حذّر الناقد في معرض تحليلاته السيميولوجية للصورة من خطر الصورة، وتأثيرها في حياتنا المعاصرة؛ فالمرء ما إن يقف أمام (الكاميرا) حتى يأخذ استعداده، ويثبت pose، ويكيّف جسده ونظرته استعداداً لالتقاط الصورة، ويجعل من نفسه موضوعاً للتصوير، أو مشهداً scène، وهو بذلك يجعل من نفسه صورة قبل أن تلتقط له الصورة، وهذا الذي يحدث على المستوى الشخصي يحدث على مستوى اجتماعي أكبر؛ فمثلما يتخذ المرء الهيئة المناسبة للصورة يتخذ المجتمع الهيئة نفسها، ويكيّف نفسه كموضوع للتصوير»[١٢].

وهو ما ذهب إليه ريتشارد كيرني الذي أكد أن ثقافة ما بعد الحداثة تتحدّث عن (مجتمع المشهد)، حيث تفقد الصورة أصلها الثابت، ولا يبقى إلا اللّعب الحرّ واللانهائي للصور، صور عن صور لصور عن صور... إلى ما لا نهاية. وإذا كان ميشال فوكو قد تنبّأ بأن هذا القرن سيكون دولوزي الطابع، فإن جيل دولوز أكد أنّ «العالم الحديث هو عالم السيمولاكرات»؛ أي: عالم المحاكاة الفائقة، لا في شكلها الاستردادي الأفلاطوني أو الأرسطي، بل في شكل «قلب ساخر. فالمحاكاة في هذا السياق لا تحاكي حقيقة سابقة الوجود، بل محاكاة بدورها محاكاة، وهكذا دواليك، وهي على هذا النحو تهزأ بفكرة مصدر أوّلي، وعالم سابق للمحاكاة، فيُلغى بذلك كل مشروع يخص الحقيقة بزوال التمييز بين ما هو حقيقي وما هو خادع، بين ما هو واقعي وما هو خيالي، إلى حدّ أن الواحد لا يمثّل غير محاكاة مكرّرة للآخر»[١٣].

الصّور في ثقافة (ما بعد الحداثة) كالدوالّ من المنظور التفكيكي، سقطت في قبضة الصيرورة والتحوّل، عائمة لا مركز ينتظمها، أو مدلول متجاوز يوقف لعبها. في فكر (ما بعد الحداثة) الصورة «تدور في فلك لا نهائي من لعب المحاكاة، حيث تغدو كلّ صورة محاكاة ساخرة لغيرها من الصور التي تسبقها في الوجود لا في الرتبة إلى ما لا نهاية، وعلى نحو تسقط معه فكرة الصورة (الأصليّة) أو (الأصيلة)، ولا يبقى منها سوى دلالات ملتبسة، تراوغ الساعي وراءها في ممارسة بلاغة (المعارضة)، التي تتبنى بها الأشكال المعاصرة من تمثيل العالم»[١٤].

بإعلان (موت الإنسان) انتهى التخيّل الإنساني، وولج العالم مرحلة جديدة من التخيّل خلف فيها نظام الوسائط العقل البشري، فتعولم المخيال، وسادت النمطية، وبات الواقعي فقط ما يمثّل وسائطياً، ليختفي مفهوم الأصل، وتصبح «المحاكاة أصلاً للأصل، والمحاكاة أصلاً للمحاكاة. ولا غرابة في ذلك؛ فنحن نعيش حضارة تمنح المحاكاة أهميّة أكبر ممّا تمنحه للأصل؛ إذ الخيال يبدو سابقاً على الواقع بمقدار ما. إنّ إدراكنا للعالم أصبح مشروطاً بتمثّلات مسجلة إلكترونياً؛ أي: العالم لم يعد ما هو موجود، بل ما يُعاد إنتاجه بواسطة صور منقولة ميكانيكياً»[١٥].

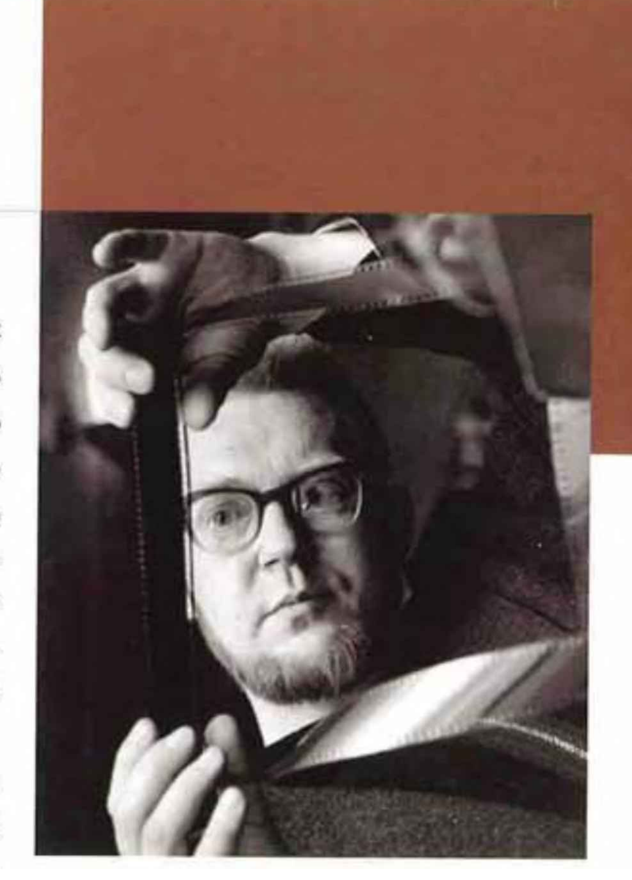
تغير الصورة المصنوعة من انعكاس للواقع إلى الواقع ذاته



جان بودريار وثقافة الصّورة: من طغيان الوسيط إلى صنمية الصورة

تتمحور نظرية جان بودريار Jean Baudrillard في الواقع الافتراضي حول مسألة صنمية الصورة، وتبرز الطبيعة الصنمية





نزيح الصورة أصلها وتنوب عنه

للصورة لديه من خلال تحليله للأصول الاشتقاقية لكلمة (صنم Fetish). فالأصل اللاتيني لها (Fatio) يعني شيئاً مصنوعاً أو مصطنعاً Fabricated. وتعني Facticius محاكاة ما هو طبيعي بما هو صناعي»[١٧].

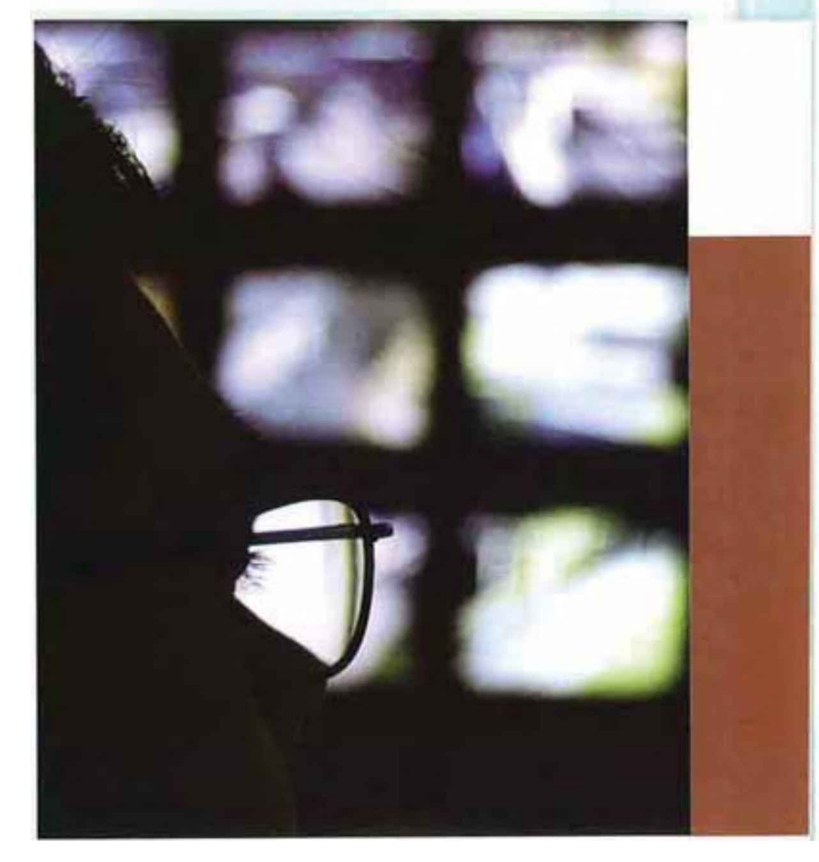
وحين تزيح الصورة أصلها (الواقع)، وتنوب عنه، مثلما تنوب العلامة عن الشيء، وتمحوه تصبح ذات طبيعة صنمية، فالصورة المصنوعة، التي هي مجرّد انعكاس للواقع تتخذ على أنها هي الواقع ذاته، وتصبح لها مصداقيّة تفوق مصداقية الواقع الحقيقي، ولا يدرك الناس الطابع الاصطناعي في ثقافة الصورة؛ إذ تقنيات صنعها خافية عليهم، ويأخذون ما هو صناعي على أنّه طبيعي»[١٧].

في تحليله طبيعة المجتمع الرأسمالي توصّل كارل ماركس Karl Marx إلى أن السّلع هي وسيط التعامل الوحيد؛ فعلاقة البشر بالسلع طغت على علاقاتهم بعضهم ببعض؛ أي: تحوّل الإنسان نفسه إلى سلعة خاضعة لنسق التبادل السلعي، غير أن جان بودريار يرى أن صنمية الصورة طغت على صنمية السلع؛ فالصور «هي وسيلتنا في معرفة العالم، وفي معرفة السلع نفسها، إذ لم يعد هناك اتّصال مباشر بيننا وبين العالم أو بيننا وبين أنفسنا، وكون كلّ أنواع الاتّصال تحدث عن طريق الصّور يعني أن الوسيط طغى على أطراف الاتّصال، وطغيان الوسيط أو الدّال على المدلول هو الصنمية بعينها»[١٨].

إن العلاقة بين الواقع الافتراضي والمستخدم تجسّد ذلك التّصور السيبرنطيقي من ناحية، وأعلى درجات التفاعلية من ناحية أخرى؛ فالتواصل بينهما يتم انطلاقاً من السببيّة الدّورية، تغذية تتجه من الإنسان/ المستخدم نحو العالم الافتراضي، وتغذية مرتدّة تعود صوب الإنسان/ المستخدم، وهو ما يكشف جان بودريار جانبه التراجيدي، فالاتّصال يفترض «وجود علاقة تبادليّة بين مُرسل ومُستقبل، بحيث يتبادل الطرفان الإرسال والاستقبال كما في الحوار بين شخصين، لكن وسائل الإعلام مرسلة فقط دون أن تكون مستقبلة لرسائل مماثلة للتي تُرسلها، فمع وسائل الإعلام الحديثة نشهد علاقة اتّصال ذات طرف واحد، واتّجاه واحد، وليس فيما يعرف باستجابة الجمهور ممّا يرقى إلى أن يكون طرفاً ثانياً لوسائل الإعلام، وما يُقال عن تغذية مرتجعة Feedback تستقبلها وسائل الإعلام من الجمهور ليس إلا قياساً لتأثير الإعلام على شاكلة القياس السيكولوجي لردود الأفعال المسمّى اختبار بافلوف»[١٩].

تختلف مرجعية الصورة في الثقافة العربية عن مرجعيتها في الثقافة الغربية

وتأسيساً على ذلك، تختلف مرجعية (الصورة) في الثقافة العربية عن مرجعيّتها في الثقافة الغربية: ففي المنظومة الثقافية العربية ترتبط الصورة بالخالق -سبحانه وتعالى- والخلق والإنسان/ المخلوق، وذلك ما يكسب مفهوم (الصورة) خصوصية: خصوصية تتجلى من خلال ارتباط مادة (صور) واقتران ورودها في القرآن الكريم بالحديث عن الخلق، وخلق الإنسان بوجه خاص: ﴿وصوّركم فأحسن صُوركُم﴾ (غافر: ٦٤)، ﴿هُو الّذي يُصوّركُم في الأرحام كيف يشاء﴾ (آل عمران: ٦)، ﴿في أيّ صُورة مّا شاء ركّبك﴾ (الانفطار: ٨)، ﴿هُو اللهُ الخالقُ البارئُ المُصوّرُ﴾



تكتسب الصور مصداقية تفوق مصداقية الواقع الحقيقي

(الحشر: ٢٤). ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا﴾ (الأعراف: ١١).

فالله -سبحانه وتعالى- هو المصوّر للصورة/ الإنسان/ المخلوق؛ فقد ورد في لسان العرب: «صور: في أسماء الله تعالى: المُصوِّر، وهو الذي صوّر جميع الموجودات ورتّبها، فأعطى كلّ شيء منها صُورة خاصة، وهيئة مفردة يتميّز بها على اختلافها وكثرتها». ويذكر الباحث بنيونس عميروش بعد استقراء كمّ من المعجمات أن الصّورة «تمثّل معنى الرفعة والعلو؛ فهي ذات قيمة خاصة، إلى درجة أن بعض المعجمات تذهب إلى أن الصُّور (بضم الصّاد) أفصح من الصِّور (بكسر الصّاد). وإذا ربطنا ذلك بالقاعدة وجدنا الضم أفضل الحركات، فوجب أن يخصّوا ما هو مُهمّ إلى ما هو مُهمّ، والحال أنّ الصُّورة مهمّة، فوجب تخصيصها بالضم، وليس بالكسر».



ومتى تأوّلنا ذلك المعنى الذي حوته تلك المعجمات فإنّ الله -عزّ وجلّ- المُصوّر قد رفع الصُّورة/ الإنسان/ المخلوق، وأعلى من شأنه، وكرّمه على بقية خلقه؛ فقد جاء في لسان العرب: «وَصُورَةُ الله صُورة حَسَنة، فتصوّر. وفي حديث ابن مقرن: أما علمت أنّ الصورة محرّمة؟ أراد بالصّورة الوجه، وتحريمها: المنع من الضرب واللّطم على الوجه، ومنه الحديث: كره أن تُعْلَم الصّورة:

أي: يُجعل في الوجه كيّ أو سمة».

ورفعة المخلوق/ الصُّورة وعلوّه من رفعة الخالق/ المُصوّر -سبحانه وتعالى- وعلوه، بل إنّه من خلال المخلوق/ الصُّورة نعي وجود الخالق/ المُصوّر. وبالعودة إلى فلسفة الوجود عند العرب نكتشف «أن كلمة (مُصوّر) هي من أسماء الله الحسنى... وأنّ الإسلام يلحّ على وجوب الوعي بوجود الله من خلال خلقه، وإذا كان مُصوّراً فإنّ خلقه صُورة أبدعها، ولهذا، فإن العرب كانوا ينظرون إلى العالم، بكلّ ما فيه حتّى النّاس، باعتباره مجموعة صُور». وقد ورد في لسان العرب: «وتصوّرتُ الشيء: توهّمت صورته، فتصوّر لي، والتّصاويرُ: التماثيلُ».

ولعل هذا المعنى الأخير للصورة هو الذي أدى إلى تنامي هذه النظرة الازدرائية للصّورة في الثقافة الإسلامية، التي ربطتها بعبادة الأوثان، وعلى هذا الأساس أيضاً حرّم الاستنساخ، «فالمشكلة الكبرى التي تواجه المهتمين بمستقبل الإنسان والإنسانية هي النتائج التي سوف تترتب على اكتشاف الخريطة الجينية والجهود المبذولة لاستنساخ البشر، وهي جهود تواجه كثيراً من المعارضة، بل المقاومة والرفض لأسباب دينية وأخلاقية، فكثيرون ينكرون على الإنسان أن يتولى عملية إنتاج الحياة أو عملية الخلق، على أساس أن الخلق هو من شأن قوة عليا أسمى بكثير من البشر».

يقدّم المفكّر المصري الراحل عبدالوهاب المسيري في كتابه (اللغة والمجاز بين التوحيد ووحدة الوجود) رؤية معرفية من منظور النقد الحضاري، فيرى أن «كل النظم المتمركزة حول اللوغوس (أي النظم التي لها مركز تدور حوله، في مقابل النظم التي لا مركز لها) لابدّ أن تتضمن مدلولاً متجاوزاً لعالم الدّلالات: هو الإله في المنظومات الدينية، وهو الكلّ المادي الثابت المتجاوز في المنظومات المادية». ووفقاً لهذه الرؤية تبدو العلاقة بين الصّورة وأصلها في الثقافة العربية علاقة ضرورية؛ فالله -سبحانه وتعالى- هو من يمنح تلك العلاقة؛ أي: الأصل المتجاوز لكلّ الصّور، فالصّور/ المخلوقات متفرّدة، أو كما عبّر عنها القرآن الكريم مختلفة الألسنة والألوان، فما يحقّق أصالة الصّورة هو ذلك التفرّد، فالشيء الأصيل هو الشيء الفريد.

وفي الثقافة الغربية يضربُ مصطلح (Image) بجذوره في أعماق التراث اليوناني، وبالتحديد إلى الكلمة اليونانيّة القديمة (أيقونة - Icon) التي تشير إلى التشابه والمحاكاة؛ الكلمة التي

ترجمها اللاتين بـ(Imago). إنّ مصطلح الصّورة... لا يكاد ينفصل في أصله اللاتيني واليوناني عن عالم الموت: فالطّيف أو الشبح، سواء عبر لفظة (spectrum) أو (simulacrum)، يعني ببساطة التمثيل بالصّورة. وكلمة (Imago) لا تخرج عن معنى البديل. أما في اليونانيّة، فمصطلح (eidolon) الذي أعطى في الفرنسية والإنجليزية معاني المعبود والصنم فيعني أيضاً شبح الموتى.[26]

إذاً، فمصطلح الصّورة في الفضاء الثقافي الغربي مرتبط أشدّ الارتباط بالمحاكاة الزائفة (simulacrum)، وبصنمية الصورة، Fetishism كما نظّر لها جان بودريار Jean Baudrillard. وبذلك العالم الافتراضي/ الشبحي/ الطيفي، كما تحدّث عنه جاك دريدا Jacques Derrida في كتابه (أطياف ماركس Spectres de Marx).

الهوامش والمراجع

١- يُعزى الفضل في ابتكار مصطلح الواقع الافتراضي Virtuel Reality إلى جيرون لانير Jaron Lanier في أوائل الثمانينيات. وتقوم تطبيقات الواقع الافتراضي على خلق بيئات ثلاثيّة الأبعاد، باستخدام الرسومات الكمبيوتريّة، وأجهزة المحاكاة Simulation، بحيث تهيّئ للفرد القدرة على استثمارها بحواسه المختلفة، والتفاعل معها، وتغيير معطياتها، فيتعزّز الاحساس بالاندماج في تلك البيئة، ويتعذّر على الأكثر فطنة تمييزه: كأفلام الرسوم المتحرّكة الممزوجة بالحاسوب. ولمصطلح (الواقع الافتراضي Virtuel Reality) مرادفات كثيرة وردت في كتابات جملة من المفكّرين والإستراتيجيين، مثل: بيل غيتس، وجان بودريار، ونبيل علي، وعلي حرب، ومحمّد شوقي الزّين، وسمير حجازي، وشاكر عبدالحميد. ومن تلك المرادفات: الواقع الفائق، والواقع الخائلي، والواقع الأثيري، والواقع الاحتمالي، والواقع الاصطناعي، والواقع الشبحي، والواقع الاعتباري، والواقع التقريبي، والواقع المخلّق، والواقع الأعلى، والواقع الوهمي، والهيبريالي كترجمة حرفية.

٢- محمد شوقي الزين. تأويلات وتفكيكات. فصول في الفكر العربي المعاصر. ص٢٢٦.

٣- المرجع نفسه. ص٢١١.

٤- علي حرب. حديث النهايات. فتوحات العولمة ومأزق الهويّة. ص١٤٠.

٥- المرجع نفسه. ص١٧٤، ١٧٥.

٦- محمد شوقي الزين. تأويلات وتفكيكات. فصول في الفكر العربي المعاصر. ص٢١٣.

٧- علي حرب. حديث النهايات. فتوحات العولمة ومأزق الهويّة. ص١٧٣

٨- لقد كان السؤال حتى وقت قريب: ما الذي يمكن أن يكون حقيقة؟ وكيفية تولّده في العالم يجد معقله الأصلي في نقطة الالتقاء بين الأنطولوجيا والإبستمولوجيا. إذ يصبح التساؤل الإبستمولوجي تأويلاً لوضع أنطولوجي سابق تفترض الإجابة عنه سلفاً بحذف التشكيلات القبليّة المكوّنة للمبادئ والقواعد التي تسمح بتعيين الحقيقي من حيث هو كذلك.

٩- المرجع السابق. ص١٧٢.

١٠- عبدالصمد الكبّاص. الزمن الأيقوني ودغمائية المستقبل. مجلة فكر ونقد. ع١٦. الرباط - المغرب. س٢. فبراير ١٩٩٩م. ص٣٢.

١١- علي حرب. حديث النهايات. فتوحات العولمة ومأزق الهوية. ص١٥١.

١٢- أشرف منصور. صنمية الصورة: نظرية بودريار في الواقع الفائق. مجلة فصول. ع٦٢. الهيئة المصرية العامة للكتاب. مصر. صيف وخريف ٢٠٠٣م. ص٢٢٦.

١٣- نبيهة قارة. الفلسفة والتأويل. دار الطليعة. بيروت - لبنان. ط١. ١٩٩٨م. ص٨٧.

١٤- المرجع نفسه. ص٨٦.

١٥- المرجع نفسه. الصفحة نفسها.

١٦- أشرف منصور. صنمية الصورة: نظرية بودريار في الواقع الفائق. مجلة فصول. ص٢٢٦.

١٧- المرجع نفسه. ص٢٢٦.

١٨- المرجع نفسه. ص٢٢٨.

١٩- المرجع نفسه. ص١٩، ٢٠.

٢٠- ابن منظور. لسان العرب. مادة (صور).

٢١- منيوس عمهروش. معاني الصورة في التراث الإسلامي: تداخل العلامات. مجلة فكر ونقد. ع١٣. س٢. الرباط - المغرب. نوفمبر ١٩٩٨م. ص١٤١.

٢٢- المرجع نفسه. ص٥٤٦.

٢٣- المرجع نفسه. ص١٤١.

٢٤- ابن منظور. لسان العرب. مادة (صور).

٢٥- أحمد أبو زيد. الطريق إلى ما بعد الإنسانية. مجلة العربي. ص٣١.

٢٦- عبدالوهاب المسيري. اللغة والمجاز بين التوحيد ووحدة الوجود. دار الشروق. القاهرة - مصر. ط١. ٢٠٠٢م. ص١٣١.

٢٧- محمد الكردي. مع ريجيس دوبريه في كتابه: حياة وممات الصورة: تاريخ النظرة في الغرب. مجلة فصول. ع٦٢. الهيئة المصرية العامة للكتاب. القاهرة. صيف وخريف ٢٠٠٣م. ص٢٤٢.



التصوير في الإسلام

لبابة محمد زهير محمد أبو صالح

الرياض - السعودية

هي جولة قصيرة إلى أركان قصية لا يعرف عنها إلا قليل من العارفين والباحثين، نستعرض من خلالها ذلك اللبس الذي نسقط فيه دائماً حول تحريم فن التصوير في الإسلام، ونعرج على تاريخ هذا الفن عند العرب، متخذين من فن «المنمنمات» أنموذجاً وشاهداً.

تأطير

لئلا يحصل مكروه دائماً نغلق الأبواب، ونتحاشى الخوض في التفسير للناس؛ حتى لا نغرق في جدل لا يتوانى عنه كثيرون. فالإسلام لم يضع حكماً عبثاً، ولم يحض على شيء من دون غاية يرمي إليها، كما لم يمنع شيئاً إلا اتقاء لأشياء لا تحمد عقباها.

وقد وقع الناس أول ما وقعوا في الزمن القديم في الشرك بسبب التصوير، وقد حكى ذلك القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلا سُوَاعًا وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ (نوح: ٢٣). جاء في تفسير القرطبي: «قال محمد بن كعب، ومحمد بن قيس: كانوا قوماً صالحين بين آدم ونوح، وكان لهم تبع يقتدون بهم، فلما ماتوا زيّن لهم إبليس أن يصوروا صورهم ليتذكروا بها اجتهادهم، وليتسلوا بالنظر إليها، فصوروهم. فلما ماتوا هم، وجاء آخرون قالوا: ليت شعرنا هذه الصور ما كان آباؤنا يصنعون بها؟ فجاءهم الشيطان فقال: كان آباؤكم يعبدونها فترحمهم وتسقيهم المطر. فعبدوها، فابتدأت عبادة الأوثان من ذلك الوقت».

وهذا ما ثبت في عقول الناس حول هذا الفن الشائك؛ مما سيّد حرمانية مطلقة للتصوير من دون تمحيص في المنهي عنه، ربما من باب سد الذرائع!.

لكن العلم بالشيء لا يضر أبداً، وإنما الجهل به هو الخطأ؛ إذ طالما أنار الإسلام عقول الناس، ووسّع مداركهم، وليس لائقاً بأهل الإسلام الإغماض عن التفاصيل، وتحاشي زيارة الزوايا كلها، بل من واجبهم إضاءتها وكشفها، فالمسلمون قادة وسادة، وحريّ بقلوبهم وعقولهم أن تدرك كل شيء عن معرفة؛ لتتخطى اللبس، ولا تسقط في الأحكام العامة غير الدقيقة.

ابن المقفع هو أول من أرفق الرسوم مع القصة توضيحاً لها وجذباً وإغناءً، وهذا هو بالضبط ما يعرف بالمنمنمات

الفن هو صورة للواقع يقدمها الفنان بحسب رؤيته الخاصة لهذا الواقع؛ ولهذا لا تكون الصورة سوى تقريبية غير واقعية أو حقيقية

شهادة التاريخ أولاً

لقد فرضت العقيدة الوحدانية الراسخة في روحية الإنسان العربي - وهذا قبل الإسلام - على الفن العربي مبدأين:

- الأول: هو تصحيف الواقع؛ أي تحوير معالمه الخاصة، وتعديل نسبه وأبعاده، وفق مشيئة الفنان.
- والثاني: هو تغليف الشكل والواقع؛ أي الابتعاد عن تشبيه الشيء بذاته إلى تمثيل الكلي والمطلق.

وفي كلتا الحالتين نجد أن الفن هو صورة للواقع يقدمها الفنان بحسب رؤيته الخاصة لهذا الواقع؛ ولهذا لا تكون الصورة سوى تقريبية غير واقعية أو حقيقية.

هذا ما ارتكز عليه الفكر العربي في الفن، ولم يقبل منذ فجر التاريخ بغير هذا. يؤكد بريون Brion «أن الفكر العربي يتعارض أصلاً مع النحت والتشبيه، فلم يكن من ضرورة لأي منع ديني لتحويل هذا الشعب عن التمثيل ذي الأبعاد الثلاثة»، وإخاله يقصد النحت، ويؤكد عدم انتمائيته إلى العقلية الفنية العربية كما يبين مارسيه Marcais أن ندرة الوجوه البشرية في الفن العربي تعود إلى أسباب تاريخية وفنية أكثر منها إلى أسباب دينية، ونرى على ذلك مثالاً واضحاً وقوياً تلك النقوش النافرة الموجودة على أفريز قديم في تدمر، التي تمثل ثلاث نسوة رسمن بصورة مجردة تكاد تحاكي الأسلوب الحديث، وقد ظهر هؤلاء النسوة وراء محمل يشبه محمل الحج عند العرب المسلمين.

كما أن عدم التشبيه في التصوير يرجع إلى أسباب تاريخية، ونحن نرى ذلك واضحاً عند الآشوريين، والأكاديين، والبابليين، والكلدانيين،



محمد، بل على العكس هي تقليد أصيل، هي إرث قديم سابق لمولد النبي نفسه، وقد استمرت هذه الروح على تغذية هذا الفن خلال جميع العصور، وعلى ترسيخه في جميع البلاد التي سيطر عليها الإسلام». وقد اكتشفت بعض البعثات الأثرية الآثار التجريدية الموجودة على أوابد ترجع إلى عرب ما قبل الإسلام.

من أقوال المفسرين

أورد النووي على لسان عائشة – رضي الله عنها – قالت: «قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم من سفر وقد سترتُ على بابي درفوكاً فيه الخيل ذوات الأجنحة، فأمرني بنزعه – وفي رواية أخرى: وأنا مستترة بقرام فيه تماثيل – فتلون وجهه، ثم تناول الستر فهتكه، ثم قال: إن من أشد الناس عذاباً يوم القيامة المصورون، فقالت عائشة: فقطعناه، فكان رسول الله يرتفق عليهما».

من الواضح أن الرسول صلى الله عليه وسلم هنا لم ينه عن التصوير، وإنما رفض الرسوم التي تحمل مفاهيم وثنية مستوردة، ورسمت بأساليب واقعية غريبة عن الذوق العربي. أما قوله: «إن من أشد الناس عذاباً يوم القيامة المصورون»،

استمر فن التصوير عند العرب حتى الفتح الإسلامي وقيام الدولة الأموية، وأظهر تاريخ الفن الإسلامي ملوكاً وأمراء كثيرين كانوا من أكبر دعاة التصوير ومشجعيه

والآراميين.. وانتقل هذا التقليد إلى أعقابهم العرب.

ونحن نلاحظ أن عدم التشبيه في الإسلام لم يسر في نطاق الأمة العربية دون غيرها من الأمم المسلمة، كالفرس، والسلاجقة، والمغول، والهنود، والترك، والكرد؛ مما يؤكد ارتباط العربي بفكرة «السامي» ارتباطاً تاريخياً قبل أن يصبح دينياً.

ولا بد من أن نذكر أنه منذ ظهر موسى – عليه السلام – ورد في صحف العهد القديم هذا النهي: «لا تصنع لك تمثالاً منحوتاً ولا صورة ما، مما في السماء من فوق، وما في الأرض من تحت، وما في الماء من تحت الأرض، ولا تسجد لهن ولا تعبدهن».

وهذا ما يؤيد أن منع التشبيه كان شائعاً أيضاً عند باقي الأقوام الساميّة قبل الإسلام، لكي لا تصبح الصورة أو التمثال سبباً للوثنية، ومع أن آثار العرب الفنية الباقية منذ ذلك الوقت نادرة، إلا أنها تكشف بوضوح اتجاه العرب نحو التجريد وعدم التشبيه. ولقد كتب بريون في كتابه عن الفن التجريدي المقطع الآتي: «إن الروح التجريدية التي تسيطر على الفن الإسلامي ليست كما يعتقد عادةً نتيجة تحريم صادر عن الرسول

فإنما يقصد بذلك أولئك الذين يحاولون خلق الكائنات، أو مضاهاة خلق هذه الكائنات التي رسمت بأسلوب واقعي، وبمحاكاة رفيعة للواقع؛ فالمحاكاة والشبه محاولة للخلق ومضاهاة الله؛ ولهذا كان الحديث: «ليعذب المصورون».

ولقد وجد المفهوم الأفلاطوني في التعبير الأمثل والأكمل للشكل الإنساني في التصوير؛ وجد له مكاناً في تفكير المعتزلة الذين وجدوا تعليلات للتصوير وردت على لسان أبي علي الفارسي (في القرن العاشر)، وهو من كبار النحاة، وكان ذلك بعد تفسيره النحوي للحديث الشريف «يعذب المصورون»، قياساً على تفسيره الآية الكريمة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ (الأعراف: ١٥٢)، فهو يقول: «ومن صاغ عجلاً، أو نحوه، أو عمله بضرب من الأعمال، لم يستحق الغضب من الله والوعيد من المسلمين، فإذا كان ذلك

إحدى صفحات «كليلة ودمنة»

على علم ما وصفناه من إرادة المفعول الثاني المحذوف في هذه الآية وهو الله، والأصل: إن الذين يتخذون العجل إلهاً.. فإن قال قائل: لقد جاء في الحديث «يعذب المصورون يوم القيامة»، وفي بعض الحديث: «فيقال لهم: أحيوا ما خلقتم»، قيل: «يعذب المصورون» يكون على من صور الله تصوير الأجساد؛ أي يعذب مصورو الله... أما الزيادة فمن أخبار الآحاد التي لا توجب العلم، فلا يقدح لذلك في الإجماع».

ويؤيد ذلك ما جاء في القرآن: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ﴾ (المائدة: ٩٠)، فالله تعالى لم يحرم إلا تصوير الرموز الإلهية كالأنصاب ونحتها، ولم يتعرض إلى الرموز البشرية، أو الحيوانية، أو النباتية. ولئن ادعى بعض المفسرين أن المقصود هو عدم تصوير الإنسان عامة؛ فإن جوابنا أن الحديث في فقرته الأخرى كان مُطلقاً؛ بمعنى أن المصور يوم القيامة مطالب بأن يبعث الحياة في كل ذي حياة كالحيوان والنبات، وهذا مخالف لحقيقة الرقش العربي في الواقع، فعندما عُثر عام ٤٦٠هـ على أنقاض قصر الخليفة المستنصر، وجد بينها ما يزيد على ألف قطعة كان قد صوّر عليها الخليفة مع عدد من المحاربين والشخصيات الشهيرة. ويؤكد رأينا اتفاق بعض المجتهدين في مسألة المنع على أن الرسول إنما دعا إلى المنع لكي لا يخطر على ذهن إنسان أن الله قابل للتشخيص والتجريد بدلالة حديثين:

- «إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة الذين يضاهون بخلق الله».
- «إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة الذين يشبهون بخلق الله».

وما يؤيد هذا الرأي أيضاً هو أن الإسلام لم يمنع تصوير الأشخاص، والشواهد على ذلك كثيرة؛ فالنقود التي ظهرت في العهدين الأموي والعباسي كانت تحمل صورة الخليفة، وكذلك الصور الجدارية الموجودة في قصير عمرة، وغيرها الموجودة في قصر الحير الغربي، وهما من قصور الأمويين في بلاد الشام، فهي صور تشبيهية نفذت بناء على أمر الخليفة هشام بن عبدالملك.

فن المنمنمات العربية

سأخبركم عن هذا الفن بطريقة مبسطة بعد أن دوَّختني الكتب


حزن حزنا عظيما ودبلغ منه غيظه كل مبلغ
فشكا ذلك الى اخيه كليلة وقال لها الا ترى يا اخي
من عجز رأيي وضيعي بنفسي فما ينفع الاسد واغفلت نفسي
حتى جلبت الى الاسد ثورا غلبني على منزلتي قالت كليلة

فلم تعرّفه بشكل واضح. كلنا يعرف «كليلة ودمنة»، هذا الكتاب القديم الذي روى فيه عبدالله بن المقفع الحكايات الجميلة على ألسنة الحيوانات. لا يكاد أحد يجهل هذه التحفة القصصية. فإذا ما تصفحتموه وجدتم صوراً توضيحية مرفقة بالقصص، قد رسمت فيها الحيوانات، وشكلت بها صورة الحكاية. وهي التي قال عنها ابن المقفع في مقدمة كتابه، وهو يتحدث عن أغراض هذا الكتاب: «والثاني: إظهار خيالات الحيوانات بصنوف الأصباغ والألوان؛ ليكون أنساً لقلوب الملوك، ويكون حرصهم عليه أشد للنزهة في تلك الصور. والثالث: أن يكون على هذه الصفة فيتخذه الملوك والسوقة، فيكثر بذلك انتساخه ولا يبطل فيخلق على مرور الأيام (أي يبلى)؛ لينتفع بذلك المصور والناسخ أبداً».

لقد كان ابن المقفع أول من يرفق الرسوم مع القصة توضيحاً لها وجذباً وإغناءً، وهذا هو بالضبط ما يعرف بالمنمنمات، فهو فن تصوير الأحياء الإنسانية والحيوانية بالريشة والألوان.

وقد استمر فن التصوير عند العرب حتى الفتح الإسلامي وقيام الدولة الأموية، وأظهر تاريخ الفن الإسلامي ملوكاً وأمراء كثيرين كانوا من أكبر دعاة التصوير ومشجعيه، منهم الخليفة الأموي الذي شيد «قصير عمرة» ببادية الشام، وزيّن جدرانه وسقفه بالنقوش الجميلة، والخلفاء العباسيون الذين زينوا قصورهم في سامراء بالنقوش المختلفة الألوان.

ثم انتقل فن التصوير إلى الكتب والمخطوطات العلمية والأدبية والتاريخية، وأنشئت بعد ذلك في نهاية القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي مدارس التصوير العربي بدءاً ببلاد الرافدين ثم بلاد الشام ومصر.

أبرز سمات فن تصوير المنمنمات العربية

- لوحظ تشابه كبير في أسلوب التصوير السائد لدى مسيحيي الكنيسة الشرقية، إذ تحيط أكاليل النور وهالات التقديس رؤوس بعض الأشخاص، و تبرز أشكال الأنوف بخطوط بارزة من اللون، وتعالج الملابس المزركشة والمزينة بالأزهار والزخارف النباتية وفروع الأشجار بأسلوب نمطي يشبه أسلوب التصوير المسيحي الشرقي الذي يظهر التأثر الواضح بالفنين الساساني والبيزنطي؛ مما دفع بعضهم إلى الاعتقاد بأن هذه الصور الإسلامية من صنع المسيحيين أنفسهم.
- تتنوع الألوان بكل درجاتها في هذه التصاوير، وتتوزع وفق المعايير الوضعية أو الجمالية المحلية، فيبدو الاهتمام واضحاً بالألوان الذهبية والزرقاء على الأرضية البيضاء؛ لما تتضمنه من دلالات مقدسة، بينما تبدو الخطوط أكثر عفوية وعاطفية، وأقل رهافة من تلك التي نجدها في التصوير الفارسي أو المغولي.
- يعتمد الفنان - من أجل تجسيد أفكاره - على الأشكال الآدمية، والحيوانية، والنباتية، والمعمارية، بالإضافة إلى الزخرفة الهندسية أو النباتية، وأنماط الكتابة العربية.

في النهاية

لا أدري هل تنتهي مثل هذه القضايا بنهاية ما، أو تبقى ذات نهاية مفتوحة هي رهينة عقلنا وإدراكنا وقدرتنا على فهم الأمور؟.. بيد أن زيارة المناطق المعتمة يجعلنا ندرك معنى العتمة ونتحسس ماهية المكان. هنا، ربما سمعنا آراء لا تحرم الفن الذي لا يؤدي إلى شرك أو مضاهاة خلق، وربما وجدنا هامشاً من الحرية المحدودة، لنبدع فيما لا يؤدي إلى عذاب الله. وربما يكفينا أن نعرف معلومة جديدة نحدّث بها أو نتركها في مهب النسيان.

لا أدري كيف يكون شكل المكان حين نغادره، نطفئ النور، ونغلق من خلفنا بابه، لكني أعتقد أنني أغادر المكان حاملة معي الشموع إلى سواه من الزوايا المعتمة.

المراجع

- د. عفيف البهنسي، الفن والاستشراق «من موسوعة تاريخ الفن والعمارة»، دار الرائد العربي، المجلد الثالث، ط ٢، ص ٢٢٨ - ٢٤٤.
- مجلة العاديات «الصادرة عن جمعية العاديات»، السنة الثانية، العددان الثالث والرابع، ٢٠٠٥م، المنمنمات العربية: نشأتها ومدارسها، طاهر البني، ص ٢٢ - ٢٣.
- د. عفيف البهنسي، الفن الإسلامي، دار طلاس، ط٢، ١٩٩٨م، ص ٩٠ - ٩٥.

أخبار

ترجمة ٥٠ كتاباً عربياً للقارئ الألماني



بدأت مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم بإمارة دبي مؤخراً مشروعاً لترجمة ٥٠ كتاباً من أبرز المؤلفات العربية إلى اللغة الألمانية. ويهدف المشروع إلى تعريف العالم الغربي بالإنتاج الفكري العربي المتميز، خصوصاً ألمانيا، التي لم تشهد حتى الآن حضوراً ملموساً للمؤلفات العربية المترجمة إلى الألمانية حسب بيان المؤسسة. وتم الإعلان عن المشروع في معرض فرانكفورت الدولي الذي تشارك فيه المؤسسة. ومن أهم الكتب والمؤلفات العربية التي سيتم ترجمتها إلى الألمانية: (مختارات السياب) لخيري منصور، و(السلطان الحائر) لتوفيق الحكيم، و(الفيل يا ملك الزمان) لسعد الله ونوس، و(الجدارية) لمحمود درويش، و(قصائد من الإمارات) لشهاب غانم، و(المرأة واللغة) لعبدالله الغذامي، و(خلق المسلم) لمحمد الغزالي، و(مقدمة في علم الاستغراب) لحسن حنفي، و(المثقفون العرب والغرب) لهشام شرابي، و(مختارات من لوح وقصائد) لميسون صقر قاسمي.

وفاة الأديبة المصرية نعمات البحيري

توفيت الكاتبة المصرية نعمات البحيري التي وافتها المنية عن ٥٣ عاماً بعد صراع مرير مع مرض السرطان. وُلدت نعمات محمد مرسي البحيري في حي العباسية بالقاهرة في ١٦ يونيو/ حزيران عام ١٩٥٣م، وعاشت في تل بني تميم بشبين القناطر في محافظة القليوبية. تخرّجت في كلية التجارة بجامعة عين شمس عام ١٩٧٦م، وهي من جيل الثمانينيات في كتابة القصة القصيرة والرواية، وكانت عضواً في اتحاد كتّاب مصر، وأتيليه الكتاب والفنانين، ونادي القصة بالقاهرة، وجمعية الفلم. تُرجم لها كثير من القصص إلى الإنجليزية والفرنسية والإيطالية والكردية. وقد استوحت من تجربة زواجها من شاعر وناقد عراقي عاشت معه في العراق في نهاية الثمانينيات روايتها (أشجار قليلة عند المنحنى) الصادرة عن دار الهلال عام ٢٠٠٠م. كما كتبت الدراما التلفازية لقصتها القصيرة (نساء الصمت)، وصدر لها كثير من المجموعات القصصية والروايات، منها: (نصف امرأة)، و(العاشقون)، و(ارتحالات اللؤلؤ)، و(ضلع أعوج)، و(حكايات المرأة الوحيدة). وصدر لها للأطفال: (النار الطيبة)، و(الفتفوتة تغزو السماء)، و(وصية الأزهار)، و(بالونة سحر)، و(رسومات نيرمين)، و(رحلة الأصدقاء الثلاثة). كما نشرت قصصاً وسيناريوهات للأطفال في دوريات مصرية وعربية: مثل: (علاء الدين)، و(قطر الندى)، و(العربي الصغير)، و(ماجد). وقد حصلت نعمات البحيري على منحة قصر لافيني بسويسرا عن مؤسسة رولت فونداشن للفنانين، وأنهت فيها روايتها (أشجار قليلة عند المنحنى).

وفاة الكاتب السعودي عبدالله الجفري

توفي في الأول من شوال الماضي سنة ١٤٢٩هـ (١ أكتوبر/ تشرين الأول عام ٢٠٠٨م) الكاتب والصحفي السعودي الأستاذ عبدالله الجفري عن ٦٩ عاماً في إثر صراع مرير مع المرض.

وقد جمع الجفري بين الأدب والصحافة بعد أن وقف حياته على الكتابة بعدما تبوأ عدة مناصب، فقد ظلَّ يكتب زاويته اليومية (نقطة حوار) خلال أعوام طويلة في صحيفة (الحياة). كما كتب في الصحافة المصرية في صحيفة (الأهرام) الدولية، ومجلة (آخر ساعة)، ومجلة (صباح الخير)، و(الرأي العام) الكويتية.

كما كتب الجفري الرواية والقصة والشعر والنقد والوجدانيات، وبلغت كتبه نحو ٢٩ كتاباً، وحصل على جوائز كثيرة، منها: الجائزة التشجيعية في الثقافة العربية من المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم في ٢٠ ديسمبر عام ١٩٨٤م عن كتابه (حوار في الحزن الدافئ)، وجائزة علي ومصطفى أمين للصحافة في عام ١٩٩٢م عن مقالاته، وجائزة المؤتمر الثاني للأدباء السعوديين بإشراف جامعة أم القرى تقديراً لدوره البارز في إثراء الحركة الأدبية والثقافية في المملكة، وذلك في عام ١٩٩٨م، وجائزة (المفتاحة) لعام ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م من لجنة التنشيط السياحي بعسير؛ تكريماً لجهوده المتميزة في الكتابة والصحافة، والزمالة الفخرية من رابطة الأدب الحديث بالقاهرة، وشهادة تقدير في عام ١٩٨٦م من الجمعية العربية للفنون والثقافة والإعلام التي أسّسها الروائي الراحل يوسف السباعي؛ وذلك تقديراً لإنجازاته الجليلة وعطائه الوافر للمجتمع، وجائزة تقديرية وشهادة من صحيفة (الرياض) في عام ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م، وتسمى: جائزة التنوّع والالتزام، وجائزة تقديرية وشهادة من (جمعية لسان العرب) للحفاظ على اللغة العربية التابعة للجامعة العربية عام ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.

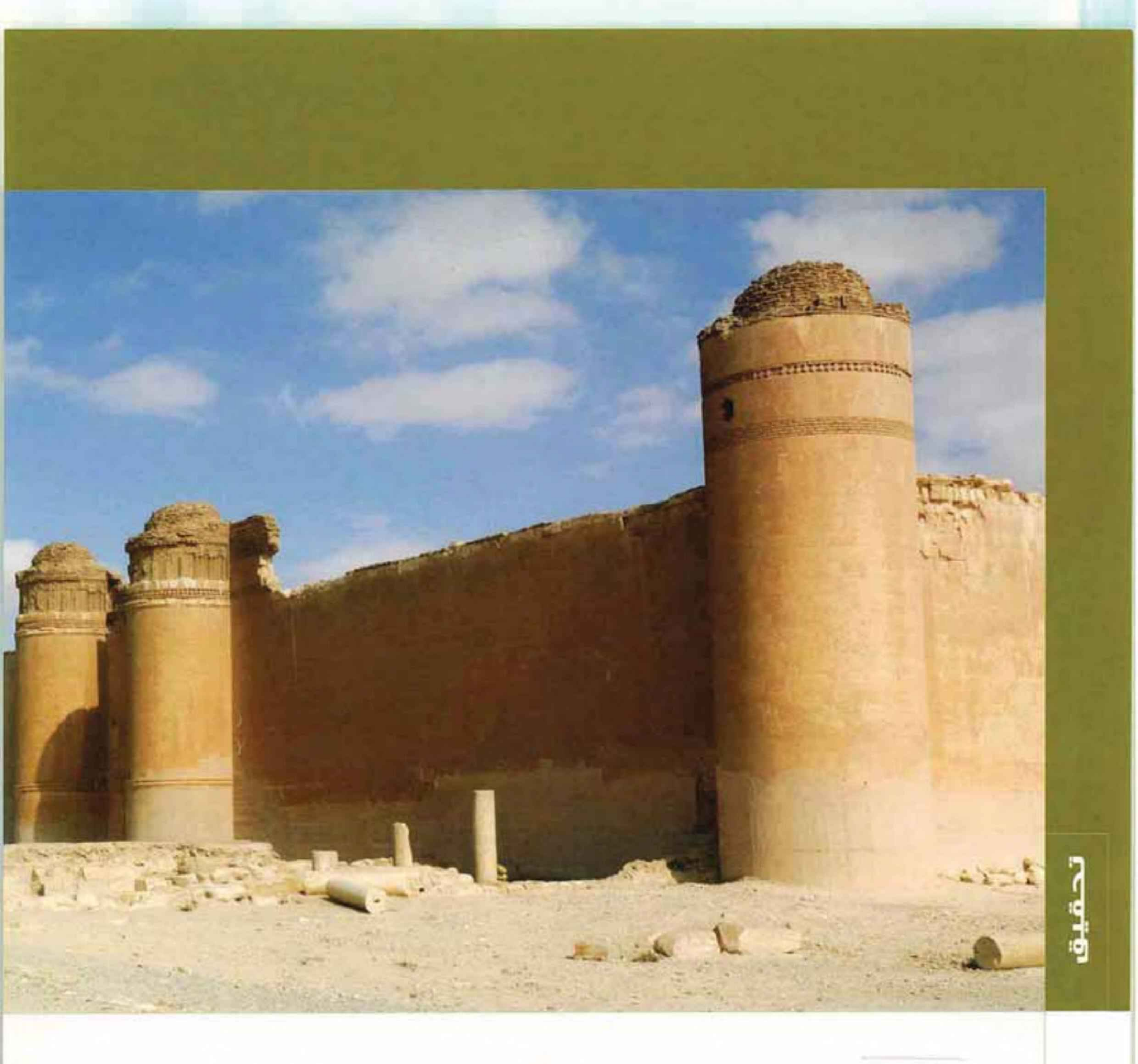
ومن أهم كتب الجفري: (أيام معها)، و(مئة خفقة قلب)، و(حوار في الحزن الدافئ)، و(المثقف العربي والحلم)، و(وطن فوق الإرهاب)، و(نزار قباني.. آخر سيوف الأمويين).

والجفري من مواليد مكة المكرمة في عام ١٩٣٩م، وتلقّى تعليمه بمكة المكرمة إلى نهاية المرحلة الثانوية (قسم أدبي)، وعمل موظفاً بإدارات: الأمن العام، والجوازات والجنسية، ووزارة الإعلام (مديرية الصحافة والنشر)، و(المديرية العامة للمطبوعات). وأُعيرت خدماته من وزارة الإعلام إلى عدة صحف في سنوات متتالية، فعمل سكرتيراً لتحرير صحف (البلاد) و(عكاظ)، و(المدينة المنورة)، ثم مسؤولاً عن التحرير في صحيفة (عكاظ). وشغل منصب نائب الناشرين بالشركة السعودية للأبحاث والتسويق التي تصدر صحيفة (الشرق الأوسط) اليومية، ومجلتي: (سيدتي)، و(المجلة)، وأشرف على صفحات الثقافة والأدب في صحيفة (الشرق الأوسط)، وإعداد ملف الثقافة في مجلة (المجلة)، وعمل نائباً لرئيس تحرير (الشرق الأوسط) للشؤون الثقافية.

استمر الجفري يكتب عموداً يومياً في كل صحيفة احتضنت أنشطته تحت عنوان: (ظلال)، إلى جانب إبداعاته الأدبية في القصة القصيرة، والرواية، والمقال الأدبي والإبداعي.

كُلِّف الجفري إنشاء مكتب صحيفة (الحياة) اللبنانية في المملكة العربية السعودية، مع استمراره في كتابة زاوية يومية في الصحيفة نفسها بعنوان: (نقطة حوار).





ديـــــر الــــزور حاضرة الفرات

يوسف ذيب الحمود
دير الزور - سورية



دير الزور حاضرة الفرات الأوسط، وواسطة عقده، ومهد حضارته وتاريخه، وينبوعه الثقافي. يمتدّ عمرها الحضاري من عام ٦٤٠٠ إلى عام ٥٩٠٠ قبل الميلاد. وذلك بحسب تقدير بعثة أثرية من جامعة أمستردام استطاعت تحديد تاريخ الاكتشافات الأثرية في تل بقرص (بقراصا) التي تبعد عن مركز المدينة (٣٠)كم. وجاءت تلك النتائج بعد أسبار استكشافية بدأها فان لير - العالم الهولندي - عام ١٩٥٥م، ودي كونتيسون - الخبير الفرنسي[1]. وهذه المكتشفات ليست أدوات بدائية، بل هي دمى، وأشكال حيوانية، وتمائم مزخرفة بخطوط هندسية، ورسوم للمرأة، وأختام. وهذه جميعها ذات وحدة حضارية واحدة تعطي تصوراً عن تقدم هذه الحضارة وإبداعاتها الفنية.

وقبل أن نفتح الصفحات التاريخية والعمرانية للحضارات المتعاقبة على هذه المحافظة الزاخرة بالعطاء والألق الفكري والفني[2]، لا بد من أن نقف عند المعاني المتداولة عند الجغرافيين والمؤرخين لهذه التسمية «دير الزور»[3].

دير الزور:[4]

- الدير، كما ورد في القاموس المحيط: تطلق على مكان عبادة الرهبان، ومعروف تاريخياً استيطان قبيلة تغلب النصرانية بدير الزور، وهناك عدة أديرة موجودة في المنطقة.
- وقد تكون الكلمة مأخوذة من الدارة أو الديرة، والأولى بمعنى: الأرض الواسعة، والثانية هي الحاضرة.
- وهناك أقوال بأنها محرفة من (درته) الآرامية أو (دورا)، ومعناها: الحصن.

أما كلمة الزور فقد أوصلها بعض الباحثين إلى تسعة معانٍ، اخترنا أهمها وأوفقها للصواب[5].

- الزور تعني: الغابة الكثيفة، وهو رأي الباحث عبد القادر عياش.
- لزور: من ازورار النهر وكثرة تعاريج الفرات، وهي المسماة قديماً بزورة ابن أبي أوفى، كما قال ياقوت الحموي في معجمه، وهي تقع بين الشام والكوفة، وكان فيها كثير من القبائل العربية المعروفة بإنشاد الشعر وحفظه وإيرائه أبناءهم، وهذا هو رأي الشيخ العلامة محمد سعيد العرفي.
- الزور يعني: أعلى وسط الصدر، فالمدينة تقع في صدر الفرات الأوسط؛ لأن الفرات الأعلى في تركيا، والأسفل في العراق، كما يقول الدكتور حسن حسني.

تحقيق الاسم: ونحن نميل إلى رأي العلامة العرفي وهو أن الاسم جاء من كثرة تعاريج الفرات وازوراره، ونضعّف ما ذهب إليه د. حسن حسني من أن الاسم جاء بمعنى أعلى الصدر؛ لأنه تفسير لغوي محض لا يرتبط بالنواحي الجغرافية، ويبقى الرأي

الأول لعياش احتمالاً، ولكنه مرجوح من وجهة نظرنا للرأي الثاني الذي هو قول الشيخ سعيد العرفي.

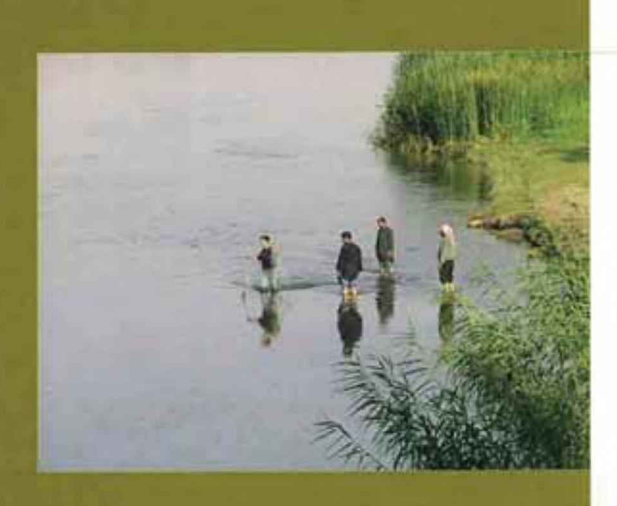
وكل ما سوف نذكره من الآثار والأوابد التاريخية هو داخلٌ الآن في التقسيم الإداري للمحافظة بشكلها المعاصر. تقع هذه المحافظة في الجزء الشرقي من القطر العربي السوري، وتجاورها محافظة الحسكة من الشمال، والعراق من الشرق والجنوب الشرقي، ومن الغرب الرقة، ومن الجنوب والجنوب الغربي محافظة حمص العريقة. أما مساحتها فهي (٣٣,٦٠٠) كم٢، ويقدر عدد سكانها حسب الإحصائيات بـ ١,٣٠٠,٠٠٠ نسمة، وهي ذات ثروات زراعية وحيوانية ونفطية كبيرة.

- وقد سكن هذه المنطقة منذ القديم الآراميون، والآشوريون، والبابليون، والرومانيون، والبيزنطيون، والفارسيون، والتدمريون، واليونانيون، وتسع قبائل عربية هي: (قيس، وتميم، وأسد، وتغلب، وبكر، وهذيل، وقضاعة، ومضر، وباهلة).
- وإذا كان التاريخ لا بدّ من أن يمر من بوابة الآثار، والقلاع، والحصون، والمكتبات، والقصور بما حوته من وسائل، ووثائق، ورقوم، ورسوم، وتماثيل خالدة ممتدة على امتداد عظمة الفرات؛ فلا مناص لنا من البدء بالآثار التي هي الدليل، وتقديمها على مدلولها الذي هو التاريخ.

الرحبة:

وهي المَعْلَمُ الثاني بعد (بقراصا) التي قدمنا الكلام عنها في أول البحث، وتسمى (رحبة مالك بن طوق). كانت الرحبة منطقة آراميّة، ولكن الآشوريين قهروها في عهد الملك الآشوري (آشور ناصر بال) الذي نفى ٢٤٠٠ رجل منها إلى مدينة كالح على نهر دجلة، ولكنها استعادت نشاطها، وتمردت على الآشوريين، ثم خضعت لهم مرة ثانية عام (٨٥٨ ق.م).

أصبحت قرقيسيا في أثناء العهد الأموي مركزاً للقيسيين وزعيمهم زفر بن الحارث الكلابي، وفي العصر العباسي دخلت في طاعة العباسيين





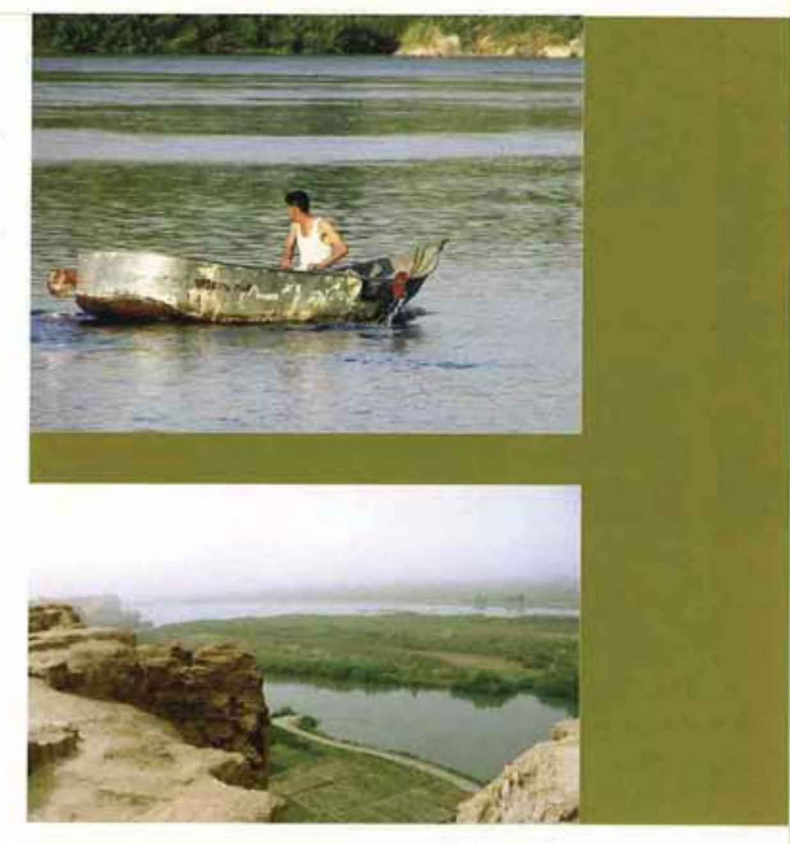
النهر يحتضن الآثار

ارتبطت الرحبة باسم (مالك بن طوق التغلبي) واليها العباسي في عهد المأمون والمعتصم (٢١٨-٢٢٧ هـ)، فهو الذي جدد بناءها، وعني بعمرانها وأمنها واقتصادها، وكان له بلاط كبير قصده الشعراء الكبار كأبي تمام، والبحتري، ودعبل الخزاعي، ثم تعاقب عليها من سيطر على المنطقة في أثناء الصراع التاريخي، بدءاً من الزنكيين إلى المماليك إلى العثمانيين.

ترقا (تل العشارة):

تقع شرق دير الزور على مسافة (٦٠)كم من مركز المدينة، وهي على الضفة اليمنى للفرات، وكانت تابعة لدولة (لاقي الآرامية)، وقد عثر فيها على مسلّة للملك الآشوري (نيكولني نينورتا الثاني) (٨٨٣ – ٨٥٩ ق.م)، وقد نقش عليها نص قصير يتعلق بانتصاره على لاقي.

لم تعرف المدينة السكن قبل عام (٣٠٠٠ ق.م) عندما بدأت



حياة تتمحور حول النهر

تحصن ذاتها، وتبني سوراً ضخماً بلغ عرضه عشرين متراً.

كانت ترقا حليفة ومساندة لمملكة ماري، وهذا ما تدلنا عليه الرسائل الكثيرة من مملكة ماري التي يزيد عددها على مئتي رسالة بين ملوك ماري وحاكم ترقا (كبرى داجان) الذي طال حكمه، وعاصر زمر ليم، وحمورابي، وعثر على رقيم مسماري جاء فيه أن الملك الأشوري (شمش حدد) قد اقترض أموالاً ليصرفها **على بناء معبد الإله الكبير (داجان) في ترقا.**

ومن القبائل العمورية التي سكنت المنطقة إبان حكم ماري قبيلة خانا، ونسبة إلى هذه القبيلة أصبحت المنطقة بعد سقوط ماري على يد حمورابي تدعى (مملكة خانا) ومركزها (ترقا). والجدير بالذكر أن أول رقم مسماري يُكشف في سورية نشر في عام ١٨٩٧م، ويتضمن اسم مملكة خانا. وقد صرحت البعثة الأمريكية عام ١٩٧٦م على لسان كيللي بوتشلاني - العالمة الأثرية -: «إن آثار ترقا من الوثائق التاريخية التي تدل على عظمة وأهمية المنطقة العربية، وأنها غنية بكل ما يتصوره المرء حضارياً، وقد سبقت ثقافتُها ومعلوماتُها الحضارات الأخرى». وقالت بوتشلاني: «إن ترقا مملكة أثرية هامة جداً تعود إلى الألف الثالث ق.م، وإن العموريين هم الذين سكنوها وجعلوا منها عاصمة لمملكة ممتدة الأطراف»[٦].

قرقيسيا (البصيرة):

تقع شرق مدينة دير الزور على بعد ٤٣كم، وتبعد عن النهر ٢٠٠م. ومن أوابدها الباقية معسكر يقدر بُعداه بـ ٤٠×٥٠ م، وله سور وأبراج وجدران مشيّدة بالحجارة والقرميد، ومدخل المعسكر الرئيس يمر خلال برج يتوضع على الطرف الشرقي، بداخله غرف مثمّنة الأضلاع، وقد عثرت البعثة الأثرية السورية أخيراً على ثور مجنّح منحوت من الألباستر، وهو الآن في متحف دير الزور. وفي عام (٨٧٨ ق.م) امتنعت عن أداء الخراج إلى ملك آشور، فاجتاحها، وأحرقها، وذبح عدداً كبيراً من أهلها، وأطلق عليها الرومان إبّان عهدهم (دقلسيان)، ثم استولى عليها الفرس بعد ذلك، وسكنها العرب، وعرّبوا اسمها الروماني الذي يعني (حلبة الخيل) إلى (قرقيسيا). ثم فتحها المسلمون في سنة ١٦هـ في عهد عمر بن الخطاب بعد فتح حمص وحماة وحلب، وقد سيّر أبو عبيدة قائده (عياض بن غنم) لفتح بلاد الجزيرة والفرات، ففتحها، وأسلم عدد كبير من أهلها سنة ٢٢هـ.

وفي أثناء العهد الأموي أصبحت قرقيسيا مركزاً للقيسيين وزعيمهم زفر بن الحارث الكلابي، وفي العصر العباسي دخلت قرقيسيا في طاعة العباسيين. ولأهميتها الإستراتيجية والعسكرية استولى عليها الحمدانيون، والطولونيون، والسلجوقيون، والأتابكة، والأيوبيون، والمماليك.

دورا أوروبوس (صالحية الفرات):

تبعد عن مركز مدينة دير الزور ٩٠كم شرقاً، وتدل الكتابات المسمارية المكتشفة في أحد معابدها على أن اسمها القديم هو دامار، وأنها تعود إلى بداية الألف الثاني قبل الميلاد. وقد سكنها العموريون. ثم دانت للرومان. فوكل إمبراطورها (هادريان) ١١٧-١٣٨م إدارة المدينة إلى مملكة تدمر، ومنذ ذلك العهد ارتبط مصيرها بتدمر. وكانت فيها جالية تدمرية كبيرة؛ لذا فإن جميع



الآثار التي وجدت فيها من طراز تدمري وروماني. أما الكتابات فأغلبها يوناني، وبعضها تدمري ولاتيني.

دانت المدينة للسيطرة التدمرية في عهد أذينة وزنوبيا، عندما امتد نفوذها إلى الفرات، ومع ظهور السلالة الساسانية عام ٢٢٧م تجدد العداء ثانية مع الرّومان، واستطاع السّاسانيون أن يحفروا نفقاً سرياً خارج أسوارها، فدارت معركة حاسمة أدت إلى سقوط المدينة على أيديهم عام ٢٥٦م، ومنذ ذلك التاريخ أسدل السّتار



الجسر المعلق من أهم معالم دير الزور



جانب من مظاهر الحياة في دير الزور

عليها حتى عام ١٩٧٣م، فقد ساعدت مؤسسة (روكفلر) من خلال الحفريات على اكتشاف المدينة التي ازدهرت في عهد الفرس، فكُشف عن قصر أمير المدينة، واثني عشر معبداً، وعن القلعة والساحة، وعدة حمّامات تغطي أرضيات بعض غرفها الفسيفساء، وسقوف ومنازل، وهياكل تدمرية، ومسرح كبير.

مدينة ماري (تل الحريري):

تقع آثار مدينة ماري على بعد أحد عشر كيلومتراً شمال غربي البوكمال (مدينة تابعة لمحافظة دير الزور)، ويطلق على التل الذي ترقد فيه مدينة ماري اسم (تل الحريري). وأكدت التنقيبات أن هذا الموقع هو نفسه مملكة ماري التي يُذكر في كثير من المصادر التاريخية أنها كانت مقراً للسلالة المالكة العاشرة بعد الطوفان، وتم تدميرها من قبل حمورابي - ملك بابل - بأمر من الآلهة (أنووانيل) سنة (٣٥) من حكمه. وقد كشفت الحفريات كثيراً من المعابد، وقصراً ملكياً، وبيوتاً سكنية، وتماثيل، ورسوماً جدارية ملونة، وقطعاً من موازييك الصدف، ومكتبة تحتوي على أكثر من عشرين ألف لوحة مسمارية.

أما القصر الملكي فقد اكتشف عام ١٩٣٥م، ويعدّ من أهم القصور في بناء الشرق القديم، وقد قال عنه الأب فنسان: «إنه درّة العمارة الشرقية القديمة»، وقد ذاعت شهرته منذ الألف الثاني قبل الميلاد، وتمنى عدد من الملوك أن يلقوا نظرة عليه، وقد أرسل ملك أوغاريت أحد أولاده إلى ماري ليأخذ فكرة عنه، وينقل إليه ما يشاهده. ووجد المنقبون أن تحت القصر قصراً آخر أبعد تاريخاً؛ إذ يعود إلى ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد، وهو مؤلف من طابقين،

ويختلف عن قصر (زمر ليم). كما كشفت التنقيبات عن عدد من المعابد المهمة: مثل: معبد عشتار، ومعبد شمس، ومعبد داغان الذي سمي بمعبد الأسود لوجود أسدين من البرونز كانا يقومان عند المدخل . وعثر فيه على عدد من التماثيل والأسود الصغيرة، والتماثيل الحجرية والبرونزية التي تمثل الفن الشرقي القديم، كتمثال ربة الينبوع، وتمثال المغنية أورنينا.

وفي الألف الثاني قبل الميلاد أصبحت ماري إحدى الممالك المهمة للعموريين، وذات نفوذ سياسي واقتصادي، وتدل الكتابات المسمارية المكتشفة على أسماء ملوكها، وهم: ياعذ ليم، وابنه يحرون ليم، وأخوه سومر وزمر ليم . ثم استولى عليها الآشوريون. وقد التجأ زمر ليم إلى ملك يمحاض (حلب) بعد مقتل أبيه، واستطاع أن يعيد الملك، ويطرد الآشوريين، وبعدها أرسل الملك حمورابي حملته الأولى واحتل ماري، لكن سكان ماري استطاعوا قتل الحامية البابلية، فوجه حمورابي حملته الثانية ليحرقوا ماري، وبهذا زال آخر ملوكها عام ١٧٥٠ ق. م، لتخضع ماري بعد ذلك إلى السيادة الآشورية في عهد ملكهم توكوتي نينورتا، ويسدل الستار بعد ذلك على تاريخها العريق.

حلبية وزلبية:

تقع حلبية وزلبية شمال غرب دير الزور على بعد ٥٨ كم، وأقدم ذكر للموقعين يعود إلى القرن التاسع قبل الميلاد في زمن الملك الآشوري (آشور ناصر بال) الذي قام بإنشاء حصنين على الفرات الأوسط، وهما حصنان قريبان ومتقابلان على ضفتي الفرات، أصاب حلبية وزلبية الخراب في زمن آشور ناصر بال عام(٨٥٨) قبل الميلاد حينما تمردت عليه. وقد استولى عليها الكلدانيون بعد أن قضوا على الآشوريين في معركة كركميش عام ٦١٢ ق.م. وقضى الملك فورش على حكم الكلدانيين، وحكمها فترة من الزمن، ثم هيمن عليها التدمريون في عهد زنوبيا، ولكن الإمبراطور خشي توسع نفوذ زنوبيا: فحاصر تدمر عام ٢٧٢م، فهربت زنوبيا إلى دير الزور، كما يذكر المؤرخ العراقي جواد علي في كتابه «تاريخ العرب قبل الإسلام»، وفي دير الزور أدركتها قوة رومانية بينما كانت تتأهب لأخذ قارب ينقلها إلى الضفة الثانية للنهر؛ فأسرها أورليانوس عام ٢٧٣م[١].

و قد ذكر الواقدي والطبري أن نفقاً يصل بين حلبية وزلبية كان موجوداً عام ٦٤٠ م/سنة٢٠هـ. وقد احتلها الجيش العربي الإسلامي بقيادة (عياض بن غنم) وسموا الموقع «بالخانوقة»؛ لأن النهر وهو يمر من تحتها يكاد يختنق، وفي الاجتياح المغولي هاجمها المغول ودمروها تدميراً كاملاً، وخبا نورها منذ ذلك التاريخ.

بدأت الدراسات عنها منذ منتصف القرن التاسع عشر على أيدي علماء ألمان وفرنسيين وأمريكيين، وفي عام ١٩٤٤- ١٩٤٥م جاءت بعثة من جامعة (ييل) الأمريكية، ثم قام بالتنقيب عنها بعد ذلك لاوفري- العالم الفرنسي، وفي عام ١٩٧٤م قام بدراسة بعض أبراجها وسورها دابنمان - الخبير الألماني، وفي عام ١٩٨٢م قام لاوفري - العالم الفرنسي - مرة ثانية بدراستها لأهميتها التاريخية.

وهناك مواقع تاريخية وأثرية ربما كانت أقل أهمية مما ذكرنا، ولكنها تبقى شاخصة ناطقة بحركة الحضارات الأولى للبشرية وازدهارها في هذا الوادي العريق «وادي الفرات»؛ لتتحقق مقولة المؤرخين والجغرافيين ودارسي الحضارات: إن الحضارات العظيمة قامت على ضفاف الأنهار العظيمة.

ولا بد لنا - بعد هذه الإطلالة على المعالم، والآثار، والاكتشافات، والحفريات - من إطلالة أخرى على التراتبية التاريخية والتسلسل الذي خضعت له هذه المنطقة؛ ليكتمل لدينا التصور التاريخي والمعرفي والسيرورة الحضارية.

يذكر التاريخ أن السومريين استوطنوها في النصف الثاني من الألف الرابع قبل الميلاد، ثم جاء الأكاديون عام ٢٤٠٠ ق.م، ثم العموريون - وهم من الأقوام العربية السامية الأولى التي هاجرت من شبه الجزيرة العربية - عام ٢٣٠٠ ق.م، ثم البابليون والآشوريون عام ١٣١٠ ق.م، والفارسيون عام ٥٣٩ ق.م، والسلوقيون

صرحت البعثة الأمريكية عام ١٩٧٦م على لسان كيللي بو تشلاني - العالمة الأثرية - بأن آثار ترقا من الوثائق التاريخية التي تدل على عظمة المنطقة العربية



آثار تفصح عن حضارة عريقة



عام ٣٠٠ ق.م، ثم الرومان حتى مطلع القرن السابع الميلادي، ثم دخلت الإسلام في عهد الخليفة عمر بن الخطاب على يد عِياض بن غَنْم - القائد العربي، وبقي من قبيلة تغلب عددٌ كبير لم يدخل الإسلام، ففرض عليهم الخليفة عمر الجزية، وقد جاء: «أما أكثريتهم فتمسكوا بالنصرانية، وأبوا كل الإباء أن يدفعوا الجزية، وعدّوا أداءها سُبّة، وأرسلوا وفداً منهم إلى عمر بن الخطاب يطلب إعفاءهم منها، ويدل ما دار بين الخليفة والوفد على شدة اعتداد القبيلة وقوة شعورها بالعزة والإباء، فقد قالوا لعمر حين طلب منهم أن يؤدوا الجزية: أبلغنا مأمننا، والله لئن وضعت الجزاء لندخلن أرض الروم، والله لتفضحنا بين العرب، فقال: أنتم فضحتم أنفسكم، وخالفتم أمتكم فيمن خالف، تالله لتدفعنها وأنتم صَغَرة قَمَأة، والله لئن هربتم إلى الروم لأكتبن فيكم، ثم لأسبينّكم. قالوا: فخذ منا شيئاً، ولا تسمه جزاء، فقال: أما نحن فنسميه جزاء، وسموه أنتم ما شئتم.

ويروي البلاذري أن عمر بن الخطاب حين أراد أن يأخذ منهم الجزية انطلقوا هاربين متجهين إلى أرض الروم، فقال له النعمان

ابن زرعة: أنشدك الله في بني تغلب؛ فإنهم من العرب يأنفون من الجزية، وهم قوم شديدة نكايتهم، فلا تعن عدوك عليهم بهم، فأرسل عمر في طلبهم، وأضعف عليهم الصدقة، وألا يتشبه أحدهم في لباسه ولا في مرتبته وهيئته بالمسلمين».

ولا تشير المصادر التاريخية إلى مشاركة القبائل الفراتية في الفتن والأحداث التي حدثت في عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان - رضي الله عنه، ولكن بعد تولية الإمام علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - الخلافة أشارت المصادر التاريخية إلى انحياز قبيلة تغلب إلى جانب معاوية بن أبي سفيان، ومشاركتهم في حروبه ضد الخليفة، ولحسابات تغلب الخاصة - باستثناء قبائل قيس عيلان، وعلى رأسهم قبيلة كلاب الذين كانت حاضرتهم «قرقيسيا» - فقد حاربوا الأمويين طويلاً.

أدرك العباسيون أهمية دير الزور الجغرافية، والاقتصادية، والسياسية، والعسكرية، والثقافية، فكانت الرقة مصيفاً للرشيد، وكان الشعراء والكتاب يؤمون بلاطه. كما كانت الرحبة فيها عهد واليها مالك بن طوق التغلبي واحة فكر وأدب وفن، وكان كبار الشعراء يحضرون إليها أمثال أبي تمام والبحتري. وفي عهد الخليفة العباسي المقتدر سار أبو طاهر القرمطي - صاحب البحرين - إلى الكوفة سنة ٣١٥هـ، وبلغ الرحبة ودير الزور، وفتحها عنوة، وقتل كثيراً من السكان، وبقي فيها قرابة سبعة أشهر، ثم خضعت دير الزور إلى سلطان الطولونيين في عهد خمارويه عام (٨٨٤ -٨٩٥م)، وآلت إلى الفاطميين (٩٦٩م /٤٨٤هـ) في عهد الخليفة المعز على يد القائد جوهر الصقلي الذي طرد الإخشيديين من سورية.

وفي عام ٩٧٠م خضعت دير الزور إلى السلاجقة على يد القائد السلجوقي «كربوقا» الذي جاءها من الموصل، ودخل الرحبة، ونهبها. ولما آلت دير الزور إلى عماد الدين الزنكي عام ١١٢٨م أوكل إليها

سيطر هولاكو على منطقة دير الزور عام ١٢٥٩م، ثم استعادها الظاهر بيبرس، ثم غزاها التتار، ثم تيمور لانك عام ١٤٠٠م

دير الزور بليدة صغيرة، وهي راكبة ضفة الفرات الغربية، وسكانها يبلغون ألوفاً، ومنهم بضع مئين من النصارى

أحد مماليكه واسمه جاولي، ثم أقطعها نور الدين محمود بن عماد الدين الزنكي إلى أسد الدين شيركوه (عم صلاح الدين الأيوبي)، وبقيت دير الزور والرحبة بيد عائلة شيركوه قرناً من الزمن.

سيطر هولاكو بعدها على المنطقة عام ١٢٥٩م، ثم استعادها الظاهر بيبرس، ثم غزاها التتار، ثم تيمور لانك عام ١٤٠٠م. وهكذا وبعد الغزوات والحروب المتعاقبة من قبل التتار وغيرهم فإن كل المدن الواقعة على ضفاف الفرات والخابور التي كانت عامرة في الماضي أخذت تضمحل وتتلاشى، يضاف إلى ذلك العوامل الاقتصادية التي ساهمت في هذا الاضمحلال، ومن بينها اكتشاف رأس الرجاء الصالح الذي حول طريق الهند عن اتجاهه الأصلي. هذا الطريق الذي كان يصل مدن الفرات بالعراق. ولم تشذ دير الزور عن هذه النهاية المحزنة، ولم ترحم غزوات الأتراك ما تبقى في المدن الفراتية من بقايا حضارة واقتصاد، فأصبحت شواطئ الفرات عام ١٥١٦م خالية خاوية، وتحول طريق الهند إلى الشمال نحو بحر قزوين، وإلى الجنوب نحو الإسكندرية، وهدّمت جميع السدود والمشروعات المتعلقة بالسقي والزراعة، وازداد عمق الصحراء.

وفي عام ١٥٧٣م زار دير الزور ليونرد رومولف - الطبيب والعالم الألماني، وكان فيما ورد عن هذه الزيارة: «قصد بلدة (بيرجيك) على ضفة الفرات الشرقية، ومنها نزل في الفرات على قارب في طريقه إلى الفلوجة في العراق على ضفة الفرات الغربية، وحط في دير الزور، ولبث فيها ثلاثة أيام، وقد وجدها بلدة صغيرة مهملة يحكمها الأتراك، وكانت بيوتها متلاصقة في تل على الضفة اليمنى تحيط بها جدران وخنادق ..... وصف سكانها فقال: إنهم أقوياء البنية والأعضاء، الشعر أسود قاتم، وأخلاقهم مهذبة تستأنس بالغريب، وكانت محصولاتهم الحنطة والشعير والقطن والذرة، وكانت بساتينهم حافلة بأنواع الفواكه،

وكانت مخاضة الفرات من جانبي الحويقة قليلة العمق فتلجئ أصحاب الزوارق إلى تخفيف حملها لئلا تتوحل، وهناك نوع من الشجر أشبه بالصفصاف يسميه السكان (غَرباً) ينتشر على الشواطئ، وينمو بكثرة، وقلما يرتفع عالياً».

و يذكر الباحث عبد القادر عياش أيضاً زيارة الأب يعقوب فيلوت اليسوعي وتلميذه إلى دير الزور بتاريخ ١٦ إبريل/ نيسان عام ١٦٩٦م وقد أتيا من القسطنطينية، وكان الاثنان جائعين إذ وقعا بأيدي قطاع الطرق، فيصف الأب مدينة دير الزور بقوله: «لقد وصلنا مسرعين إلى دير الزور، حيث كان البدو يطاردوننا، ودير الزور قرية فقيرة قائمة على الفرات، ويحكمها أحد البكوات العرب باسم سلطان الأتراك، ويتقاضى هذا البيك ديناراً ذهبياً عن كل مسيحي يمر بدير الزور»، كما يذكر الباحث العياش زيارة المستشرق والدبلوماسي الفرنسي لويس جاك روسو دير الزور عام ١٨٠٩م، ووصفها في كتابه (باشوية بغداد) فقال: «إنها قرية خاملة الذكر، وفيها بيوتات العرب، وكانوا في الظاهر خاضعين لباشا بغداد، وبالحقيقة مستقلين».

و في ١٥ مايو/ أيار عام ١٨٣٦م، وصل إلى دير الزور فرانسيس تشسيني - الكولونيل والملاح البريطاني، وهو أول من خاض الفرات بمركب بخاري، وقد وصف رحلته في كتابه (رحلة دجلة والفرات) المطبوع في لندن عام ١٨٥٠م، ووافق مرور تشسيني بالدير زحف الجراد عليها، ونعت شاطئ الفرات (الزور) بالأرض السوداء، ولم يلاق من أهلها إلا كل ولاء وصداقة، ووصف دير الزور بقوله: «إن الدير القديمة تحوي زهاء ألف بيت مبنية على تل عالٍ بشكل المخروط، مرتفعة على جانب الفرات الأيمن تجاه طرف الحويقة الشرقي الواقعة بين النهر والترعة، وهذه الترعة فتحت لتخفيف شدة مياه الفرات في سرعتها نحو الشرق، وهي محكمة الحفر صالحة للملاحة». فاجتازها من غير عقبة، وأرسل الكولونيل من الدير رسالة إلى حلب مبشراً بوصوله إلى تلك المحطة «الدير» بالسلامة، وسبر إبان رحلته على الفرات أغوار المياه، وقاس أعماقها، ودونها في الخريطة التي رسمها للنهر، وأشبع بها مؤلفه الكبير عن الرافدين.

وخلال معارك محمد علي باشا مع السلطة العثمانية، وقيام القوات المصرية بقيادة إبراهيم باشا باحتلال سورية في الثلاثينيات من القرن التاسع عشر، أصبحت دير الزور تحت الحكم المصري، وعين إبراهيم باشا حاكماً باسمه يدعى (معجون آغا) ومعه قائد عسكري يدعى (قفطان)، وأتبعها إلى سنجق حماه، وانتهى حكم إبراهيم باشا عام ١٨٦٣م فحكم شيوخ القبائل دير الزور .

وفي عام ١٨٦٤م ينهي ثريا باشا - والي حلب - حكم شيوخ القبائل بدير الزور، ويتبعها إلى ولاية حلب، ويعين عمر باشا متصرفاً عليها. وفي عام ١٨٧٠م يجري المتصرف أرسلان باشا التقسيمات الإدارية في محافظة دير الزور كما يأتي: (قضاء الرقة، قضاء السبخة، قضاء العشارة، قضاء البصيرة، قضاء البوكمال، قضاء الشدادي، قضاء الحسكة، قضاء سنجار، قضاء نصيبين، قضاء راس العين، قضاء ويران شهر، قضاء مسكنة)، وتبقى تابعية لواء الزور إلى حلب، ثم ما تلبث التابعية أن تحولت إلى عاصمة الخلافة؛ نظراً إلى أهمية دير الزور الكبيرة.

وفي أكتوبر/ تشرين الأول عام ١٨٩٠م وصل دير الزور السر والس بج - عالم الآثار الإنكليزي الذائع الصيت، فيقول: «وصلنا دير الزور أو الدير، وهو الاسم الذي يطلقه أهلها عليها . لم تنتظر مطايانا إلى أن تنزل الأحمال عن ظهورها، بل اندفعت نحو النهر ترتوي من ماء الفرات المونق، وشربت منه، وكأنها لم تشرب في يوم من الأيام ماءً. ودير الزور بليدة صغيرة، وهي راكبة ضفة الفرات الغربية، وسكانها يبلغون ألوفاً، ومنهم بضع مئين من النصارى. إن تاريخها القديم غامض مجهول، ولكن لو احتكمنا إلى سعة المقالع الكائنة على مقربة منها، وإلى بقية سد عظيم قائم على الفرات، وإلى سدة متينة البناء كائنة على ضفته لأدركنا أنه لا معدى عن أن مدينة عظيمة زاهرة قامت في موضعها إبان القرون النصرانية الأولى»[٨].

أدرك العباسيون أهمية دير الزور الجغرافية، والاقتصادية، والسياسية، والعسكرية، والثقافية، فكانت الرقة مصيفاً للرشيد، وكان الشعراء والكتاب يؤمون بلاطه

بقيت دير الزور تحت الحكم العثماني حتى عام ١٩١٨م عندما غادرها حاكمها العثماني المتصرف حلمي باشا، لتخضع فترة للحكم العربي، ثم ما لبثت أن وقعت تحت الانتداب الفرنسي حتى الاستقلال وانسحاب الفرنسيين في عام ١٩٤٦م، لتخضع بعد ذلك لحكومات وطنية متعاقبة.

ولابد في نهاية البحث من الإشارة إلى أهم الشخصيات الفراتية التاريخية في الحقل الفكري والأدبي، كالشاعر التغلبي عمرو بن كلثوم صاحب المعلّقة، والأخطل الشاعر النصراني المعروف، والفارعة بنت طريف، والعتّابي، وأبي زبيد الطائي، والشاعر العباسي دعبل الخزاعي، وعبدالحميد الكاتب، ومالك بن طوق أمير وشاعر كبير، والشاعر العشاري الذي توفي عام ١٧٨٠م، وتوالى بعده الشعراء والمفكرون الذين مازالت تزخر بهم هذه المدينة العامرة، وهذا الينبوع الثقافي الثر.

هذه إلمامة عجلى وإطلالة سريعة على تاريخ هذه المنطقة وتراثها، وهي منطقة غائرة في الماضي، وحاضرة في الواقع، وقادرة على الإبداع والتوليد الفكري والفني في المستقبل.

الهوامش والمراجع

١-محمد رشيد رويلي، الحركة الثقافية في محافظة دير الزور، دار صائب، ط١، ص ١٧-١٨.

٢-المكتبات في مدينة ماري وترقا تضاهي كبرى مكتبات العالم، كما تدل عليه الوثائق التاريخية.

٣-تجنّبنا الأسماء القديمة اختصاراً وابتعاداً عن الإطالة، ووقفنا عند معاني الاسم الأخير وهو الأكثر شهرة.

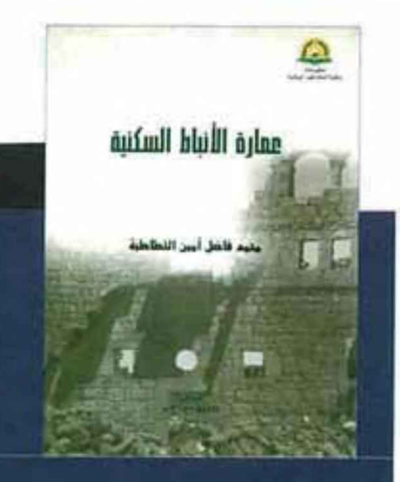
٤-محمد رشيد رويلي، الحركة الثقافية، ص٦٣. وانظر فئة من المؤلفات، المعجم الجغرافي السوري، دمشق ١٩٩٣م، مركز الدراسات، ج٢، ص ٣٩٩ – ٣٩٧.

٥-محمد رشيد رويلي، الحركة الثقافية، ص ٤٤. وانظر: دير الزور ماضٍ عريق وحاضر مشرق، مجموعة من الباحثين، ص ١٠٣- ٢٧٨.

٦-محمد رشيد رويلي، الحركة الثقافية، ص٢٧ .

٧-جواد علي: تاريخ العرب قبل الإسلام، دار العلم للملايين، بيروت، مكتبة النهضة، بغداد، ج٢، ص ١٢٢.

٨-محمد رشيد رويلي، الحركة الثقافية، ص ٧٠.



الخطاطبة، محمد فاضل أمين/ عمارة الأنباط السكنية.. الرياض، مكتبة الملك فهد الوطنية، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م، ٦٤٥ص.

تناول هذا البحث دراسة المساكن النبطية دراسة آثارية مفصلة في الحقبة الممتدة من القرن الثاني قبل الميلاد إلى القرن الثاني الميلادي، إذ كشفت التنقيبات خلال العقدين الأخيرين عن كثير من بقايا هذه المباني في أنحاء الدولة النبطية كلها: النقب، والبتراء، وخربة الذريح، والحجر، وإثرة، وأم الجمال، وغيرها.

وتنبع أهمية الدراسة من كونها أولى الدراسات العلمية التي تصف هذه المساكن، وتحلّل عناصرها المعمارية؛ وذلك لمعرفة مدى أصالتها، وما دخل عليها من العناصر الوافدة نتيجة الاحتكاك والتبادل الثقافي مع المجتمعات المحيطة.

وتهدف هذه الدراسة إلى معرفة مخططات المساكن ودراستها وتحليلها؛ لمعرفة أهم عناصرها، ووظائفها، ومدى تأثير الموقع في تخطيط المسكن وتصميمه، كما تهدف أيضاً إلى معرفة تأثيرات البيئة الطبيعية الثابتة في تصميم المسكن؛ مثل: تأثير المناخ (الحرارة، والرياح، والرطوبة)، وطبيعة سطح الأرض، وتوافر المواد الأولية للبناء من الحجارة ونوعيتها، والأخشاب وعلاقتها بتصميم البناء وتكاليفه، إضافةً إلى بيان مدى تأثير العوامل المتغيرة في المسكن؛ مثل: العوامل الاقتصادية، والاجتماعية، والسياسية. وقد تكوّنت الدراسة من مقدمة، وأربعة فصول، وخلاصة، وعدد من اللوحات والأشكال والخرائط؛ كثير منها يظهر أول مرة. اشتمل الفصل الأول على خلفية تاريخية، وخُصّص الثاني لوصف المسكن في مناطق الدراسة. أما الفصل الثالث، فقد اشتمل على تحليل المعلومات الوصفية، بينما تضمن الرابع مقارنة المساكن النبطية مع مساكن المناطق المجاورة، ثم خُتم البحث بخلاصة تضمنت النتائج التي توصلت إليها الدراسة.





جون ويكهام

ترجمة : فاتن عبدالرزاق مسعود أبو صالحة

الطائف - السعودية

منذ ٣٥ عاماً، جلسنا أنا و(جورج ساميتر) في الصف نفسه بعضنا بجانب بعض في المرحلة الابتدائية.. لقد كنا أصدقاء، وأعني بذلك أنه كان منبسطاً معي، كما كنت منبسطاً معه.. وكما ترى أنني أستخدم كلمة (صديق) بإحساس طفل ساذج وواثق.

الآن قبل أن أستخدم كلمة صديق يجب أن أنظر إلى الخلف وأسأل: هل كانت الأشياء الموجودة تستحق التسمية؟ أنا لا أطالب بالكثير.. ولكنني في الماضي كنت أكثر سذاجة وأقل حذراً. عندما سرنا من المدرسة إلى المنزل، وتشاركنا في فطيرة السمك وفطيرة السكر، وقتئذ لم أسأل: هل كانت الأشياء التي اشتركنا فيها معاً تستحق ادّعاء مثل هذه الكلمة «الصداقة»؟

قابلت جورج اليوم في سوق الحليب.. بعد أكثر من ثلاثين عاماً.. وما صدمني هو ردة فعلي للقائه بعد تلك السنوات. لقد كنت أقابل وأرى رجالاً سبق أن كانوا معي في المدرسة، وكما يقال في العامية: (لقد حققوا لأنفسهم مناصب رفيعة)، فمنهم محامون، وأطباء، وسياسيون، أحدهم كان رئيساً للقضاة، ومستشاراً.. وأحياناً وحسب المناسبة وملاءمتها ووقتها ليلاً أو نهاراً، وحسب طبيعة الناس الذين حولنا، ودرجة رزانتهم، وطبيعة المكان الذي نحن فيه، كانوا حين يرونني إما أن يلقوا عليّ التحية، وإما أن يتجنبوا النظر إليّ، مديرين عيونهم عني نحو واجهة محل ما حسب الوضع الذي نكون فيه.

كنت دائماً أشعر بالغضب الشديد والمخجل عند مقابلتي هؤلاء الناس بالمصادفة، أحتقر نفسي، وأخطط دائماً للهروب من غضبي وسخطي في ذلك النهار، أو تلك الليلة.. هؤلاء البشر، إنهم لا يعرفون ماذا يصنعون بي؟

ذلك هو سبب قولي من دون خوف: إن جورج (صديقي).. إن رؤيته أسعدتني بطريقة مفاجئة، لقد كنت معه في المدرسة فرحاً وممتناً لأجل نفسي، وبطريقة ما لبساطة ذكرى مشاركته في الحياة وتجاربها وحلاوتها عندما كنا صغاراً.

أتذكر بكل وضوح ذلك الصباح الذي حضر فيه جورج إلى المدرسة للمرة الأولى، لقد جاء متأخراً، وكنا قد انتهينا من نشيد الصباح.. عند رؤيتنا والده يقوده عبر غرف المدرسة متجهاً إلى المنبر حيث مكتب المدير، لقد عرفت أن (جورج) كان خائفاً من طريقة إمساكه يد والده، وشعرت بالأسف لتفاهة احتياجه إلى يد يقبض عليها فيما بدا لي أنه ليس في محنة عظيمة.

والآن أتذكر أنني في ذلك الوقت أحسست لحظة بأنني أحسده لوجود يد حانية يقبض عليها.

رحب المدير بوالد (جورج) بحرارة، وكان واضحاً أنهما صديقان، وأن (جورج) سيكون واحداً من الذين يعاملون معاملة خاصة؛ لكونه ابن صديق المدير، ذلك جعلني أغضب كما أتذكر، ومما زاد غضبي هو أن (جورج) وضع في الصف الثاني مباشرة، كان ذلك يبدو تفضيلاً رهيباً، ولكنه لم يدم طويلاً، ففي الصباح التالي وجدنا (جورج) بيننا - نحن المساكين - في الصف الأول، فقد كان أساس وضعه في مرحلة أعلى هو قدرته على القراءة جيداً، ولكن سرعان ما اكتشف المعلم أنه لا يستطيع حل المسائل الحسابية، وكان ذلك لا يفتقر أساساً حتى في وجود مهارات أخرى؛ لذا أنزلت مرتبته، أجلسوه بجواري، وكان يبكي خجلاً ممن حوله، وكنت أرغب في أن أريحه، ولكني لم أعرف كيف، كان لديه لوح كتابة جيد، وقلم رصاص جيد (الذي لسبب ما لم يكن يكتب).

كنت أمتلك علبة سجائر قديمة مملوءة بنهايات أقلام رصاص. إذ إنني طوال أيام دراستي لم أمتلك قط قلماً كاملاً؛ لذا أعطيته واحداً. وأريته كيف يلعق رأس القلم بلسانه ليجعله يكتب. ومنذ تلك اللحظة لم أنقطع أبداً عن الافتخار بنفسي لتلك الإيماءة البسيطة. ذلك أنه لم يسبق لي عمل شيء في حياتي أسعدني أكثر. لقد جاء (جورج) من الريف وأحضر معه الإحساس بالتعجب والرعشة لمنظر المدينة.

مدرستنا مدرسة الفقراء. كانت في وسط الشارع الخلفي القذر. كانت شوارعها مملوءة بقشور الفاكهة المفعمة بروائح العفن. والفواكه العفنة المسببة للإغماء. وعلى مدخل شارع (ستيل) وقفت السيدات القادمات من شارعي (دومينيكا، ولبوكا) المتحدثات باللهجة العامية يحرسن براميل المانجو وأكياس الفحم النباتي. جميع أنواع البهارات تنشر عطرها في الهواء. وفتيات المدينة ملأن أفواههن بالذهب واللعنات. يلعن بوقاحة، ويتبخترن على طول الطريق الرطب.

لقد أحب جورج كل ذلك. بينما لم أحبه أنا قط. فلقد عشت حياتي في هذا الشارع القذر؛ لذا مساء كل يوم، وبعد الانتهاء من المدرسة كنت أحاول إقناع جورج بأن نسلك الطريق المواجه للبحر. حيث يمكننا مشاهدة المراكب الشراعية. ورجال البحر بوضوح. وهم يدخنون على سطح المراكب. أو يقومون بصيد السمك وهم يقفون على حواف المراكب. فرائحة البحر قدمت لي وعوداً أكثر. ومناظر أكثر وضوحاً من تلك المحجوزة في شارع ستيل. ولكن الأوساخ والقذارة فتنتا جورج. الستائر المصنوعة من الخيش التي غطت أسرة الشارع. الأضواء الغازية المدخنة. الكلاب النصف الجائعة التي تركل من جانب الشارع إلى الجانب الآخر. كل ذلك كان يفتنه. وكان يقضي الساعات وهو يستمع إلى الصراخ والشتائم التي تتطاير عبر الشارع. فيتأخر عن الحافلة التي تقله إلى البيت.

في تلك الأيام كان يملك بساطة أولاد الريف. وفقدان الإحساس بالطبقية. وكنت أفخر بنفسي لذكائي ومعرفتي بالشارع الخلفي. وبطرفات المدينة التي كنت أريها لجورج. وكان يكافئني بقوله: إنه يجد كل ما أريه إياه فاتناً.

كانت والدتي تكسب رزقها بواسطة الغسيل للناس. وبيع فطائر السكر وفطائر السمك أمام باب منزلنا. وكما سبق أن ذكرت كل ظهر يوم بعد المدرسة كنت أراوغ جورج كي لا يعبر من أمام منزلنا ونحن في طريقنا إلى الحافلة التي تقله.

من السهل القول. إنني كنت خجلاً. ولم أرغب في أن يرى جورج مكان معيشتي تلك. كانت هذه الحقيقة في البداية فقط. ولكنها كانت أكثر من ذلك كما أظن. لقد كان شارع (ستيل) مكاناً قذراً ووسخاً لم يكن أبداً نظيفاً.

عشت هناك. وذلك لعدم وجود مكان آخر أعيش فيه. ولكنني كرهت المكان. وكان هناك سبب آخر لرغبة جورج الدائمة في المرور أمام منزلنا بحيث لم أشك بها أبداً!.. ولكن والدتي هي التي أخبرتني مساء ذات يوم. عندما عدت وحيداً فقالت لي: إنها تعتقد أن جورج معجب بأختي فلوريانا.. مثل الحقائق الكبيرة الأخرى. بمجرد أن علمت بها أدركت أنها حقيقة لا تحتاج إلى التساؤل. ولم أتمكن من فهم عدم مقدرتي على رؤيتها من قبل. لقد كان جورج يرسم جيداً. إذ كان يملأ كتبه برسومات لفلوريانا. ويطلب مني إعطاءها تلك الرسوم.. وبقدر ما أذكر لم يكن يتحدث معها سوى بكلمات قليلة. وذلك عند التقائهما في الشارع.. قبل المدرسة أو بعدها.. فقد كانت أختي تذهب إلى مدرسة الطالبات القريبة من الكنيسة؛ ولأن ذلك كان في طريقنا للبيت فقد كانت تحاول جاهدة مقابلتنا.

بعضهم بدأ بملاحظة ذلك. مثل والدتي.. وفي الحال أصبح جورج ضحية لسخرية فظة وقاسية جداً من قبل الأولاد. وهذا ما أدى إلى إنهاء العلاقة بيننا. في الوقت الحاضر. أجد صعوبة في قول كل ذلك. ربما لأنه حدث منذ زمن بعيد جداً! ولأنه (على الرغم من كون هذه التجربة مازالت في ذاكرتي ومهمة. وتحتوي على خلاصة وقتنا ومكاننا) كانت تساورني الشكوك في أنها أوقات تافهة. ولا تستحق الأهمية التي أعطاها قلبي لها.

لقد عرفت الآن أنني كنت محقاً. وأن تلك الحادثة التافهة التي مر عليها أكثر من ثلاثين عاماً فتحت عيني على حقائق كثيرة. فقد كان يمتعني دائماً تلميح الناس إلى الموضوعات الجسدية كحقائق الحياة. بمعنى أن الطفل الذي يدركها لا يعود طفلاً بعد ذلك. ولكن تلك الحقائق الجسدية بسيطة وطبيعية.. فاللقاء بين الرجل والمرأة ونتيجته من تناسل البشر يحتوي على كثير من الغموض. ويحتاج إلى توضيح أكثر من تلك العادات والقيم التي تعلمنا منها التمييز بينهما. ومع ذلك لا أحد يحاول شرح تلك الحقائق للطفل. فيُترك أمام الأبواب المغلقة



ليرتكب بعد ذلك أخطاء فادحة في وحدته القاتلة.. ثم ليتجول مذهولاً إلى الأبد حيث لا العمر ولا التجارب تنجح في إنقاذه في المستقبل.

مضايقات الصبيان لجورج لم تكن حقودة. ومع ذلك لم أكن متأكداً. فربما فيما بعد أصبحت أكثر من مجرد نشر للحقائق. تحتوي على إدراك ووعي لما يحدث بين جورج وأختي. فقد كان ذلك يقلق أي توازن للنظام الاجتماعي. ويجعله غير مناسب أو مقبول. فلم يكن الأمر أنهم رفقاء سيئون. أو أنهم يقصدون الأذى. ولكنهم توصلوا إلى الطريق التي يعرفونها لإظهار معارضتهم ونقدهم بلا وحشية أو إحساس بالألم. وإن كانوا يضحكون وهم ينشدون (جورج مثل فتاة حافية القدمين). ولم يدركوا مدى هذه السخرية. فأغلبهم كانوا حفاة الأقدام. ثم زاد تكرار النشيد في كل مناسبة. حتى أصبحت الحقيقة السهلة توبيخاً. ثم اتهاماً. ثم كاللعنة الوحشية.. يسمع النشيد الآن في أذنيه كأجراس فرحة النصر (جورج مثل فتاة حافية القدمين). عند زاوية الكنيسة في طريق عودتنا من المدرسة كان يتعقبنا صبيان ليرددوا نشيدهم. حتى باتت تلك الكلمات تلخص قصة مجتمعنا كاملاً بلا توضيح.. وتقف مثل جبل مظهره أفكار البشر. إجمالي عواطفهم وأفكارهم الوحشية الفظيعة نحو تصرفاتنا.

(جورج مثل فتاة حافية القدمين).. لازمتني تلك الأنشودة كالصدى تتردد في ذاكرتي. وحتى الآن مازلت أحس بالغضب العاجز الذي أصابني. وكان جورج خائفاً وعاجزاً معاً. فلم يسبق له أن مر بتجربة كهذه من قبل. ورعبه الواضح جعلني أتصرف بما أستطيع لمساعدته تصرفاً أوضح جهلي بعالم الكبار وتصرفاتهم.

في صباح ما. جاءني جورج لانتظاري كالمعتاد. وبينما كنت أستعد للذهاب إلى المدرسة. وكنت أبتلع سريعاً إفطاري المكون من البسكويت. وبينما كان جورج ينتظر أمام الباب. ظهر أربعة صبيان عند الزاوية. وأحس جورج بأنهم سيبدؤون بالنشيد. فحاول الهرب بإخفاء نفسه خلف الباب الأمامي. ولكنه بالطبع لم يستطع ذلك. وعند خروجي من الغرفة الخلفية وجدته منزوياً مثل حيوان. أما الصبيان فقد كانوا يرددون نشيدهم كالمعتاد.

كانت والدتي غائبة عن المنزل. واستطعت سماع صوت نشيج أختي وهي تحاول كتم بكائها بالمخدة. ثم تبعنا الصبيان ونحن في طريقنا إلى المدرسة.. عند وصولي ذهبت مباشرة إلى المدير معتقداً ببراءة: بما أن المدير صديق لوالد جورج فإنه سيجد عقاباً مناسباً لهؤلاء الصبية.. ولكن ما عمله كان أبسط بكثير مما تخيلته. لقد دعا جورج إليه وأخبره بأنه يجب عليه أن يوقف تدريباته التي يقوم بها سيراً في شارع ستيل لوجود طرق أخرى محترمة يمكنه أن يسير بها. ولم يكتف بذلك. بل أخبر والد جورج بجزء من الرواية. وذلك لأنه بداية من صباح اليوم التالي كان هنالك شخص يصحب جورج صباحاً ومساءً. فكان ذلك نهاية لمشاورينا في المدينة بلا هدف. وتسكعنا عند نوافذ المحلات أو على الشاطئ. نهاية شيء (لتوّه قد بدأ) تشاركنا فيه مدة بسيطة.. فانتهت بذلك مشروعات صداقتنا. ثم بعد مدة ترك المدرسة فانقطعت بنا الطرق.

اليوم. وبعد هذه السنين. بدا لي غريباً أننا لم يتحدث بعضنا مع بعض من قبل. كما لو كنا من عالمين مختلفين.. لقد سبق لي أن رأيته قبل سنوات. كان عمره نحو السادسة عشرة. ويمثل مدرسته في لعبة الكريكت. وعندما رأيته ممسكاً بالمضرب فنز قلبي نحو فمي. طبعاً لم يكن يعرف أنني بين الحشود. ثم سمعت أنه سافر إلى الخارج.. كان ذلك كل شيء.

هذا اليوم رآني قبل أن أراه. صوته العميق لم يتغير كثيراً. صرخ عليّ من الجانب الآخر للشارع. عند سماعي لاسمي التفت. لأجده مبتسماً. كانت سعادتي كطفل لا يستطيع وصف مدى فرحته. صافحني وسألني عن أحوالي. كان حريصاً. رزيناً. لم أتمكن من الرد. ملابسي وبنطالي القديم تحدثا عني. أما هو. فقد كان واثقاً من نفسه. مطمئناً في قميصه الرياضي وبنطاله القطني الخفيف مع صندل مفتوح عند الأصابع مثل السائحين. لقد كان جيداً أن يراني ويتذكرني.. وفجأة مرت غمامة على وجهه فقال: «ستانلي. لقد مر وقت طويل. إنني سعيد لرؤيتك. ولكن. يجب أن أذهب».

فأجبته قائلاً: «نعم. لقد فهمت».. ثم ترك يدي.

بعدما تركني وقفت أتأمله وهو يختفي بين الحشود في سوق الحليب. ولكن ما لم أستطع فهمه هو: لماذا بينما كان يجب أن أقول له (يا صديقي) قلت له: مع السلامة سيدي؟!

* فازت هذه القصة بالجائزة الأولى لمسابقة خدمة العالم في الـ BBC لعام ١٩٦٧م.



نخلة العمر

سالم بن رزيق بن عوض

جدة - السعودية

الدنا تجري! وهذا العمر يجري   مَنْ يُقويني على تجميلِ عُمري؟
مَنْ يَرُدّ الفرحةَ الكبرى التي   رحلت عني إلى ديجور عصري
مَنْ يزيدُ الوردَ في حقلي شذا؟   مَنْ يُخيّي في شذا الأيام دهري؟
مَنْ يزفّ الخير في الخير كما   زفت الأنسامُ أنفاسي وصبري؟
مَنْ يُريني لون ألواني عسى   يرتقي في عالم الأوهام سعري؟
مَنْ يقول الحق في نفسي فقد   أوشك الطوفان في الأرجاء يجري؟!

* * * * * * * * * *

أتقي الدنيا التي في ثوبها   عبقُ التاريخ في الأنحاء يسري
ألتقي فيها! أغني دوحها   كالعصافير على تابوت نهرِ
كالمدى الأعمى! كأوهام المدى!   كالسراب الغامر الأفياء يغري
كالشعاع الفج! كالنور الذي   عزف الإظلام في نثري وشعري
كالمنى الحمقى! كأجفان المنى   كالروابي في تباريحي وقفري
أستقي من غور أغواري سدى   ويعبّ القيظ أنهاري وبحري!

* * * * * * * * * *

نافرٌ من صورتي الشنما أنا!   بين بيني هذه آيات نصري!
فيلسوفٌ أبتني فوق الحجا   منبراً يعلو على أحجار قهري
وجسورٌ أحفر الدرب الذي   يلدُ الخوف على تيار جمر

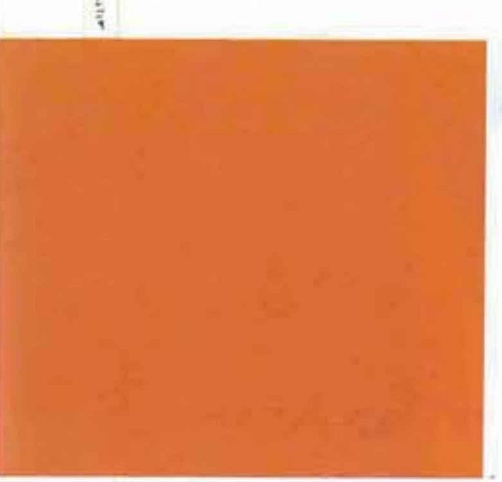
أطأ الريحَ التي تجتاحني   قبلَ أيامي أبثُّ الريح وعري
كاملٌ كالشمس في صدر الدنا   وغريبٌ في تراتيلي وفكري
كم أحيّي قامتي الكبرى على   دأبها في عالم الإفلاس عمري!!

* * * * * * * * * *

هل أنا في عالم أعرفُهُ؟   هل يدي هذي ؟ وهذا كل شعري ؟
هل هنا قلبي؟ هنا رأسي أنا   هل هنا في آخر الأطراف ظفري؟
هل أنا غيري على دربي أنا؟   هل أحيي في صدى الأيام غيري؟
هل لهذي النفس نفس تتقي   من أخاميصي إلى أصقاع نحري؟
هل هنا في الدرب درب غيره؟   هل أنادي في خفاياي وجهري؟
ليس في الروح سوى روحي أنا   يرتقي في غمرة الطوفان طهري

* * * * * * * * * *

هذه الدنيا ملاذٌ آمنٌ   للكسالى، إنهم آفات عصري
تلتقي فيهم جهالات الورى   جذوة الإبداع ناموس يرى
كل شيء، إنه يغدو ويسري   يلد الطهر المصفى كالندى
ينبت الأرواح، يبنيها ويطري   ويحيّي الخير، يروي دربه
يبعث الأشواق في رمضاء قفر   نخلةُ الخير التي أعرفها
رسمت في خاطري المكدود عمري!   رسمت في خاطري المكدود عمري!







الأمين الزاوي في حوار لـ «الفيصل»:

العرب مصابون بعقدة نجيب محفوظ

حاورته: انشراح السعدي

بوزريعة - الجزائر

أكد الروائي الجزائري الأمين الزاوي أن الروائي العربي إذا أراد أن يكون عالمياً فعليه أن يعتمد على السردية العربية؛ إذ فيها فتنة كبيرة جداً، وفيها سحر لا يضاهيه سحر، مضيفاً أن كل الجيل الكبير من منتجي النصوص الروائية في أمريكا اللاتينية هم - بالأساس - نتاج الثقافة العربية، وشهوة الحكي العربي، وعدّ الروائي إبراهيم الكوني هوميروس جيله، وأحسن من نجيب محفوظ. وعن اختياره الفرنسية لغة ثانية للكتابة قال: إن المؤسسات التي تتعامل مع النص المكتوب بالفرنسية تتعامل معه بحرية كاملة، في حين من يكتب باللغة العربية يجد نفسه أمام مؤسسة تمارس تسيير اللغة العربية، وعدّ الأدب العربي أدباً أعمى، وهو صاحب «يصحو الحرير»، و«رائحة الأنثى»، و«صهيل الجسد»، و«وحشة اليمامة»، وعناوين أخرى، وهو يقف معنا في هذا الحوار عند محطات فكرية متنوعة.

❖ في أعمالك الروائية «وحشة اليمامة»، و«يصحو الحرير»، و«إغفاءة الميموزا»، تلجأ إلى شكل سردي معين تحتوي فيه التراث المغاربي، والعربي، والعالمي بشكل أراه يتناسب مع أسلوبك الروائي، فتكتب الرواية بشكل حديث، أتسعى إلى بناء هندسي عقلاني للرواية، أم تترك مساحة تجعل للقارئ حرية المساهمة فيه: أي: بناء النص (التأويل)؟

- أولاً: أنا شخصياً حينما أكتب لا أفكر في القارئ بقدر ما أفكر في عملية معقدة بين الذات والنص، وهذه العملية ما بين الذات والنص هي التي تجعل الكتابة الروائية بالنسبة إليّ شبه مغامرة مع الواقع، ومع التراث، وفي الوقت نفسه مع اللغة والطفولة.

البناء الروائي بالأساس يؤسس داخل اجتهاد فردي شخصي، ولكن في علاقة حميمية مع البناءات التراثية، وأنا أقرأ كثيراً

التراث العربي وأحب كثيراً كتابات القدماء، خصوصاً السردية منها، مثل: رسالة الغفران للمعري، أو الجاحظ في الحيوان أو البخلاء. وأنا أعتقد أن الروائي العربي إذا أراد أن يكون عالمياً إنسانياً كبيراً فعليه أن يعتمد على السردية العربية، إذ فيها فتنة كبيرة جداً، وفيها سحر لا يضاهيه أي سحر. وأعتقد أيضاً أن أدباء أمريكا اللاتينية وروائييها الذين نجحوا، مثل: غابريال غارسيا ماركيز، وباولو كولو، وخورخي خورخيس، كل هذا الجيل الكبير من منتجي النصوص الروائية في أمريكا اللاتينية هم - بالأساس - نتاج الثقافة العربية، ونتاج السردية العربية، وشهوة الحكي العربي القادمة إلى أمريكا عن طريق العلاقة المعروفة تاريخياً بين العرب وإسبانيا، إذ البناء الروائي عندي هو بناء مؤسس داخل الحداثة الاجتهادية الفردية؛ لأن الإبداع عملية فردية بطبيعة الأمر وليست عملية عقلانية، وإنما هو جنون عاقل؛ بمعنى أن القارئ يقرأ خارج العملية الإبداعية، فأنا لا أومن بكاتب غير مثقف يقرأ كما يقرأ الكتاب والعلماء، وأقول: إن في لحظة الكتابة حالة صوفية ما، حالة ثانية، هذه الحالة الثانية هي التي تجعل الكاتب يستطيع أن يتخلص من الموروث بمفهومه العقلاني ليدخل في آلية معينة أو في جنون الإبداع؛ بمعنى أن هذه الكتابة هي متجذرة داخل السوسيولوجي، داخل التراثي، ولكن في الوقت نفسه داخل الحميمي والذاتي، عادةً ما نسميه بالجنون العاقل. فنحن نكتب في لحظة ما بين الوعي واللاوعي، وهذه اللحظة هي التي تسمح لنا بالحرية، وتسمح لنا بالتخلص من المخفر السياسي، والمخفر الديني، والمخفر الجنسي، كل هذه المخافر موجودة في رؤوسنا، وفي حياتنا، حينما نمارس حياتنا الاجتماعية والودية، وإلى غير ذلك، ولكن **في لحظة الأدب حينما نعيش هذه اللحظة اللاواعية المجنونة فإننا نتخلص من هذه المخافر. وأعتقد أن الأدب حينما يتخلص من هذه المخافر يكتب نصاً حداثياً جديداً.**

✤ هذا الموروث عند كثيرين هو الغامض. هل هذا الغامض والسري يكتسب عندك معنى صوفياً؟

- الغامض غامض بنسبة معينة، فما هو غامض بالنسبة إليك قد لا يكون غامضاً بالنسبة إليّ، والعكس صحيح. وما هو غامض لشعب ما ولثقافة ما قد لا يكون كذلك بالنسبة إلى شعب آخر، وما هو غامض في وقت زمني معين قد لا يصبح غامضاً في وقت آخر. وأعطيك مثالاً: حينما نقرأ الفتوحات المكية لابن العربي، أو كتاب الطواسين للحلاج، أو أي كتاب في الثقافة الصوفية، نشعر أننا أمام غموض، ما هذا الغموض؟ من أين يأتي؟ أعتقد أن هذا الغموض يأتي أولاً من ثقافتنا التي انفصلت في مرحلة معينة عن صيرورتها التاريخية واللغوية والسياقية، إلى غير ذلك، والأبستمولوجية؛ أي: المعرفية، وعن طريق استعمالنا أيضاً بعض أدوات القراءة لا يمكن استعمالها لقراءة نص مثل هذا، وفي كثير من الأحيان المرجعيات التي نقرأ بها لا تتناسب مع قراءة هذه النصوص، وأحياناً الكاتب الذي كتب هذه النصوص يملك شيئاً أساسياً في اللغة العربية، وهو «الشفرة».

أنا لا أفكر في القارئ بقدر ما أفكر في عملية معقدة بين الذات والنص تجعل الكتابة الروائية شبه مغامرة مع الواقع والتراث واللغة والطفولة

فاللغة العربية لغة مشفرة، فهناك لغتان مشفرتان في المشرق العربي، هما: العربية، والعبرية؛ لأنهما ارتبطتا أساساً بالدين، فقمة نمو هاتين اللغتين كانت عن طريق الدين، وبطبيعة الحال الدين وما يعانيه المتدينون والفرق الدينية، فتم تشفير هذه اللغة، وتشفير اللغة دخل في الصوفية بشكل كبير، مثل القبالية عند اليهود، أو ما يسمى بالتصوف القبالي في الفكر العبري، إذا لم **تكن تعرف كيف تفتح هذه الشفرات لا تستطيع أن تفتح مغاليق هذه الكتب، فالذي يقرأ الآن الفتوحات المكية، ويجد ابن العربي يتحدث عن الخطوط العربية، الألف ماذا تعني، والنون أيضاً، ثم يدخل في فلسفة سيسأل حتماً إذا كان مجنوناً، أم هو غلو ثقافي معرفي؟ بالعكس هي فلسفة قائمة على الشفرات التي تحتويها اللغة العربية، فيكون شكل الخط هو نفسه رسالة، وليس الكلمة فقط.**

✤ تحدثت عن باولو كولو ومجموعة من أدباء أمريكا اللاتينية،

كما كتبت عن الصحراء. وقلت في أحد حواراتك: إن إبراهيم الكوني الروائي الليبي أحسن من نجيب محفوظ. لماذا؟ مع أن الأول اهتم بالمجتمعات التخومية، وأهمل - بشكل أو بآخر - المدينة؛ وذلك بتركيزه في الطوارق على وجه الخصوص؟

- يبدو لي أن العالم العربي مصاب بعقدة اسمها نجيب محفوظ هناك في المجال الروائي. فالكاتب الليبي إبراهيم الكوني كاتب من عيار عالمي كبير على مستوى اللغة، وعلى مستوى الموضوعات، وعلى مستوى حداثة النص، وعلى مستوى البحث في الرواية.

أعتقد أنه في الخمسين سنة الماضية، إذا استثنيا ثلاثية نجيب محفوظ، فالروائي المهم هو إبراهيم الكوني، والطيب صالح في رواية «موسم الهجرة إلى الشمال». هذا الروائيان، وبالأساس إبراهيم الكوني؛ لأنه راكم نصوصاً كثيرة، ولقد ظلمه العرب كثيراً. فحينما تقرأ الكوني تشعر بأن هذا الشخص شبيه باليونانيين، ولكن ليس في البحر، هو هوميروس الصحراء، **وهو هوميروس جيله. أنا أتوقع إنه إذا حاز العرب على جائزة نوبل مرة ثانية فلن تكون إلا من نصيب إبراهيم الكوني. وأشير إلى أنه في المرحلة الأخيرة بدأ الأوربيون يترجمون أعماله. وأنا أعتقد أنه الوحيد الذي لا يكتب الرواية لإغراء الآخر. فهو لا يكتب الرواية الإغرابية. بل يكتبها من باب حضاري: لأن هذا العالم مسكون ومملوء. ليس خواء. وليس متحفاً. وهذه هي فلسفته: لذا يختلف عن الآخرين. والأوربيون لم يفهموا نصوص إبراهيم الكوني. ولم يعنوا به: لاعتقادهم أن الكتابة عن الصحراء هي المغامرة. هي الرمال المفتوحة. هي ألف ليلة وليلة. فحينما تقرأ «التبر» أو «نزيف الحجر» أو «الوعل». تجد هذه الحيوانات الخرافية التي كانت تعيش في هذه الأماكن.**

> أنا لا أؤمن بكاتب غير مثقف يقرأ كما يقرأ الكتاب والعلماء؛ لأن الكتابة حالة صوفية تجعل الكاتب يتخلص من الموروث بمفهومه العقلاني ليدخل في جنون الإبداع

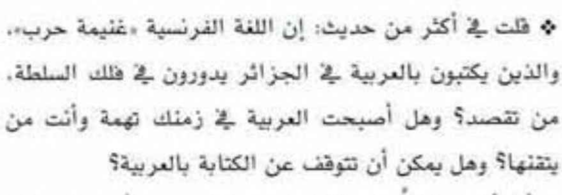
وعادات الطوارق، والمرأة كيف تعيش. كما تجد عالماً رائعاً.

❖ قمة الإبداع أن نقدر على الحديث على مدى صفحات عن صحراء لا يحدها البصر، وذلك أمر لا يقدر عليه إلا إبراهيم الكوني؟

- صحيح؛ لأننا نرى أن الصحراء امتداد فارغ، وهو يراها امتداداً مملوءاً، وهذا هو الحضاري في الكتابة. أنا كتبت رواية باللغة الفرنسية عن منطقة الطوارق، ولأنني لست من المجتمع استعدت التراث العربي؛ البغدادي، وأدب الرحلة، وابن فضلان، الذين عرفوا إلى حد ما مفهوم الرحلة، ومفهوم الجنوب أو القادمين إلى الجنوب.

❖ قلت: الكتابة هي الطفولة. هل أغلقت دكاكين الدهشة الطفولية، أو مازلت تقترف منها فصولاً وروايات؟

- الحقيقة حينما نفقد الطفولة نموت. الطفولة كنز لا يفنى، الطفولة لا تشيخ، إذ يشيخ الإنسان، ولكن الطفولة فينا لا تشيخ، **نظل أطفالاً إلى الموت. خصوصاً الأدباء منا. وحينما نشعر بأن هناك قطيعة بيننا وبين طفولتنا نعتقد أنه الموت الأدبي قبل الموت الفيزيقي: لذا الرواية الأخيرة التي كتبتها والتي ستصدر باللغة الفرنسية في دار «ألبير ميشال» في سبتمبر القادم، وعنوانها: «وليمة الأكاذيب». هذه الرواية استعدت فيها الطفولة مدة سنتين، يونيو ١٩٦٥م، ويونيو ١٩٦٧م، انقلاب على بن بلة وهزيمة العرب. سنتان استطعت أن أكتب فيهما رواية من ٤٠٠ صفحة، ولم يهمني التاريخ، بل كانت تهمني ذات الطفولة. كيف نرى الأشياء. كيف أرى الأشياء وأنا أشاهد أول مرة التلفاز. وأنا أشاهد جولدا مائير تهزم جمال عبدالناصر. الطفل الذي يرى كما يسمع، ويسمع كما يرى. وتختلط عنده كل الحواس. وأعتقد أن الطفولة بالنسبة إليّ وفي كل كتبي هي دائماً مركز العالم: لأن الطفولة تسمح لنا بقول الأشياء بكل حرية. ففيها كثير من الملائكية وكثير من الشيطانية. فالطفل بين الشيطان والملاك. وتغفر له كل الأشياء حينما يكون شيطاناً وملاكاً. والرواية كذلك. ففي مرات أقرأ رواية وأصفها بأنها قبيحة، قبيحة بمفهوم أخلاقي، ولكنه عمل أطفال. ونستمتع بقراءتها على الرغم من كل شيء.**



❖ قلت في أكثر من حديث: إن اللغة الفرنسية «غنيمة حرب»، والذين يكتبون بالعربية في الجزائر يدورون في فلك السلطة، من تقصد؟ وهل أصبحت العربية في زمنك تهمة وأنت من يتقنها؟ وهل يمكن أن تتوقف عن الكتابة بالعربية؟

- أنا أقول دائماً: إن اللغة العربية تسكنني وأسكنها، ولكن الفرنسية أسكنها ولا تسكنني، فأنا أمتلك أدواتها. أما العربية فهي لي وأنا منها. علاقة العربية باللغة الفرنسية تماماً مثل علاقة الإنسان بحليب الأم وبالدانون. العربية حليب الأم ترضعه قد لا يضاهيه أي شيء، وتأكل معه الدانون، وتجد فيه متعة، ولكن علاقتنا مع الدانون هي متعة وعلاقتنا مع حليب الأم هي اندثار داخلها، فاللغة العربية هي حليب الأم، واللغات الأجنبية الأخرى - وأتحدث عن الفرنسية؛ لأنني أتقنها - كالدانون، لا



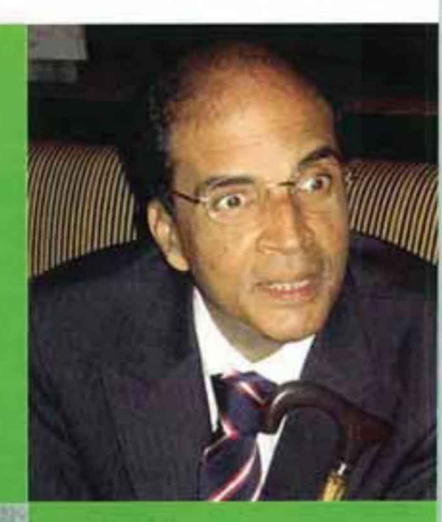


أكثر ولا أقل. وأنا أقول: حينما ندرس الحقل اللساني الجزائري، وبطبيعة الحال الكتابة باللغة العربية كالكتابة باللغات الأخرى تتوقف على إمكانيات الأديب على امتلاك اللغة، فاللغة العربية من أروع اللغات، كما هي اللغات جميعاً في نهاية الأمر. حينما أقرأ مثلاً الإسبانية وأجد فيها تلك الموسيقا أقول: إنها خطفتها من اللغة العربية، وحينما أقرأ الأشعار الفرنسية، بودلار مثلاً في ديوانه «أزهار الشر»، أحس برقيها، ولكنها راقية من حيث التعامل باللغة ليس إلا؛ لأنك لست مندثراً فيها، بل أنت متعامل معها. تساعد اللغات الأخرى على تنويع المخيال العربي، فأنا حينما أكتب بالعربية تتقاطع مخيلات أخرى، يجيئني مخيال من الثقافة الفرنسية، ومخيال من اللغة الإسبانية، وأيضاً حينما أكتب بالفرنسية، وهذا ما قيل عن كتاباتي بالفرنسية: إني أستعمل فرنسيتي أنا خاصة بي أنا، وهي فرنسية تتداخل فيها الموسيقا العربية بشكل كبير. وأعتقد أن اللغات الكبيرة هي



التي تكون لغة مضايفة، والعربية كذلك، دخل الفرس، فأضافوا إليها، ودخل الأتراك أيضاً، ودخل الفرنسيون والإنجليز أيضاً، العربية لغة كبيرة قادرة على استيعاب موسيقات أخرى؛ لذا أقول: إن الروائي العصري الآن يجب أن يكون على استماع لغوي آخر غير الاستماع والممارسة اللغوية التي هي ملك له، وهو منها، وهذا يفيد اللغة الأم ويعطيها دفعاً جديداً. في الجزائر من عام ١٩٧٥ إلى عام ١٩٨٨م ظاهرة عجيبة، تتمثل في أنه يوجد تآمر مقنع لاقتسام الأدوار. المثقف المعرب أخذ السلطة السياسية، وأخذ التربية، والمفرنس أخذ المؤسسات الإنتاجية، والجهاز البيروقراطي، وكل ما يسمى التسيير، ومشى الأمر بهذا الشكل، وبتآمر مقبول، ولكن الآن معطيات جديدة، دخل عامل آخر، وهو المثقف الأمازيغي، ففي الجزائر نشر ٥٥٧ كتاباً بالأمازيغية في كل المجالات، وأقول: هناك الآن في الجزائر مثقف معرب، ومثقف أمازيغي، ومثقف مفرنس، والكارثة ليست هنا؛ لأن تعدد اللغات بالنسبة إلى أي دولة هي حالة إيجابية، ولكن المشكل في التسيير السياسي والمؤسساتي لهذه الظاهرة، هل هناك شجاعة لتسيير هذه الظاهرة. ولا يمكن ذلك إلا بالتصالح بين المثقف المعرب والمثقف الأمازيغي؛ لأن العربية لن تتقدم مادام الأمازيغ ينظرون إليها بحذر، والمعربون ينظرون إلى الأمازيغية على أنها لغة فلكلور. والمستفيد الوحيد هو اللغة الفرنسية؛ لأنها ستكون الترجمان بين المعرب والأمازيغي. وهو ما يحدث الآن؛ لذلك يجب أن تكون جرأة سياسية كبيرة لتسيير الملف اللغوي في الجزائر، والاستفادة من هذا الانفتاح الموجود بين المثقفين في الجزائر؛ إذ هناك حالة صحية بين المثقفين. ويبدو أن سنوات المآسي والخوف علمتنا أن نندم على العداء المجاني.

الكاتب الليبي إبراهيم الكوني ظلمه العرب كثيراً؛ فهو كاتب من عيار عالمي كبير على مستوى اللغة والموضوعات وحداثة النص والبحث في الرواية



إبراهيم الكوني



نجيب محفوظ



محمود درويش

❖ قلت: إنك حينما تكتب بالفرنسية تكون حراً، ألا (يتألدج) الكاتب بغير لغته ليرضي من يكتب بلغتهم، ويصبح عبداً لمتطلبات القارئ الأجنبي؟

-أنا حينما أكتب باللغة الفرنسية أشعر أنني حر في مسألة التعامل مع المؤسسات، المجتمع الأوربي بشكل عام حقق تراكماً من الديمقراطية، والمؤسسات التي تتعامل معها في نص بالفرنسية تتعامل معها بحرية كاملة، سواء قبل النص أم رفض، لقد نشرت خمس روايات باللغة الفرنسية لم يغير أي حرف، هناك نوع من احترام حرية الكاتب، ولكن حينما تكتب باللغة العربية فأنت مع مؤسسة تمارس تسيير اللغة العربية.

❖ مقص الرقيب؟

- تماماً، أعطيك مثالاً: نشرت لي رواية بعنوان «رائحة الأنثى»، وعندما قرأت الرواية كدت لا أعرف أنها روايتي، اشتغل فيها الناشر، ولما سألته قال: «والله يا أمين أعجبت بالرواية، ولكنك تعرف الوضع، اضطررت لحذف مقاطع منها»، وعجبي أنني روائي منتج قيم للناس التي تقرؤني، فالمشكل ليست اللغة خصوصاً، وأن الفرنسية بالمقارنة بالعربية لغة شابة.

❖ ما دمنا نتحدث عن مقص الرقيب، فروايتك «وحشة اليمامة» كان لها حظ كبير بشكل أو بآخر مع مقص الرقيب، كيف تعاملت مع ذلك؟ وهل يجب أن نتخلص من الرقيب؟

- أطرح السؤال بهذا الشكل: متى نتخلص من الرقيب؟ قد أفاجئك بهذا الجواب، الرقيب موجود في الذهن، لو جمعنا كل الآيات القرآنية التي تتحدث عن العلاقات الزوجية والزنا ووضعناها في كتاب دون الإشارة إلى أنها من القرآن الكريم وطلبنا من الذين يحملون مقص الرقيب نشرها لرفضوا، وهذا خير مثال.

❖ الأمكنة في رواياتك جنينية، أو كما يعرفها غاستون باشلار

قائلاً: «إن هذه الأمكنة لها وظيفة تذكيرية». ماذا تريد أن تتذكر؟ أو بماذا تريد أن تذكر: الإرهاب، والمنفى، والتهميش....؟

- سؤال جميل. بين الإنسان والتراب علاقة ليست فقط فيزيائية، وإنما تدخل فيها أشياء غير مفسرة. أنت ولدت في مكان ما، ولك صورة معينة عن هذا المكان، صورة جنينية، ولو عدت له ستقولين: إنه ليس هو؛ لأن المكان لك أنت وحدك، وتسافرين به أنت وحدك، ويحيا معك. وليس وجوداً مطلقاً، هو وهم؛ لأنه يعيش مرة واحدة حينما نراه، وحينما نرحل عنه يذهب معنا وينتهي. ولكن يظل هو المتكأ والسرير الحقيقي الذي ولدنا عليه، وسوف نموت فيه، ولو كان في أذهاننا. محمود درويش كتب كتاباً رائعاً جداً اسمه «يوميات الفيلم العادي»، ويبدو لي أنه أجمل ما كتب درويش، وهو من كتبه القديمة. فمرات في حديث مع درويش سألني عما يعجبني في كتاباته، فقلت: «يوميات الفيلم العادي». وطرحت بدوري السؤال نفسه عليه، فذكر الكتاب نفسه. هذا كتاب عن الأمكنة، ويضع صوراً خرافية عن الأمكنة، ولكن هي عادية جداً؛ لأنها مرتبطة بالطفولة، بكل هذا الجنون. ولكن مرات حينما نعود إلى هذه الأمكنة نصاب بخيبة؛ لأننا نعود إلى صورة موجودة في الذاكرة، وتعود لتتمنى أنك لم تر هذا المكان مطلقاً؛ فالأمكنة ليست فقط للحياة، بل هي مكان دراماتيكي كالزمن. ونحن في الأدب العربي - مع الأسف - لا تؤثر فينا كثيراً الأمكنة. نعطي للزمن، نعطي أهمية للحدث، ولكن لا نعطي أهمية للتفاصيل الصغيرة. وهذا يدل على أن العين عندنا لا تشتغل كثيراً في الأدب. الأدب العربي أدب أعمى؛ لكونه لا يرى التفاصيل، نقرأ رواية فلا نجدها تتحدث عن ألوان النوافذ. مع أن الجزائر العاصمة لها ألوان من أروع ما يكون. الأبيض العصامي من أجمل الأبيضات إذا صح التعبير، ولكن لا ننتبه لهذه الألوان. سماؤنا ليست كالسماء الأوربية. ولقد أتعبتني.

الأديب طفل لا يشيخ حتى الموت، وعندما تحدث قطيعة بينه وبين طفولته فذلك هو الموت الأدبي

❖ قلت في أحد حواراتك: المنفى حالة شعورية ضد التخلف. كيف ذلك؟

- حقاً: المنفى حالة تخلف. والأنبياء كلهم عاشوا المنافي. والرسول صلى الله عليه وسلم عاشها؛ لأنه كان يعيش المنفى بين قريش في مكة المكرمة فهاجر. وموسى عليه السلام هاجر من مصر أيضاً. كل العظماء من الأدباء والمثقفين وجدوا أن التخلف هو جغرافية للمنفى. والآن كثير من الأدباء يشعرون أنهم غرباء داخل أوطانهم. مرات داخل مؤسستك.

❖ في بيتك. فالبيت في بعض الأحيان يكون أكبر منفى؟

- فعلاً. أنا حينما جئت إلى إدارة المكتبة الوطنية، وبدأت أقول لهم: إن المسير لا يمكن أن يكون مسيراً من دون رأس مال من الحلم. المسير الذي لا يحلم لا يستطيع أن يسير. كان الشاعر الذي يتكلم، وحينما بدأنا بالمقاهي الأدبية والفلسفية وغير ذلك كانوا يقولون: هو عمل لمرة أو مرتين وتنتهي المسألة. ولكن الآن، وبعد أربعة أعوام، لاتزال الندوات اليومية قائمة. يشعر بأنه كان في المرحلة الأولى غريباً ومنفياً داخل المؤسسة. وأقول أكثر من ذلك: فالأديب الذي لا يشعر بالمنفى ليس أديباً قوياً. يجب أن يكون فريداً. ولا يشبه الآخرين. وذلك حينما يشعر بأنه منفي وغريب. وهذه واحدة من خصوصيات الإبداع.

❖ يقال: كل مترجم خائن للنص. اشتغلت في حقل الترجمة. هل تجد في هذه المقولة صدقاً؟ وهل تترجم أعمالك بنفسك؟

- أنا لا أستحم في الماء مرتين. وما أكتبه بالفرنسية لا أكتبه بالعربية، ولا أترجمني. أصحح الأعمال التي يترجمها أصدقائي، وأقرؤها كما يقرؤها أي أحد. أما ما أكتبه بالعربية فأكتبه بالعربية. ولست مستعداً لترجمته إلى الفرنسية. بينما ما ترجمته من الفرنسية إلى العربية. مثل: «لما تحلو الذئاب» لياسمينة خضرا. أو نص محمد ديب. فهذان النصان ترجمتهما وأنا لست محترفاً. بل هاوياً بحكم استعمالي اللغتين. وترجمتهما لأني وجدت فيهما متعة وغرت. وقلت: كان من المفروض أن أكتب أنا ما كتب محمد ديب. وما كتبته ياسمينة خضرا. ومن ثم مارست حقي في هذا النص عن طريق الترجمة لا أكثر ولا أقل.



يوميات امرأة عاملة

وليد إبراهيم قصاب

الرياض - السعودية

وقفت أمام مرآتها تتأنق.. عادتها كلَّ صباح قبل خروجها إلى عملها، كانت فاتنة جذابة، أحسّت بالرضا عن نفسها، وأن جاذبيتها تمنحها ثقة زائدة، ستتعلق بها عيون الرجال في كل مكان، ستشعر بقوتها أمامهم.. كم هم أقزام أولئك الرجال وهم يتظاهرون بالقوة والفتوة!

إنها تعرف مواطن الضعف فيهم.. المرأة، الفتنة الخالدة. إن منظر امرأة جميلة مثلها لقادر على أن يغتال اتّزانهم، ويخل بميزان وقارهم المزعوم..

إن الأستاذ محمودًا - مدير الشركة التي تعمل فيها - ترهبه - على حسب الظاهر - الإنس والجن: إذا دخل خرست ألسنة الجميع، وكادت تنخلع قلوبهم، وتتجمد أحداقهم في عيونهم، ولكنه ما إن يرى غنجها أمامه حتى تتبدد مهابته في لحظة واحدة كأنها رغوة الصابون، أو سحابة دخانٍ لفافة.. يعتريها - أحيانًا - ما يشبه اليقين أن هذا البادي كالغضنفر لو شاءت أن تجعله ينحني عند قدميها لفعلت.

يرقُّ كلامه معها وينكسر، ويبدو بين يديها كالمراهق الصغير الذي يخاطب امرأة أول مرة. وفي الوقت الذي يخاطب أكبر موظف في الشركة إن تلكأ لحظة في طلب ما بقوله: أيها الحمار، لماذا تأخرت؟ يقول لها بلهجة منكسرة تفيض عذوبة وخنوثة:

- مدام هدى.. لو سمحتِ أحضري لي الملف رقم..

- مدام هدى.. من فضلك هل لي أن أطلب منك..

ويكاد يسرقها بعينيه كلما دخلت إلى مكتبه، يقوم لها حتى الباب: أهلاً.. مدام هدى، تفضلي، شرّفتِ، يا صباح الورد والفلّ.. يا صباح العصافير المزقزقة..

وعندما تنسلّ خارجة من عنده وهي تتثنى في مشيتها تحسّ أن نظراته تخترق - كالسهم - كل قطعة من جسدها..

لم تكن تدري لماذا تمارس هذه اللعبة الحمقاء، ولم تكن تقدّر عواقبها، ولكنها كانت تجد لذاذة في سبر حقيقته على هذا النحو، وتحس أنها تسترد بعضًا من كرامة زملائها المهدورة أمام جبروته..

❖❖❖

ما إن صارت عند الباب حتى سمعت صوت طفلتها نسرين تبكي، لم يكن عندها وقت في هذا الصباح خصوصًا، صحت متأخرة جدًا.. انتظرت لحظات حتى تأتي الخادمة لتعتني بها.. ولكنّ الخادمة لم تسمع صياح الطفلة، اشتدّ بكاء نسرين حتى صار نشيجًا، صاحت بالخادمة من عند الباب وهي تكاد تنفجر من الغيظ:

- إلهام.. إلهام.. اصحي أيتها الحمقاء.. ألا تسمعين بكاء البنت؟

ولكن إلهام كانت تغط في نوم عميق، والطفلة يكاد قلبها يتوقف من شدة البكاء..

لم تعد تطيق، اندفعت مثل المجنونة نحو غرفة الصغيرة، وهي تصيح في الخادمة بأعلى صوتها:

- إلهام، لعنة الله عليك، مُتِّ؟.. اصحي.. اصحي يا حمقاء، البنت توشك أن تموت من البكاء، وأنت مستغرقة في النوم كالحمير.. إلهام، إلهام..

تهجم على سرير نسرين وتأخذها بين ذراعيها، ولكنّ الصغيرة لا تكف عن البكاء.. بل تأخذها منه نوبة عنيفة، تبدو كالمذعورة، وتتململ بعنف محاولة التخلص من بين ذراعي والدتها.. استغربت هدى صنيع الطفلة، حاولت تهدئتها بكل الوسائل فما استطاعت، ظلت نسرين تنتفض كالفرخ المذعور محاولة الإفلات من أمها.. فاندفعت الأم بابنتها نحو غرفة الخادمة وهي تصيح متوترة الأعصاب:

. إلهام، إلهام، اصحي، اصحي، هل أُصبت بالطرش؟

صحت الخادمة - أخيرًا - على عويل الطفلة، وصراخ الأم، فدفعت هدى إليها البنت التي كانت ترتجف في ذعر من رأسها حتى قدميها..

ما إن صارت الطفلة بين ذراعي الخادمة، وضمتها هي الأخيرة إلى صدرها في حنو حتى هدأت وكفّت عن البكاء..

نظرت هدى إليهما في غيظ.. كان في عينيها ألف سؤال وسؤال، ولكنها

كانت في عجلة من أمرها فاندفعت خارجة لا تلوي على شيء..

طوال الطريق، كان يقلقها سؤال واحد، راودها في أول الأمر مستحييًا، ثم تجرأ عليها: أوتأنس نسرين بالخادمة أكثر مما تأنس بها؟ أهي تجد الأمان بين يديها، ولا تجده بين يديّ أمها؟

حاولت أن تتجاهل أشياء كثيرة، ولكنها وجدت لا شعورها يفيض بمجموعة من المشاعر والأحاسيس والأسئلة: لماذا تسفرين أنت؟ لا ترينها إلا نادرًا.. أنت مشغولة عنها أغلب الوقت، توكلين كل شأن من شؤونها إلى إلهام.. مربيتها الحقيقية هي إلهام لا أنت.. تبدين كالغريبة عنها..

قطع عليها حبلَ استرسالها وصولها إلى الشركة، دخلت قلقة متوترة الأعصاب، تجتاحها الهواجس، لم تسعدها كالعادة همسات زملائها: فاتنة، جذابة، ولا بحلقات عيون الرجال التي تكاد تلتهمها كالبطون الجائعة..

لم تُسلّم على أحد، دخلت غرفة مكتبها، وألقت رأسها بين كفيها تفكر: في البيت وضع غير طبيعي، كأنها غريبة عن ابنتها، بل إنها تحسّ من مدة غير قصيرة كأنها غريبة عن البيت كلّه، الأمرة الناهية في البيت هي إلهام الخادمة.. حتى زوجها الذي لم يكن يعجبه شيء إلا إذا كان من صنع يديها، أو بإشرافها، أصبح لا يطلب منها شيئًا، بل أصبح يطلبه من إلهام.. إن إلهام الآن هي سيدة البيت وليست هي..

كانت خواطر مقلقة مؤرِّقة، يعز على النفس الاعتراف بها، ولكن إجفال نسرين اليوم منها، واطمئنانها في أحضان إلهام كانا مؤشرين لا يمكن أن يعبرا ببساطة تفكير امرأة مثلها..

◆◆◆

في غمرة قلقها وإحساسها بالتعاسة رنّ جرس الهاتف فوق مكتبها، كان مديرها، الأستاذ محمود، يتكسر صوته كالمراهق كلما حادثها:

- صباح الفل يا قمر، أقلقني تأخرك، تعالي لو سمحت وأحضري معك العقود التي وقعناها مع شركة الأسمنت..

كانت حجة من حججه لكي يستدعيها إليه، ويلتهمها بنظرات عينيه الزائغتين..

سحبت ملفًا من خزانة وراءها، واندفعت إلى غرفة المدير من غير أن تنظر في مرآتها: لكي تطمئن إلى فتنتها كالعادة.. كانت تحسّ بالقرف من كلّ ما حولها.. طرقت باب غرفة المدير ودخلت يتقدمها شذاها وجاذبيتها..

هرع المدير من وراء مكتبه لاستقبالها في خطوة غير مسبوقة، أطال إبقاء يده في يدها وهو يصافحها حتى اضطرت أن تسحبها منه، ومضى كعادته يسمعها أسطوانة الإطراء:

- سبحان الخالق العظيم، قمر، محظوظ من يستمتع بهذا الجمال الباهر الأخّاذ..

وعيناه تبحلقان جائعتين بوقاحة أكثر من المعتاد.

- لماذا تأخرت عن الدوام؟.. قلقتُ عليك فقط، الشركة تحت تصرفك، ادخلي واخرجي كما تريدين..

اجتاحها القرف حتى أحست كأنها توشك أن تتقيأ.. قالت من طرف شفتيها:

- أي خدمة يا حضرة المدير؟

وقامت تستعد للانصراف.

- اجلسي.. أريدك في أمر شخصي..

بحلقت فيه بعينيها.. ودقّ قلبها توجسًا وقرفًا..

- وصلتني بطاقتا دعوة إلى مسرح..

لم تعد تطيق أن تسمع بقية الكلام.. دعاها بطريقة رخيصة ممجوجة.. أبلغت به الوقاحة هذا المبلغ؟ كيف استرخصها إلى هذا الحد؟ من يظنها؟.. أغرته فتنتها وتبرجها.. حتى حسبها صيدًا مبتذلاً..

كادت تصفعه.. ولكنها ودت لو تصفع نفسها أولاً، نكست رأسها من الذل والعار..

خرجت من مكتبه يتطاير الشرر من عينيها.. صفعت باب غرفة المدير صفعة لفتت جميع الموظفين..

غادرت الشركة وهي تغلي وتفور.. أشارت إلى سيارة أجرة.. اندفعت إلى داخلها، وأعطت السائق عنوان بيتها.. كانت تزحم رأسها الصورُ والخواطر.. نسرين التي تفر من أحضانها إلى أحضان الخادمة، بيتها الذي يتداعى، زوجها الذي اعتاد ما تقدّمه الخادمة، الرجال المتنمّرون المتربصون كالذباب الجائعة، المدير العجوز المتصابي الذي يحسبها امرأة رخيصة للهوى والمتعة..

لعن الله الشغل.. قال لها زوجها أكثر من مرة:

- بيتك جنة.. فلا تفرّطي فيها..

دخلت بيتها.. وقد اتخذت قرارها الحاسم.. اندفعت فورًا إلى غرفة نسرين.. فأخذتها بين ذراعيها وأغرقتها في بحر من الحنان.. لم تقاوم نسرين هذه المرة أبدًا، بل هدأت في حضن أمها كالفرخ الصغير..



نوبيّ شاعر للبلاط الأموي

عبدالرحمن محمد عوض

القاهرة - مصر

باديْ ذي بدء، نقول جغرافياً: إن النُّوبة نوبتان: نوبة وادي النيل من أسوان حتى نقلة، ونوبة الجبال بغرب السودان الشمالي.

لسنا نعلم على وجه التحديد من أين أتى شاعر البلاط المرواني نُصَيْب بن رباح، لكن هناك تحقيق علمي لهذا الموضوع أورده العالم الجليل د. عبده بدوي عام ١٩٢٩- ٢٠٠٥م في كتابه القيم: «الشعراء السود وخصائصهم في الشعر العربي»[١] يقول فيه:

«نُصيب بن رباح يكنى أبا الحجناء، وقيل: أبا محجن، ويسمّى نُصيباً الأكبر أو المرواني: تمييزاً عن نصيب الهاشمي... ومن المتواتر عنه أنه نوبيّ لنوبييْن سبيين كانا لخزاعة». ومما فات على د. عبده بدوي، ولم يستدركه - رحمه الله تعالى - أن نصيباً من نوبة الجبال، أو مايطلق عليه الآن جبال النوبة بغرب السودان (دارفور وما حولها): لأن الرقيق كان يجلب من تلك المناطق السودانية.

ومما يفهم من السياق أن نصيباً ولد بمصر عند أهل بيت من ودّان كان والده مولى عندهم، وودّان تقع الآن في تشاد.

وهناك روايات كثيرة في سبب اتصاله بعبدالعزيز بن مروان - والي مصر - سنة ٦٥- ٨٦هـ، لعل أقربها إلى الصحة ما قاله نصيب: «قلت الشعر وأنا شاب، فأعجبني مولي، فجعلت آتي مشيخة من بني ضمرة بن بكر بن عبد مناة (مواليه)، ومشيخة من خزاعة، فأنشدهم القصيدة من شعري، ثم أنسبها إلى بعض شعرائهم الماضين، فلما سمعت ذلك منهم علمت أني محسن... فأزمعت الخروج إلى عبدالعزيز بن مروان، فقلت لأختي أمامة، وكانت عاقلة جلدة: أي أخيّة، إني قد قلت شعراً، وأنا أريد عبدالعزيز بن مروان، وأرجو أن يعتقك الله عزوجل به وأمك ومن كان مرموقاً من أهل قرابتي». إلى أن يطرق نُصيب باب الأمير عبدالعزيز بن مروان شفاعة وتوسلات، فدخل على عبدالعزيز بثيابه الرثّة تلك وهيئته، فكان أول ما أنشده نصيب[٢]:

لعبدالعزيز على قومه ... وغيرهم نعم غامرة
فبابك ألينُ أبوابهم ... ودارك مأهولة عامرة
وكلبك آنسُ بالمعتفين ... من الأم بابنتها الزائرة
وكفُّك حين ترى السائلين ... أندى من الليلة الماطرة

ومن أجمل أبياته في عبدالعزيز:

يقولُ فيحسنُ القولَ ابنُ ليلى ... ويفعلُ فوق أحسن ما يقولُ
فتىً لا يرزأ الخلّان إلاّ ... مودتهم ويرزؤه الخليلُ
فبشّرْ أهلَ مصرَ فقد أتاهم ... مع النّيلِ الذي في مصر نيلُ

وهي في بداية عهد الأمير بالولاية على مصر.

وبقية قصة نصيب مع عبدالعزيز بن مروان مبسوطة في الأغاني

وغيره. وكيف أن الأمير عبدالعزيز بن مروان فضّله على شاعره العربي وأحد ندمائه أيمن بن خريم الأسدي!. وبعد مساجلة يسأله الأمير: فكيف شعره يا أيمن؟ فقال: هو أشعر أهل جلدته. فقال له عبدالعزيز: هو والله أشعر منك. قال: أمنّي أنا أيها الأمير؟ قال: نعم. فقال أيمن: إنّك لملول طرف. فقال له: والله، ما أنا بملول، وأنا أنازعك الطعام منذ كذا وكذا، تضع يدك حيث أضعها، وتلتقي يدك مع يدي على مائدة. كل ذلك أحتملك. وكان بأيمن بياض. فقال له أيمن: ائذن لي أخرج إلى بشر بن مروان فأذن له. فقال معرضاً بعبدالعزيز:

ركبتُ من المقطّم في جمادى ... إلى بشْر بن مروان البريدا

إلى أن يقول:

على ديباج خدّي وجه بشر ... إذا الألوان خالفت الخدودا

معرضاً بعبدالعزيز، وكان بوجهه نمش[٣].

ومما يعنينا أن نُصيباً بعد أن تشرّب بالثقافة العربية تشرّباً كبيراً تبوأ تلك المكانة الشعرية المرموقة التي نقلته من عبودية الفقر واللون إلى رحاب الحرية والثراء، ومجالسة الوالي والأمراء وعلية القوم من العرب والعجم. وقد حسده الفرزدق، وأعجب ببعض أبياته كثيّر وجرير والأحوص والكُميْت، وغيرهم من كبار شعراء القرن الأول الهجري.

ليس السّوادُ بناقصي مادام لي ... هذا اللسانُ إلى فؤاد ثابت

وقد استشهد به ثعلب في قواعد الشعر على لطافة المعنى، وهو الدلالة بالتعريض على التصريح:

فقوا خبّروني عن سليمان: إنني ... لمعروفه من أهل ودّان طالبُ

فعاجوا فأثنوا بالذي أنت أهله ... ولو سكتوا أثنت عليك الحقائب

وهناك نقاد قدامى ومحدثون استشهدوا بأبيات من شعره العربي الرصين في البلاغة والبيان. وقد سُئل نصيب عن بعض الشعراء، فقال: جميل أصدقنا شعراً، وكثير أبكانا على الظعن، وابن أبي ربيعة أكذبنا، وأنا أقول ما أعرف.

لقد ضاع بعض شعر نصيب، وسطا عليه بعض الشعراء، ونسب شعره إلى آخرين، ونسب شعر آخرين إليه. لكن بقايا ديوانه الذي بين أيدينا تعطينا صورة واضحة لنقاء الثقافة العربية التي وسّدت شاعراً أسود هذه المكانة المرموقة في دنيا الأدب بين شعراء فطاحل، وأدباء نحارير، وعلماء جهابذة، وولاة مثقفين اختاروا أهل الخبرة على أهل الثقة. فكان ذلك العصر الذهبي للكلمة الشاعرة التي لم تختلط كثيراً بالعجمة، فسمّي عصر الاحتجاج اللغوي: لنقاء جذور الكلمة عربياً، ونقاء السرائر قبل كل شيء.

هكذا عاش نصيب بن رباح (١٠٨هـ) وسط هذه البيئة العربية التي منحته هذه المكانة المرموقة: لعبقريته، ونبوغه، وحسن أخلاقه، وكياسته، ولطفه كشاعر غير غاضب على الحياة العربية، بل متصالح معها، وأمدّها بشعر رصين يحتج به في اللغة العربية، منطبقاً عليه قول النبي صلى الله عليه وسلم: «العربية لسان». وصدق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

هذه في عجالة سطور نزرة من حياة الشاعر العربي النبيل نصيب الأكبر الذي عاش نبيلاً مع النبلاء، ومات نبيلاً. عليه سحائب الرحمة، وشآبيب المغفرة[٤].

الهوامش والمراجع

١- الشعراء السود وخصائصهم في الشعر العربي، د. عبده بدوي، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة ٢٠٠١م، ص ١٢٢ .

٢- الأدب العربي في مصر من الفتح الإسلامي إلى نهاية العصر الأيوبي، محمود مصطفى، تقديم د. شوقي ضيف، وزارة الثقافة - المكتبة العربية، ١٣٨٧هـ / ١٩٦٧م، ص ٤٦.

٣- المرجع السابق، ص ٤٧.

٤- قدّم السودان الغربي بجغرافيته المتنوعة، وقبائله الكثيرة، من الصحراء الغربية إلى الصحراء الكبرى وساحل المحيط الأطلسي، من مصر حتى موريتانيا: كوكبة من المبدعين والفرسان والقادة والساسة والثوار، وغيرهم من رجال وأعلام. وقد تطرق إلى هذه الظاهرة الفريدة علماء ونقاد أقدمون، منهم - على سبيل المثال لا الحصر - الجاحظ، والسيوطي، والآمدي، وابن قتيبة، والتوحيدي، والثعالبي، وغيرهم. وقد اهتم حديثاً بهذه الظاهرة: د. عبدالمجيد عابدين (١٩١٥- ١٩٩١م)، ود. عبده بدوي (١٩٢٩- ٢٠٠٥م)، و د. عبدالله الطيب (١٩٢٣- ٢٠٠٣م)، و د. عون الشريف قاسم (٢٠٠٦م)، و د. يوسف فضل حسن (١٩٢٩م)، متّعه الله بالصحة والعافية، وغيرهم كثير. ولكني أرى أن أكثر هؤلاء المهتمين بهذه القضية الأدبية هو د. عبده بدوي الذي وهب المكتبة العربية عدة مؤلفات متنوعة خصبة حول أغربة السودان وخصائصهم الفنية والنفسية، وهي دراسات جديرة بالالتفات إليها؛ حتى لا تبقى من المسكوت عنها في الأدب العربي الحديث، فلابد من المكاشفة.









أهو الاعتياد، أم أنها الرغبة في التلاشي؟
ترى ما الذي نبحث عنه في هذه الأدخنة؟
أهي الراحة، أم يقين خفي، أم أنه عبث الاعتياد الذي استغلته صناعة السموم كي تسحب في فلكها مزيداً من الضحايا؟!
لندع الصورة تتحدث؛ فلعلها الأبلغ في هذا السياق!!.

